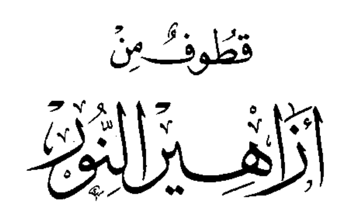
قطوف من

أزاهير النور

بديع الزمان
سعيد النورسي

ترجمة
احسان قاسم الصالحي


قطوف من
أزاهير النور



الطبعة الثانية

مطبعة العاني – بغداد

١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م

رقم الإيداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٨٣٤ لسنة ١٩٨٣

قطوف من

أزاهير النور

بديع الزمان سعيد النورسي

ترجمة

إحسان قاسم الصالحي



الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه وسلم.

وبعد..

فهذه مقتطفات من أزاهير "رسائل النور" لم نتكلف اختيارها،بل جاءت كما شاء الله تعالى، فكانت هذه البحوث الإيمانية التي وفقنا المولى عز وجل على القيام بترجمتها من أصلها التركي، وقامت مجلة التربية الإسلامية الغراء التي تصدر ببغداد على نشرها طيلة أربع سنوات خلت. وقد جمعناها الآن وفق مواضيعها . ولم نزد فيها شيئاً على ما كان إلا ما دعت اليه الحاجة من وضع عناوين أو تعليقات قليلة في الهوامش لتوضيح فكرة أو الاشارة الى مرجع.

ومؤلف"رسائل النور" الأستاذ النورسي، ولد في سنة ١٢٩٣هـ(١٨٧٦ م)، في قرية (نورس) الواقعة في جنوب شرقي تركيا الحالية، لأبوين اشتهرا في القرية بورعهما المثاليين، صبي أسمياه سعيدًا، كتب له القدر أن يكون أحد أبرز علماء الإصلاح الديني والاجتماعي في العصر الراهن ..

طفل لم تكن حياته إلا ملحمة من الوقائع والأحداث التي تصب جميعها في خدمة القرآن العظيم وتفسير نصوصه، وبيان مرامي آياته البينات، ضمن رؤية تبلورت مع الزمن ومع أطوار رحلة العمر، وكانت غايتها النهائية بث اليقظة، وإعادة الحياة والفعل للأمة المسلمة بعد طول رقاد ..

ما برح سعيد أن التحق بمجموعة من الكتاتيب والمرافق التعليمية المبثوثة في تلك النواحي من حول قريته نورس.. وكان يستوعب كل ما يقدم له من علم، وسرعان ما أضحى لا يجد ما يستجيب لنهمه التحصيلي في المراكز التي يقصدها. من هنا كانت إقامته في تلك المراكز ظرفية، إذ كان يتوق إلى الاستزادة المعرفية الحقَّة .. وظل يرتحل من مركز إلى مركز، ومن عالم إلى آخر.... حتى حفظ ما يقرب من تسعين كتابًا من أمهات الكتب .

وتهيأ بعد ذلك وبفضل المحصول العلمي الجم الذي اكتسبه في طفولته المبكرة تلك، أن يجلس إلى المناظرة ومناقشة العلماء، وانعقدت له عدة مجالس تناظر فيها مع أبرز الشيوخ والعلماء في تلك المناطق، وظهر عليهم جميعًا ..وطارت شهرته في الآفاق.

وفي سنة ١٣١٤هـ(١٨٩٧م) ذهب إلى مدينة "وان" وانكبّ فيها بعمق على دراسة كتب الرياضيات والفلك والكيمياء والفيزياء والجيولوجيا والفلسفة والتاريخ؛ حتى تعمَّق فيها إلى درجة التأليف في بعضها فسمّي بـ "بديع الزمان" اعترافًا من أهل العلم بذكائه الحاد.. وعلمه الغزير.. واطلاعه الواسع .

في هذه الأثناء نُشر في الصحف المحلية أن وزير المستعمرات البريطاني "غلادستون" قد صرّح في مجلس العموم البريطاني وهو يخاطب النواب قائلاً: "ما دام القرآن بيد المسلمين فلن نستطيع أن نحكمهم، لذلك فلا مناص لنا من أن نزيله من الوجود أو نقطع صلة المسلمين به". زلزل هذا الخبر كيانه وأقضّ مضجعه فأعلن لمن حوله: "لأبرهنن للعالم بأن القرآن شمس معنوية لا يخبو سناها ولا يمكن إطفاء نورها". فشد الرحال إلى استانبول عام ١٣٢٥هـ (١٩٠٧ م)، وقدّم مشروعًا إلى السلطان عبد الحميد الثاني –رحمه الله– لإنشاء جامعة إسلامية في شرقي الأناضول، أطلق عليها اسم "مدرسة الزهراء" – على غرار الأزهر الشريف– تنهض بمهمة نشر حقائق الإسلام وتدمج فيها الدراسة الدينية مع العلوم الكونية الحديثة على وفق مقولته: "ضياء القلب هو العلوم الدينية، ونور العقل هو العلوم الحديثة، فبامتزاجهما تتجلّى الحقيقة، فتتربّى همة الطالب وتعلو بكلا الجناحين، وبافتراقهما يتولد التعصب في الأولى والحيل والشبهات في الثانية ."

في سنة ١٣٢٩هـ (١٩١١ م) سافر إلى الشام، والتقى برجالاتها وعلمائها، وبسبب ما لمسوا فيه من علم ونجابة، استمعوا إليه في الجامع الأموي الشهير وهو يخطب في الآلاف من المصلين خطبة حفظها لنا الزمن واشتهرت في تراثه بـ"الخطبة الشامية ". لقد كانت تلك الخطبة برنامجًا سياسيًا واجتماعيًا متكاملاً .

وباندلاع الحرب كان طبيعيًا أن يهب بديع الزمان في طليعة المجاهدين، فشكل فرقًا فدائية من طلابه، واستمات معهم في الدفاع عن حمى الوطن في جبهة القفقاس، وجرح في المعارك مع الروس وأسر (١٣٣٤ هـ) واقتيد شبه ميت إلى " قوصتورما" من مناطق سيبيريا في روسيا حيث قضى سنتين وأربعة أشهر، هيأ له الله أثناء "الثورة البلشفية" الانفلات، فعاد إلى بلاده (١٩ رمضان ١٣٣٦/٨ يوليو ١٩١٨) واستقبل استقبالاً رائعًا من قبل الخليفة وشيخ الإسلام والقائد العام وطلبة العلوم الشرعية، ومنح وسام الحرب. وكلَّفته الدولة بتسلّم بعض

الوظائف، رفضها جميعًا إلاّ ما عينته له القيادة العسكرية من عضوية في "دار الحكمة الإسلامية"، التي كانت لا توجه إلاّ لكبار العلماء، فنشر في هذه الفترة أغلب مؤلفاته باللغة العربية منها: تفسيره القيّم "إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز"، الذي ألفّه في خِضَمّ المعارك، و"المثنوي العربي النوري ."

وبعد دخول الغزاة إلى استانبول (١٩١٩/١١/١٣) أحس النورسي أن طعنة كبيرة وجهت إلى العالم الإسلامي، فكان حتما أن يقف في طليعة من يتصدى للقهر والهزيمة، فسارع إلى تحرير كتيب" الخطوات الست" حرك به همة مواطنيه، ووضع تصوره لرفع المهانة وإزالة عوامل القنوط التي ألحقتها الهزيمة بالعثمانية والمسلمين عامة ..

وفي هذه الفترة (أي منذ ١٩٢٢م) وُضعت قوانين وأُتخذت القرارات لقلع الإسلام من جذوره، وإخماد جذوة الإيمان في قلب الأمة التي رفعت راية الإسلام طيلة ستة قرون من الزمان. فأُلغيت السلطنة العثمانية في (١٩٢٢/١١/١) وأعقبه إلغاء الخلافة في (١٩٢٤/٣/٣).

وقام الشيخ سعيد بيران (البالوي) النقشبندي (١٩٢٥/٢/١٣) بالثورة ضد السلطة آنذاك، وطلب قائد الثورة من بديع الزمان استغلال نفوذه لإمداد الثورة إلا أنه رفض المشاركة وكتب رسالة إليه جاء فيها :

"إن ما تقومون به من ثورة تدفع الأخ لقتل أخيه ولا تحقق أية نتيجة، فالأمة التركية قد رفعت راية الإسلام، وضحّت في سبيل دينها مئات الألوف بل الملايين من الشهداء، فضلاً عن تربيتها ملايين الأولياء، لذا لا يُستل السيف على أحفاد الأمة البطلة المضحية للإسلام، الأمة التركية، وأنا أيضًا لا أستلُّه عليهم . "

ورغم ذلك لم ينجُ بديع الزمان من شرارة الفتن والاضطرابات؛ فنفي مع الكثيرين إلى "بوردو" ، ووصل إليها في شتاء سنة ١٩٢٦م. ثم نفي وحده إلى ناحية نائية وهي "بارلا" جنوب غربي الأناضول. يقول عن نفسه في هذه الفترة: "... صرفت كل همي ووقتي إلى تدبّر معاني القرآن الكريم. وبدأت أعيش حياة " سعيد الجديد".. أخذتني الأقدار نفيًا من مدينة إلى أخرى.. وفي هذه الأثناء تولَّدت من صميم قلبي معاني جليلة نابعة من فيوضات القرآن الكريم.. أمليتها على مَن حولي من الأشخاص، تلك الرسائل التي أطلقت عليه

"رسائل النور"، وهكذا استمر الأستاذ النورسي على تأليف رسائل النور حتى سنة ١٩٥٠م وهو يُنقل من سجن إلى آخر ومن محكمة إلى أخرى ..هكذا طوال ربع قرن من الزمان. ولم يتوقف خلاله من التأليف والتبليغ حتى أصبحت في أكثر من (١٣٠) رسالة، جمعت تحت عنوان "كليات رسائل النور" التي لم تتيسر لها أن ترى طريقها إلى المطابع إلا بعد سنة ١٩٥٤م. وكان الأستاذ النورسي يشرف بنفسه على الطبع حتى كمل طبع الرسائل جميعها .

لبىّ النورسي نداء ربه الكريم في الخامس والعشرين من رمضان المبارك سنة ١٣٧٩هـ الموافق ٢٣ آذار١٩٦٠ م فدفن في مدينة "أورفة".. ولكن السلطات العسكرية الحاكمة لم تدعه يرتاح حتى في قبره؛ إذ قاموا بعد أربعة أشهر من وفاته بهدم القبر، ونقل رفاته بالطائرة إلى جهة مجهولة، بعد أن أعلنوا منع التجول في مدينة "أورفة". فأصبح قبره مجهولا حتى الآن لا يعرفه الناس.

رحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن دينه وأمته خير الجزاء.

إحسان قاسم الصالحي

ربيع الأول ١٤٠٣هـ

كانون الثاني١٩٨٣م

من رياض الايمان

***بسم الله الرحمن الرحيم**

***جددوا إيمانكم**

***الايمان هو المفتاح**

***الحمد لله على نعمة الإيمان**

*** أركان الايمان حقيقة واحدة لا تتجزأ**



((بسم الله)) رأس كل خير وبدء كل أمر ذي بال، فنحن أيضاً نستهل بها.

فيا نفسي إعلمي! ان هذه الكلمة الطيبة المباركة كما أنها شعار الإسلام، فهي ذكر جميع الموجودات بألسنة أحوالها.

فان كنت راغبة في إدراك مدى ما في ((بسم الله)) من قوة هائلة لا تنفد، ومدى ما فيها من بركة واسعة لا تنضب، فاستمعي الى هذه الحكاية التمثيلية القصيرة:

ان البدوي الذي يتنقل في الصحراء ويسيح فيها لابد له أن ينتمي الى رئيس قبيلة، ويدخل تحت حمايته، كي ينجو من شر الاشقياء، وينجز اشغاله ويتدارك حاجاته، وإلاّ فسيبقى وحده حائراً مضطرباً أمام كثرة من الاعداء، ولا حد لها من الحاجات.

وهكذا.. فقد توافق ان قام اثنان بمثل هذه السياحة؛ كان احدهما متواضعاً، والآخر مغروراً، فالمتواضع انتسب الى رئيس، بينما المغرور رفض الانتساب. فتجولا في هذه الصحراء.. فما كان المنتسب يحل في خيمة إلا ويقابل بالاحترام والتقدير بفضل ذلك الاسم وإن لقيه قاطع طريق يقول له: ((إنني اتجول باسم ذلك الرئيس)).. فيتخلى عنه الشقي. اما المغرور فقد لاقى من المصائب

والويلات ما لا يكاد يوصف، اذ كان طوال السفرة في خوف دائم ووجل مستمر، وفي تسوّل مستديم، فأذلّ نفسه واهانها.

فيا نفسي المغرورة! إعلمي!.. انك انتِ ذلك السائح البدوي. وهذه الدنيا الواسعة هي تلك الصحراء. وان ((فقرك)) و ((عجزك)) لاحد لهما، كما ان اعداءك وحاجاتك لا نهاية لهما. فما دام الأمر هكذا؛ فتقلدي اسم المالك الحقيقي لهذه الصحراء وحاكمها الأبدي، لتنجي من ذُلّ التسول امام الكائنات، ومهانة الخوف امام الحادثات.

نعم! ان هذه الكلمة الطيبة ((بسم الله)) كنز عظيم لا يفنى ابداً، اذ بها يرتبط((فقرك)) برحمة واسعة مطلقة أوسع من الكائنات، ويتعلق ((عجزك)) بقدرة عظيمة مطلقة تمسك زمام الوجود من الذرات الى المجرات، حتى انه يصبح كل من عجزك وفقرك شفيعين مقبولين لدى القدير الرحيم ذي الجلال.

ان الذي يتحرك ويسكن ويصبح ويمسي بهذه الكلمة ((بسم الله)) كمن انخرط في الجندية؛ يتصرف باسم الدولة ولا يخاف أحداً، حيث انه يتكلم باسم القانون وباسم الدولة، فينجز الاعمال ويثبت امام كل شئ.

وقد ذكرنا في البداية: ان جميع الموجودات تذكر بلسان حالها اسم الله، اي انها تقول: ((بسم الله)).. أهو كذلك؟

نعم! فكما لو رأيت ان أحداً يسوق الناس الى صعيد واحد، ويرغمهم على القيام بأعمال مختلفة، فانك تتيقن ان هذا الشخص لا يمثل نفسه ولا يسوق الناس باسمه وبقوته، وانما هو جندي يتصرف باسم الدولة، ويستند الى قوة سلطان.

فالموجودات ايضاً تؤدي وظائفها باسم الله؛ فالبذيرات المتناهية في الصغرتحمل فوق رؤوسها باسم الله اشجاراً ضخمة واثقالاً هائلة. أي ان كل شجرة تقول:

((بسم الله)) وتملأ ايديها بثمرات من خزينة الرحمة الإلهية وتقدمها الينا.. وكل بستان يقول: ((بسم الله)) فيغدو مطبخاً للقدرة الإلهية تنضج فيه انواع من الاطعمة اللذيذة.. وكل حيوان من الحيوانات ذات البركة والنفع ـ كالابل والمعزى والبقر ـ يقول: ((بسم الله)) فيصبح ينبوعاً دفاقاً للّبن السائغ، فيقدم الينا باسم الرزاق ألطف مغذّ وانظفه.. وجذور كل نبات وعشب تقول ((بسم الله)) وتشق الصخور الصلدة باسم الله وتثقبها بشعيراتها الحريرية الرقيقة فيُسخَّر أمامها باسم الله وباسم الرحمن كل أمر صعب وكل شئ صلد!.

نعم، ان انتشار الاغصان في الهواء وحملها للأثمار، وتشعب الجذور في الصخور الصماء، وخزنها للغذاء في ظلمات التراب.. وكذا تحمّل الاوراق الخضراء شدة الحرارة ولفحاتها، وبقاءها طرية ندية.. كل ذلك وغيره صفعة قوية على افواه الماديين عَبَدة الاسباب، وصرخة مدوية في وجوههم، تقول لهم: ان ما تتباهون به من صلابة وحرارة ايضاً لا تعملان بنفسيهما، بل تؤديان وظائفهما بأمر آمر واحد، بحيث يجعل تلك العروق الدقيقة الرقيقة كأنها عصا موسى تشق الصخور وتمتثل أمر{ فَقُلنا اضرب بعصاك الحَجَر} (البقرة:٦٠) ويجعل تلك الاوراق الطرية الندية كأنها اعضاء ابراهيم عليه السلام تقرأ تجاه لفحة الحرارة: { يا نارُ كوني برداً وسلاماً....} (الانبياء:٦٩).

فما دام كل شئ في الوجود يقول معنىً ((بسم الله)) ويجلب نِعَم الله باسم الله ويقدمّها الينا، فعلينا ان نقول ايضاً ((بسم الله)) ونعطي باسم الله ونأخذ باسم الله. وعلينا ايضاً ان نردّ أيدي الغافلين الذين لم يعطوا باسم الله.

سؤال: اننا نبدي احتراماً وتوقيراً لمن يكون سبباً لنعمة علينا، فيا ترى ماذا يطلب منا ربنُّا الله صاحب تلك النعم كلها ومالكها الحقيقي؟

الجواب: ان ذلك المنعم الحقيقي يطلب منا ثلاثة امور ثمناً لتلك النعم الغالية:

الاول: الذكر.. الثاني: الشكر.. الثالث: الفكر..

ف ((بسم الله)) بدءاً هي ذكرٌ، و ((الحمد لله)) ختاماً هي شكرٌ، وما يتوسطهما هو ((فكر)) اي التأمل في هذه النعم البديعة، والادراك بأنها معجزة قدرة الأحد الصمد وهدايا رحمته الواسعة... فهذا التأمل هو الفكر.

ولكن أليس الذي يقبّل أقدام الجندي الخادم الذي يقدّم هدية السلطان يرتكب حماقة فظيعة وبلاهة مشينة؟ اذن فما بال مَن يُثني على الاسباب المادية الجالبة للنعم، ويخصصها بالحب والود، دون المنعم الحقيقي! ألا يكون مقترفاً بلاهة أشد منها الف مرة؟

فيا نفس!! ان كنت تأبين أن تكوني مثل الاحمق الابله،

فاعطي باسم الله..

وخذي باسم الله..

وابدأي باسم الله..

واعملي باسم الله.. (**الكلمات، الكلمة الاولى**)

جددوا ايمانكم

ان الانسان لكونه يتجدد بشخصه وبعالمه الذي يحيط به فهو بحاجة الى تجديد ايمانه دائماً، لأن الانسان الفرد ما هو الاّ افراد عديدة، فهو فرد بعدد سني عمره، بل بعدد ايامه، بل بعدد ساعاته حيث أن كل فرد يعد شخصاً آخر، ذلك لان الفرد الواحد عندما يجري عليه الزمن يصبح بحكم النموذج، يلبس كل يوم شكل فرد جديد آخر.

ثم ان الانسان مثلما يتعدد ويتجدد هكذا. فان العالم الذي يسكنه سيار ايضاً لايبقى على حال. فهو يمضي ويأتي غيره مكانه، فهو في تنوع دائم، فكل يوم يفتح باب عالم جديد.

فالايمان نور لحياة كل فرد من افراد ذلك الشخص من جهة كما انه ضياء للعوالم التي يدخلها. وما ((لا اله الاّ الله)) الا مفتاح يفتح ذلك النور.

ثم ان الانسان تتحكم فيه النفس والهوى والوهم والشيطان وتستغل غفلته وتحتال عليه لتضيق الخناق على ايمانه، حتى تسد عليه منافذ النور الايماني بنثر الشبهات والاوهام. فضلاً عن انه لا يخلو عالم الانسان من كلمات واعمال منافية لظاهر الشريعة، بل تعد لدى قسم من الائمة في درجة الكفر.

لذا فهناك حاجة الى تجديد الايمان في كل وقت، بل في كل ساعة، في كل يوم.

فحقاً قال سيدنا الرسول (صلى الله عليه وسلم): (جددوا ايمانكم، أكثروا من قول: لا إله الاّ الله) حديث صحيح، رواه احمد والحاكم. **(المكتوبات، المكتوب/٢٦، المسألة الرابعة)**

وهكذا يا أخي:

ففي استانبول يروّج - وباسلوب رهيب جداً - قسم من المنافقين الذين تورطوا في الكفر المطلق - المشحون بالفوضوية والارهاب - كلاماً من هذا القبيل فيقولون: "لا داعي لنا لمزيد من دروس الايمان لان كل امة بل الناس جميعاً يعرفون الله". وذلك محاولة منهم لصد رسائل النور وحرمان الناس من الحقائق الايمانية التي فيها، التي يحتاجها الناس كلهم حاجتهم الى الماء والخبز.

والحال ان "معرفة الله سبحانه" والايمان بحقائق "لا إله الاّ الله"، يستلزم التصديق القلبي، والايمان المطلق الجازم بربوبيته سبحانه وتعالى، الشاملة المحيطة بكل ما في الكون، وان مقاليد الأمور - من الذرات الى المجرات - بجزئياتها وكلياتها في قبضته سبحانه، ولا تدار الاّ بقدرته، وتحت ارادته، فلا شريك له في ملكه.

أما النطق والتفوه بان "الله موجود" ثم اسناد تصريف الأمور في ملكه الى الأسباب التي لا عدّ لها والى "الطبيعة" واتخاذها شركاء لله تعالى، ومن ثم الجهل بارادته النافذة، وعلمه المطلق، ومثول كل شئ بين يديه، فضلاً عن عدم الاهتمام بأوامره ونواهيه، والجهل بصفاته الجليلة، وما أرسل من رسله.. لا شك ان هذا كله ليس من الايمان في شئ.

ولا ينطق بهذا ناطق الاّ ليسلّي به نفسه وينجيها من التعذيب الدنيوي الروحي الذي يعذّب به الكفر المطلق أصحابه في الدنيا قبل الآخرة.

نعم ان "عدم الانكار" شئ و"الإيمان" شئ آخر تماماً، اذ ما من ذي حس أو شعور يمكنه ان ينكر الخالق ذا الجلال الذي تشهد بربوبيته وعظمته وحكمته وجماله جميع أجزاء الكون.. فلو حاول الانكار لحال دونه الكون باجمعه، فيخرس، ويبقى وحيداً سائباً معزولاً شارداً دون سند.

اما الايمان، فلقد علّمنا القرآن الكريم انه: التصديق القلبي بوجود الخالق جل وعلا بصفاته المقدسة وباسمائه الحسنى، مستنداً الى شهادة الكون جميعاً.

انه – أي الايمان – تطبيق لما جاء به الرسل الكرام – عليهم السلام – من أوامره سبحانه وتعالى ونواهيه..

واذا سوّلت للانسان نفسه أمراً، فدونه باب الاستغفار والانابة.. اما ان يقترف كبيرة من الكبائر بلا اهتمام ولا مبالاة بالأوامر، ودون استغفار وانابة، فلا شك ان ذلك دليل خلوه من الايمان.(**الملاحق – ملحق أميرداغ/١، ص: ٢٩٦**)

هذا وقد أثار آخرون سؤلاً هو :

ان الايمان لا ينحصر في تصديق اجمالي وتقليدي وحده، بل له انجلاء ومراتب كثيرة جدا كالمراتب الموجودة بين البذرة النامية الى الشجرة الباسقة أو كالمراتب الموجودة بين انعكاس الضوء من المرآة الصغيرة في اليد الى انعكاسه من سطح البحر بل الى انعكاسه من الشمس نفسها.

فإن للايمان حقائق غزيرة جداً اذ ترتبط حقائق كثيرة لأنوار ألف اسم واسم من الاسماء الحسنى، ولسائر أركان الايمان بحقائق الكون. حتى اتفق أهل الحقيقة على أن أجلّ العلوم قاطبة وقمة المعرفة وذروة الكمال الانساني انما هو في الايمان والمعرفة القدسية السامية المفصلة والمبرهنة النابعة من الايمان التحقيقي.

نعم ان الايمان التقليدي معرّض لهجمات الشبهات والاوهام. أما الايمان التحقيقي فهو أوسع منه واقوى وأمتن وله مراتب كثيرة جدا.

ومنها: مرتبة **علم اليقين** التي تقاوم الشبهات المهاجمة بقوة مافيها من براهين. بينما الايمان التقليدي لا يثبت أمام شبهة واحدة.

ومنها مرتبة **عين اليقين** التي تضم مراتب كثيرة جداً بل لها مظاهر بعدد الاسماء الالهية حتى تجعل الكون يتلو ايات الله كالقرآن الكريم.

ومرتبة اخرى منها هي مرتبة **حق اليقين** .. وهذه تضم مراتب كثيرة جداً. فصاحب هذا الايمان لا تنال منه جيوش الشبهات اذا هاجمته.

ولقد اوضح علماء الكلام الطريق العقلي والمبرهن لتلك المعرفة الايمانية، وذلك في الوف من مجلدات مؤلفاتهم المستندة الى العقل والمنطق.

أما أهل الحقيقة والتصوف فقد أوضحوا تلك المعرفة الايمانية من جهة اخرى وبشكل آخر في مئات من كتبهم المستندة الى الكشف والذوق.

أما المنهج القرآني المعجز، ذلك المنهج الأقوم فقد أوضح الحقائق الايمانية والمعرفة الالهية والمقدسة ايضاحاً أرفع بكثير واسمى بكثير واقوى بكثير مما اوضحه اولئك العلماء والاولياء.

فرسائل النور انما تفسر هذا المنهج القرآني الاقوم الجامع الرفيع. وبه تتصدى للتيارات الفاسدة المضلة المدمرة والواردة على القرآن الكريم للاضرار – في سبيل عوالم العدم – بالاسلام وبالانسانية منذ الف سنة.

فلا ريب انها – اي الرسائل – بحاجة ماسة الى حشد براهين لا حد لها امام اولئك الاعداء غير المحدودين، كي تتمكن من ان تكون وسيلة – بهذه البراهين المفاضة من القرآن – للحفاظ على ايمان المؤمنين.

فلقد ورد في الحديث الشريف:

(فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير من ان يكون لك حمر النعم) (رواه الطبراني)

وان (تفكر ساعة خير من عبادة سنة). (**الملاحق – ملحق أميرداغ/١، ص: ٢٧٩**)

الايمان هو المفتاح

اذا اردت ان تفهم ما الدنيا وما دور الروح الانسانية فيها، وما قيمة الدين عند الانسان وكيف أنه لولا الدين الحق لتحولت الدنيا الى سجن رهيب، وأن الشخص الملحد هو أشقى المخلوقات، وأن الذي يحل طلسم العالم ولغزه المحير وينقذ الروح البشرية من الظلمات اِن هو إلا يا الله... لا إله إلا الله.. أجل اذا كنت تريد أن تفهم كل ذلك فانصت الى هذه الحكاية التمثيلية القصيرة وتفكر فيها ملياً:

كان شقيقان في قديم الزمان يذهبان معاً الى سياحة طويلة، فواصلا سيرهما سوية الى أن وصلا الى مفرق طريقين، فرأيا هناك رجلاً وقوراً فسألاه: أيّ الطريقين أفضل؟.

فأجابهما: في الطريق اليمين التزام اجباري للقانون والنظام، إلاّ أن في ثنايا ذلك التكليف ثمة أمان وسعادة. أما طريق الشمال ففيه الحرية والتحرر الا أن في ثنايا تلك الحرية تهلكة وشقاء. والآن لكم الخيار في سلوك أيهما.

وبعد الاستماع الى هذا الكلام سلك الأخ ذو الطبع الطيب طريق اليمين قائلاً: توكلت على الله. وانطلق راضياً عن طيب نفس باتباع النظام والانتظام. أما الأخ الآخر الغاوي، فقد رجّح طريق الشمال لمجرد هوى التحرر الذي فيه.

والآن فلنتابع خيالاً هذا الرجل السائر في طريق ظاهره السهولة والخفة وباطنه من قبله الثقل والعناء. فما أن عبر الوديان العميقة والمرتفعات العالية الوعرة حتى دخل وسط مفازة خالية وصحراء موحشة؛ فسمع صوتاً مخيفاً، ورأى أن أسداً ضخماً غضوباً قد انطلق من الأحراش نحوه؛ ففر منه فراراً وهو يرتعد خوفاً وهلعاً، فصادف بئراً معطلة على عمق ستين ذراعاً فألقى نفسه فيها طلباً للنجاة، وفي

أثناء السقوط لقَيت يداه شجرةً فتشبث بها. وكان لهذه الشجرة جذران نبتا على جدار البئر وقد سلّط عليهما فأران، أبيض وأسود. وهما يقضمان ذينك الجذرين بأسنانهما الحادة. فنظر الى الأعلى فرأى الأسد واقفاً كالحارس على فوهة البئر، ونظر الى الأسفل فرأى ثعباناً كبيراً جداً قد رفع رأسه يريد الاقتراب منه وهو على مسافة ثلاثين ذراعاً، وله فم واسع سعة البئر نفسها. ورأى ثمة حشرات مؤذية لاسعة تحيط به. نظر الى أعلى الشجرة فرأى أنها شجرة تين، الا أنها تثمر بصورة خارقة أنواعاً مختلفة وكثيرة من فواكه الأشجار ابتداء من الجوز وانتهاء الى الرمان.

لم يكن هذا الرجل ليفهم ـ لسوء ادراكه وحماقته ـ بأن هذا الأمر ليس اعتيادياً، ولا يمكن أن تأتي كل هذه الأشياء مصادفةً ومن دون قصد. ولم يكن يفهم أن في هذه الشؤون العجيبة أسراراً غريبة، وأن هناك وراء كل ذلك من يدبّر هذه الأمور ويسيّرها.

فبينما يبكي قلب هذا الرجل وتصرخ روحه ويحار عقله من اوضاعه الاليمة اذا بنفسه الأمارة بالسوء أخذت تلتهم فواكه تلك الشجرة متجاهلة عما حولها وكأن شيئاً لم يحدث؛ سادّة أذنيها عن صرخات القلب وهواتف الروح، خادعة نفسها بنفسها رغم أن قسماً من تلك الفواكه كانت مسمومة ومضرة.

وهكذا نرى أن هذا الرجل الشقي قد عومل بمثل ما جاء في الحديث القدسي: ((أنا عند ظن عبدي بي)) أي: أنا أعامل عبدي مثلما يعرفني هو. فلقد عومل هكذا، وسيعامل مثلها ايضاً، بل لابد أن يرى مثل هذه المعاملة جزاء تلقيه كل ما يشاهده أمراً عادياً بلا قصد ولا حكمة وكأنه الحق بعينه، وذلك لسوء ظنه وبلاهته الخرقاء؛ فصار يتقلب في نار العذاب ولا يستطيع أن يموت لينجو ولا يقدر على العيش الكريم.

ونحن بدورنا سنرجع تاركين وراءنا ذلك المشؤوم يتلوى في عذابه؛ لنعرف ما جرى للأخ الآخر من أحوال.

فهذا الرجل المبارك ذو العقل الرشيد ما يزال يقطع الطريق دون أن يعاني الضيق كأخيه، ذلك لأنه لا يفكر الا في الأشياء الجميلة ـ لما له من جمال الخُلق ـ ولا يأخذ بعنان الخيال الا بما هو جميل ولطيف، لذا كان يستأنس بنفسه ولا يلاقي الصعوبة والمشقة كأخيه. ذلك لأنه يعرف النظام، ويعمل بمقتضى الولاء والاتباع. فيرى الأمور تسهل له، ويمضي حراً منطلقاً مستظلاً بالأمان والاستقرار. وهكذا مضى حتى وجد بستاناً فيه أزهار جميلة وفواكه لطيفة مع ثمة جثث حيوانات وأشياء منتنة مبعثرة هنا وهناك بسبب اهمال النظافة. كان أخوه الشقي قد دخل ـ من قبل ـ في مثل هذا البستان أيضاً غير أنه انشغل بمشاهدة الجيف الميتة وانعام النظر فيها مما أشعره بالغثيان والدوار. فغادره دون أن يأخذ قسطاً من الراحة لمواصلة السير. أما هذا الأخ فعملاً بقاعدة ((انظر الى الأحسن من كل شي)) فقد أهمل الجيف ولم يلتفت اليها مطلقاً، بل استفاد مما في البستان من الأشياء والفواكه. وبعدما استراح فيه الراحة التامة مضى الى سبيله.

ودخل ـ هو أيضاً كأخيه ـ في صحراء عظيمة ومفازة واسعة. وفجأة سمع صوت أسد يهجم عليه فخاف الاّ انه دون خوف أخيه، حيث فكّر بحُسن ظنه وجمال تفكيره قائلاً: لابد أن لهذه الصحراء حاكماً، فهذا الأسد اذن يحتمل أن يكون خادماً أميناً تحت أمرته.. فوجد في ذلك اطمئناناً، غير أنه فرّ كذلك حتى وصل وجهاً لوجه الى بئر معطلة بعمق ستين ذراعاً فألقى نفسه فيها وأمسك ـ كصاحبه ـ بشجرة في منتصف الطريق من البئر.. وبقي معلقاً بها، فرأى حيوانين اثنين يقطعان جذري تلك الشجرة رويداً رويداً.. فنظر الى الأعلى فرأى الأسد، ونظر الى الأسفل فرأى ثعباناً ضخماً، ونظر الى نفسه فوجدها ـ كأخيه تماماً ـ في

وضع عجيب غريب. فدهش من الأمر هو كذلك إلا انه دون دهشة أخيه بألف مرة، لما منحه الله من حُسن الخلق وحُسن التفكير والفكر الجميل الذي لا يريه الا الجهة الجميلة من الأشياء. ولهذا السبب فقد فكّر هكذا: أن هذه الأمور العجيبة ذات علاقات مترابطة بعضها ببعض، وأنها لتظهر كأن آمراً واحداً يحركها؛ فلابد اذن أن يكون في هذه الأعمال المحيرة سرّ مغلق وطلسم غير مكشوف.

أجل! ان كل هذا يرجع الى أوامر حاكم خفي، فأنا اذن لست وحيداً، بل ان ذلك الحاكم الخفي ينظر اليّ ويرعاني ويختبرني، ولحكمة مقصودة يسوقني الى مكان، ويدعونني اليه. فنشأ لديه من هذا التفكير الجميل والخوف اللذيذ شوقٌ أثار هذا السؤال: مَن يكون يا ترى هذا الذي يجرّبني ويريد أن يعرّفني نفسه؟ ومَن هذا الذي يسوقني في هذا الطريق العجيب الى غاية هادفة؟ ثم نشأ من الشوق الى التعرف محبة صاحب الطلسم، ونمت من تلك المحبة رغبة حل الطلسم، ومن تلك الرغبة انبثقت رغبة اتخاذ وضع جميل وحالة مقبولة لدى صاحب الطلسم حسب ما يحبه ويرضاه.

ثم نظر أعلى الشجرة فرأى أنها شجرة تين، غير أن في نهاية أغصانها آلاف الأنواع من الأثمار والفواكه، وعندها ذهب خوفه وزال نهائياً، لأنه علم علماً قاطعاً بأن شجرة التين هذه انما هي فهرس ومعرض، حيث قلد الحاكم الخفي نماذج ما في بستانه وجناته بشكل معجز عليها وزيّنها بها، اشارةً لما أعدّه من أطعمة ولذائذ لضيوفه.. وإلا فان شجرة واحدة لن تعطي أثمار آلاف الأشجار. فلم يرَ أمامه الاّ الدعاء والتضرع، فألح متوسلاً بانكسار الى أن اُلهم مفتاح الطلسم فهتف قائلاً:

((يا حاكم هذه الديار والآفاق! التجئ اليك وأتوسل وأتضرع، فانا لك خادم، أريد رضاك وأنا أطلبك وأبحث عنك))..

فانشق جدار البئر فجأة بعد هذا الدعاء، عن باب يفتح الى بستان فاخر طاهر جميل، وربما انقلب فم ذلك الثعبان الى ذلك الباب واتخذ كل من الأسد والثعبان صورة الخادم وهيأته.. فأخذا يدعوانه الى البستان حتى أن ذلك الأسد تقمص شكل حصان مسخّر بين يديه.

فيا نفسي الكسلى! ويا صاحبي في الخيال..

تعالا لنوازن بين أوضاع هذين الأخوين كي نعلم كيف أن الحسنة تجلب الحسنة وأن السيئة تأتي بالسيئة.

ان المسافر الشقي الى جهة الشمال معرّض في كل آن أن يلج في فم الثعبان فهو يرتجف خوفاً وهلعاً. بينما هذا السعيد يُدعى الى بستان أنيق بهيج مثمر بفواكه شتى.. وان قلب ذلك الشقي يتمزق في خوف عظيم ورعب أليم بينما هذا السعيد يرى غرائب الأشياء وينظر اليها بعبرة حلوة وخوف لذيذ ومعرفة محبوبة.. وان ذلك الشقي المسكين ليعاني من الوحشة واليأس واليتم عذاباً وأي عذاب! بينما هذا السعيد يتلذذ في الأنس ويترفل في الأمل والشوق.. ثم ان ذلك المنكود يرى نفسه محكوماً عليه ـ كالسجين ـ بهجمات الحشرات المؤذية، بينما هذا السعيد المحظوظ يتمتع متعة ضيف عزيز. وكيف لا وهو ضيف عند مضيّف كريم، فيستأنس مع عجائب خدمه. ثم أن ذلك السئ الحظ ليعجّل عذابه في النار بأكله مأكولات لذيذة الطعم ظاهراً ومسمومة حقيقةً ومعنىً، اذ ان تلك الفواكه ما هي الاّ نماذج، قد أُذن للتذوق منها فحسب ليكون طالباً لحقائقها وأُصولها ويكون شاريها الأصيل وإلاّ فلاسماح للشراهة منها كالحيوان. أما هذا السعيد المحمود فانه يتذوق منها اذ يعي الأمر، مؤخّراً أكلها وملتذاً بالانتظار.. ثم ان

ذلك الشقي يكون قد ظلم نفسه بنفسه؛ جاراً عليها وضعاً مظلماً وأوهاماً ذات ظلمات حتى كأنه في جحيم، بانعدام بصيرته عن حقائق ساطعة كالنهار وأوضاع جميلة باهرة، فلا هو مستحق للشفقة ولا له حق الشكوى، مَثَله في هذا مثل رجل وسط أحبائه في موسم الصيف وفي حديقة جميلة بهيجة في وليمة طيبة للأفراح، فلعدم قناعته بها راح يرتشف كؤوس الخمر . أم الخبائث . حتى أصبح سكيراً ثملاً؛ فشرع بالصراخ والعويل، وبدأ بالبكاء، ظاناً نفسه أنه في قلب الشتاء القارس، ومتصوراً أنه جائع وعار وسط وحوش مفترسة. فمثلما أن هذا الرجل لا يستحق الشفقة والرأفة، اذ ظلم نفسه بنفسه متوهماً أصدقاءه وحوشاً، محتقراً لهم.. فكذلك هذا المشؤوم.

ولكنما ذلك السعيد يبصر الحقيقة، والحقيقة بذاتها جميلة، ومع ادراك جمال الحقيقة فانه يحترم كمال صاحب الحقيقة ويوقّره فيستحق رحمته.

فاعلم اذن سراً من أسرار: { ما أصَابكَ مِن حَسَنةٍ فَمِن الله وما أصَابَك مِن سَيئةٍ فَمِن نَفسِكَ} (النساء:٧٩)

فلو وازنت سائر هذه الفروق وأمثالها لعلمت أن النفس الأمارة للأول قد أحضرت له جهنم معنوية، بينما الآخر قد نال ـ بحسن نيته وحسن ظنه وحسن خصلته وحسن فكره ـ الفيض والسعادة والاحسان العميم.

فيا نفسي. ويا أيها الرجل المنصت معي الى هذه الحكاية!

اذا كنت تريد أن لا تكون مثل ذلك الأخ المشؤوم وترغب في أن تكون كالأخ السعيد فاستمع الى القرآن الكريم وأرضخ لحكمه واعتصم به واعمل بأحكامه.

واذا كنت قد وعيت ما في هذه الأقصوصة التمثيلية من حقائق؛ فانك تستطيع أن تطبق عليها الحقيقة الدينية والدنيوية والانسانية والايمانية كلها. وسأقول لك الأسس، واستخرج بنفسك الدقائق!

فالاخوان الاثنان: أحدهما روح المؤمن وقلب الصالح، والآخر روح الكافر وقلب الفاسق.. أما اليمين من تلكما الطريقين فهو طريق القرآن وطريق الايمان وأما الشمال فطريق العصيان والكفران.. وأما ذلك البستان في الطريق فهو الحياة الاجتماعية المؤقتة للمجتمع البشري والحضارة الانسانية التي يوجد فيها الخير والشر والطيب والخبيث والطاهر والقذر معاً. فالعاقل هو مَن يعمل على قاعدة: ((خذ ما صفا.. دع ما كدر)) فيسير مع سلامة القلب واطمئنان الوجدان.

وأما تلك الصحراء فهي هذه الدنيا وهذه الارض.. وأما ذلك الأسد فهو الأجل والموت.. وأما تلك البئر فهي جسد الانسان وزمان الحياة. وأما ذلك العمق البالغ ستين ذراعاً فهو اشارة الى العمر الغالب، وهو معدل العمر ستون سنة.. وأما تلك الشجرة فهي مدة العمر ومادة الحياة.. وأما الحيوانان الاثنان، الأسود والابيض فهما الليل والنهار.. وأما ذلك الثعبان فهو فم القبر المفتوح الى طريق البرزخ ورواق الآخرة، الا أن ذلك الفم هو للمؤمن باب يفتح من السجن الى البستان.. وأما تلك الحشرات المضرة فهي المصائب الدنيوية، الا أنها للمؤمن في حكم الايقاظات الإلهية الحلوة والالتفاتات الرحمانية لئلا يغفل.. وأما مطعومات تلك الشجرة فهي النعم الدنيوية التي صنعها ربّ العزة الكريم لكي تكون فهرساً للنعم الأخروية ومذكِّرة بها، بمشابهتها لها، وقد خلقها البارئ الحكيم على هيئة نماذج لدعوة الزبائن الى فواكه الجنة، وان اعطاء تلك الشجرة على وحدتها الفواكه المختلفة المتباينة اشارة الى آية الصمدانية وختم الربوبية الآلهية وطغراء سلطنة الألوهية. ذلك لأن ((صنع كل شئ من شئ واحد)) أي صنع جميع النباتات وأثمارها من تراب واحد، وخلق جميع الحيوانات من ماء واحد، وابداع جميع الأجهزة الحيوانية من طعام بسيط. وكذا ((صنع الشئ الواحد من كل شئ)) كبناء لحم معين وجلد بسيط لذي حياة من مطعومات مختلفة الأجناس..

انما هي الآية الخاصة للذات الأحدية الصمدية والختم المخصوص للسلطان الازلي الابدي وطغراؤه التي لا يمكن تقليدها أبداً.

نعم ان خلق شئ من كل شئ وخلق كل شئ من شئ، انما هو خاصية تعود الى خالق كل شئ.. وعلامة مخصوصة للقادر على كل شئ. وأما ذلك الطلسم فهو سر حكمة الخلق الذي يُفتح بسر الايمان.

واما ذلك المفتاح فهو { الله لا إله الا هو الحي القيوم} و ((يا الله)) و { لاإله إلا الله..}

وأما انقلاب فم ذلك الثعبان الى باب البستان فهو رمز الى أن القبر هو سجن الوحشة والنسيان والاهمال والضيق، فهو كبطن الثعبان لأهل الضلالة والطغيان. ولكنه لأهل الايمان والقرآن باب مفتوح على مصراعيه من سجن الدنيا الى بستان البقاء، ومن ميدان الامتحان الى روضة الجنان، ومن زحمة الحياة الى رحمة الرحمن.. وأما انقلاب ذلك الأسد المفترس الى حصان مسخر والى خادم مؤنس فهو اشارة الى أن الموت لأهل الضلال فراق أبدي أليم من جميع الاحبة، وخروج من جنة دنيوية كاذبة الى وحشة سجن انفرادي للقبر، وضياع في تيه سحيق، بينما هو لأهل الهداية وأهل القرآن رحلة الى العالم الآخر، ووسيلة الى ملاقاة الأحبة والأصدقاء القدامى، وواسطة الى دخول الوطن الحقيقي ومنازل السعادة الأبدية، ودعوة كريمة من سجن الدنيا الى بساتين الجنان، وانتظار لأخذ الأجرة للخدمات تفضلاً من الرحمن الرحيم، وتسريح من تكاليف الحياة واجازة من وظيفتها، واعلان الانتهاء من واجبات العبودية وامتحانات التعليم والتعليمات.

نحصل من هذا كله:

أن كل من يجعل الحياة الفانية مبتغاه فسيكون في جهنم حقيقةً ومعنىً، حتى لو كان يتقلب ظاهراً في بحبوحة النعيم.

وان كل من كان متوجهاً الى الحياة الباقية ويسعى لها بجد واخلاص فهو فائز بسعادة الدارين وأهل لهما معاً حتى لو كانت دنياه سيئة وضيقة، الا أنه سيراها حلوة طيبة، وسيراها قاعة انتظار لجنته، فيتحملها ويشكر ربه فيها وهو يخوض غمار الصبر.

اللهم اجعلنا من أهل السعادة والسلامة والقرآن والايمان .. آمين.

اللّهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه بعدد جميع الحروفات المتشكلة في جميع الكلمات المتمثلة بإذن الرحمن في مرايا تموجات الهواء عند قراءة كل كلمة من القرآن من كل قارئ من أول النزول الى آخر الزمان.وارحمنا ووالدينا وارحم المؤمنين والمؤمنات بعددها برحمتك يا أرحم الراحمين آمين.. والحمد لله رب العالمين.

(الكلمات، الكلمة الثامنة)

أركان الإيمان حقيقة واحدة لا تتجزأ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ...﴾ (البقرة: ٢٨٥)

إنَّ السبب الذي أدى إلى إيضاح هذه الآية الجامعة السامية العظيمة ودعا إلى بيانها؛ هو حالة خاصة معينة نتجت عن سؤال معنوي مثير. وعن إنكشاف نعمة إلهية عظيمة، كالآتي:

فقد ورد إلى الروح هذا السؤال:

لِمَ يُعتبر كافراً من يُنكرُ جزءاً من حقيقة إيمانية، ولا يُعد مسلماً مَن لم يقبلها، مع أن نور الإيمان بالله واليوم الآخر كالشمس يبدد كل ظلام ؟

ثم، لِمَ يصبح مرتداً مَن ينكر حقيقة أو ركناً إيمانياً ويرديه إلى الكفر المطلق، ومَن لم يقبلها يخرج من دائرة الإسلام. بينما ينبغي أن ينقذه إيمانه بالأركان الأخرى – إنْ وجِدَ – من ذلك الكفر المطلق ؟

الجواب:

إنَّ الإيمان حقيقة واحدة نابعة من ستة أركان متحدة وموحدة لا تقبل التفريق، وهو كليّ لا يتحمل التجزئة، وهو كلٌ لا تقبل أركانه الإنقسام، ذلك لأن كل ركن من تلك الأركان الإيمانية – مع حججها التي تثبته – يثبت بقية الأركان، فيصبح كل ركن حجة قاطعة عظمى لكل من الأركان الأخرى. لذا

فالذي لا يتمكن من جرح جميع الأركان مع جميع أدلتها يعجز كلياً - من وجهة الحقيقة - نفي ركن واحد منها؛ وتفنيد حقيقة واحدة من حقائقها، إلاّ أن يغمض المنكر عينيه ويتشبث بعدم القبول أو الرفض، فيدخل عندئذٍ الكفر العنادي، ويسوقه ذلك بمرور الزمن إلى الكفر المطلق، فتنعدم إنسانيته ويولى إلى جحيم مادي فضلاً عمّا هو فيه من جحيم معنوي.

وكما قد بينا باقتضاب في مسائل «الثمرة» دلالة الأركان الإيمانية على الحشر كذلك سنبين هنا بإشارات مختصرة جداً ومجملة المغزى العميق العظيم لهذه الآية معتمدين على عنايته سبحانه. وذلك في ست نقاط:

النقطة الأولى:

إنَّ «الإيمان بالله» بحججه القاطعة يثبت «الإيمان بالآخرة» مع إثباته سائر الأركان الإيمانية الأخرى. كما وضح في «المسألة السابعة».

نعم؛ إن سلطنة الربوبية وقدرتها الأزلية وقوتها الباقية وغناها المطلق وحاكمية الألوهية الأبدية الدائمة التي تدير هذا الكون غير المحدود - مع جميع لوازمه وضرورياته - كإدارة قصر أو مدينة.. والتي تصرف جميع شؤونه ضمن نظام وميزان، وتغيره على وفق حكم كثيرة.. والتي تدير الذرات والكواكب،وتجهز الذباب والنجوم معاً كالجنود المطيعين للجيش المنسق.. والتي تسوق الجميع - ضمن إرادتها وأمرها - إلى إستعراض هائل عام للعبودية الخالصة، من خلال مناورة سامية وإبتلاء وإختبار وتدريب على الوظائف وتعليم لها، بفعالية ونشاط دائم وسير وجولان مستمر.. هل يمكن، أم هل

يعقل، لا بل هل هناك أي إحتمال قط في ألاّ يكون هناك مقر باقٍ، ومملكة دائمة، وظهور خالد وتجلٍّ سرمدي في دار أبدية لمثل هذه السلطنة الأبدية ولمثل هذه الحاكمية الباقية الدائمة؟ حاشا وكلا.. وألف مرة كلا.

فسلطنة ربوبية الله جل وعلا وعظمتها إذن، وأغلب أسماء الله الحسنى – كما جاء في «المسألة السابعة» – وجميع دلائل وحجج وجوب وجوده سبحانه وتعالى، تشهد جميعا وتدل على «الآخرة» وتقتضيها.

فما أعظم مرتكز هذا الركن الإيماني العظيم، وما أمتن نقطة إستناده ! ألا فأدرك ذلك، وصدِّق به كأنك تراه.

* * *

ثم إنَّ «الإيمان بالله» كما لا يمكن أن يكون دون «الإيمان بالآخرة» كذلك لا يمكن ولا يعقل، أن يكون «الإيمان بالله» دون «الإيمان بالرسل» – مثلما ذكر ملخصاً في «رسالة الحشر» – وذلك:

إنَّ الله تعالى الذي خلق هذا الكون إظهاراً لألوهيته ومعبوديته، على هيئة كتاب صمداني مجسم بحيث تعبّر كل صحيفة من صحائفه عن معاني كتاب، ويُظهر كل سطر من اسطره معنى صحيفة.. وخَلقه على شكل قرآن سبحاني مجسم بحيث إن كل آيةٍ من آياته التكوينية، وكل كلمةٍ من كلماته، بل حتى كل حرف منه وكل نقطة بمثابة معجزة تقدسه وتسبحه.. وخلقه على صورة مسجد رحماني مهيب وزيّنه بما لا يحد من الآيات والنقوش الحكيمة، بحيث إن في كل زاوية من زواياه طائفة منهمكة بنوع من العبادة الفطرية لخالقهم

الرحمن..

فهل يمكن إلاّ يرسل هذا الخالق المعبود الحق أساتذة ليدرسّوا معاني ما في ذلك الكتاب الكبير ويعلموا ما فيه؟.. أم هل يمكن إلاّ يبعث مفسرين ليفسروا آيات ذلك القرآن المجسم الصمداني؟.. أم هل يمكن إلاّ يعيّن أئمة لذلك المسجد الأكبر ليؤموا الذين يعبدونه بأنماط وأشكال مختلفة من العبادات؟.. أم هل يمكن إلاّ يزود أولئك الأساتذة والمفسرين والأئمة بالأوامر السلطانية؟ حاشا لله وكلا.. وألف مرة كلا.!

ثم إن الخالق الرحيم الكريم الذي خلق هذا الكون إظهاراً لجمال رحمته على ذوي الشعور وحسن رأفته بهم وكمال ربوبيته لهم وليحثهم على الشكر والحمد، قد خلقه على هيئة دار ضيافة فخمة، ومعرض رائع واسع، ومتنزه جميل بديع. وأعد فيه ما لا يحد من النعم اللذيذة المتنوعة المختلفة، ونظم فيه ما لا يعد من خوارق الصنعة وبدائعها الرائعة..

فهل يمكن ألاّ يتكلم هذا الخالق الرحيم الكريم - بواسطة رسله - مع ذوي الشعور من مخلوقاته في دار ضيافته الفاخرة هذه.. أم هل يعقل إلاّ يعلمهم وظائف شكرهم وكيفية إمتنانهم تجاه تلك النعم الجسيمة، ومهام عبوديتهم تجاه رحمته السابغة وتودده الظاهر؟! كلا.. ثم ألف ألف مرة كلا.!

ثم إنَّ الخالق الذي يحب خلقه وصنعته، ويريد جلب الإعجاب والتقدير إليه، بل يطلب إستحسانه وإكباره، بدلالة إيداعه الإحساس بآلاف الأنواع من الأذواق في الأفواه، فيعرّف نفسه سبحانه بكل مخلوق من مخلوقاته ويظهر

به نوعاً من جماله المعنوي ويجعله موضع حب مخلوقاته، فزيّن هذا الكون ببدائع صنائعه ومخلوقاته.

فهل يعقل ألاّ يتكلم هذا الخالق البديع مع أفاضل الإنسان الذي هو سيد المخلوقات؟.. وهل يمكن ألاّ يبعث من أولئك الأفاضل رسلاً، فتظل تلك الصنائع الجميلة دون تقدير، ويظل جمال تلك الأسماء الحسنى الخارقة دون إستحسان ولا إعجاب، ويظل تعريفه وتحبيبه دون مقابل ؟! حاشا لله وكلا.. ثم ألف مرة كلا.!

ثم إنَّ المتكلم العليم الذي يستجيب - في الوقت المناسب - لدعوات جميع ذوي الحياة، ملبياً حاجاتها الفطرية، ومغيثاً تضرعاتها ورغباتها المرفوعة إليه بلسان الحال، فيتكلم صراحة فعلاً وحالاً بإحساناته غير النهائية لهم وإنعاماته غير المحدودة عليهم، مُظهِراً القصد والإختيار والإرادة. فهل يمكن وهل يعقل أن يتكلم هذا المتكلم العليم مع أصغر كائن حي فعلاً وحالاً ويسعف داءه، ويغيثه بإحسانه، ويسد حاجاته، ثم لا يقابل الرؤساء المعنويين للإنسان الذي هو سيد أغلب المخلوقات الأرضية، وهو خليفة الله في أرضه، وهو النتيجة المستخلصة من الكائنات؟.. أم هل يعقل ألاّ يتكلم معهم قولاً وكلاماً مثلما يتكلم مع كل ذي حياة فعلاً وحالاً ؟.. أم هل يمكن ألاّ يرسل معهم أوامره، وصحفه وكتبه المقدسة؟ حاشَ لله.. ثم ألف مرة كلا.!

وهكذا يثبت «الإيمان بالله» مع حججه القاطعة الثابتة الإيمان «بكتبه» المقدسة «وبرسله» الكرام عليهم السلام.

* * *

ثم إنَّ الذي جعل الكون يدوي بحقيقة القرآن ويترنم بها، والذي عَرَفَ وعَرَّفَ بأكمل وجه ذلك الخالق البديع فأحبَّه وحَبَّبه، وأدى شكره له ودلّ الآخرين على القيام بشكره، بل جعل الأرض تردد «سبحان الله والحمد لله والله أكبر» حتى أسمعت السماوات العلى.. والذي قابل الربوبية الظاهرة للخالق بعبودية واسعة كلية، فقاد خُمس البشرية كمية ونصفها نوعية خلال ألف وثلاثمائة سنة قيادة أهاج بها البر والبحر وملأهما شوقا ووجداً.. والذي هتف بالقرآن الكريم في أذن الكون وعلى مدى جميع العصور إزاء المقاصد الإلهية، فألقى درساً عظيماً، ودعا بدعوة كريمة، مُظهراً وظيفة الإنسان وقيمته، ومبيناً مرتبته ومنزلته.. ذلك هو محمد الأمين (صلى الله عليه وسلم) الصادق المصدّق بألف معجزةٍ ومعجزة.

فهل يمكن ألا يكون هذا العبد العزيز المصطفى المختار أكرم رسول لذلك المعبود الحق؟.. وهل يمكن ألاّ يكون أعظم نبي له ؟ حاشا وكلا.. ألف ألف مرة كلا.!

فحقيقة «أشهد أن لا إله إلا الله» مع حججها إذن تثبت حقيقة «أشهد أن محمداً رسول الله».

* * *

ثم إنَّ الخالق الذي جعل مخلوقاته يتبادلون الكلام بمئات الآلاف من الألسنة واللغات وهو الذي يسمع كلام الجميع ويعرفه، فهل يمكن ألاّ يتكلم

هو ؟.. كلا ثم كلا ! ثم هل يعقل ألاّ يعلّم مقاصده الإلهية بكتاب عظيم كالقرآن الكريم الذي يجيب عن ثلاثة أسئلة تحار العقول أمامها: من أين تأتي هذه المخلوقات ؟ والى أين المصير ؟ ولماذا تتعاقب ثم لا تلبث أن تغيب ؟... كلا.

فالقرآن الكريم الذي نوّر ثلاثة عشر قرناً وأضاءَها..والذي يتناقله في كل ساعة مائة مليون لسان بكل إجلالٍ وتوقير.. والذي سُطر في صدور ملايين الحفاظ بكل سمو وقداسة.. والذي أدار بقوانينه القسم الأعظم من البشرية، وربّى نفوسهم وزكّى أرواحهم، وصفّى قلوبهم وأرشد عقولهم.. والذي هو معجزة خالدة كما أثبتنا إعجازه بأربعين وجها في «رسائل النور»، فوضح أن له إعجازاً لكل طبقة من الطبقات الأربعين للناس (كما جاء في «المكتوب التاسع عشر» ذات الكرامة الخارقة).. هذا القرآن العظيم إستحق بحق أن يطلق عليه «كلام الله» فأصبح محمد (صلى الله عليه وسلم) مع آلاف من معجزاته معجزة باهرة له.

فهل يمكن ألاّ يكون هذا القرآن الكريم كلام ذلك المتكلم الأزلي سبحانه ؟ وهل يمكن ألاّ يكون أوامر ذلك الخالق السرمدي جل وعلا ؟ حاشا لله وكلا ألف ألف مرة كلا !

فـ«الإيمان بالله» مع جميع حججه إذن يثبت أنَّ القرآن الكريم كلام الله عز وجل.

* * *

ثم إن السلطان ذا الجلال الذي يملأ سطح الأرض بذوي الحياة باستمرار ويفرغه، معمراً دنيانا بذوي الشعور لأجل معرفته سبحانه وعبادته وتسبيحه.

هل يمكن لهذا السلطان ذي الجلال أن يترك السماوات والنجوم خالية فارغة، ولا يعمِّر تلك القصور السماوية بأهالي وسكنة تناسبها؟..

وهل يمكن أن يترك (هذا السلطان العظيم) سلطنة ربوبيته في أوسع ممالكه بلا هيبة وعظمة، وبلا موظفين مأمورين، وبلا سفراء رسل، وبلا ناظرين مشرفين، وبلا مشاهدين معجبين، وبلا عباد مكرمين، وبلا رعايا مطيعين ؟ حاشا لله وكلا.. بعدد الملائكة.

ثم إنَّ الحاكم الحكيم والعليم الرحيم الذي كتب هذا الكون بشكل كتاب، حتى سجَّل تاريخ حياة كل شجرة في كل بذر من بذورها، ودوّن وظائف حياة كل عشب ومهام كل زهر في جميع نواها. وكتّب جميع حوادث الحياة لكل ذي شعور في قواه الحافظة الصغيرة كحبة الخردل. واحتفظ بكل عمل في ملكه كافة وبكل حادثة في دوائر سلطنته بالتقاط صورها المتعددة، والذي خلق الجنة والنار والصراط والميزان الأكبر لأجل تجليات وتحقق العدالة والحكمة والرحمة التي هي أهم أساس للربوبية..

فهل يمكن لهذا الحاكم الحكيم ولهذا العليم الرحيم ألاّ يسجل أعمال الإنسان التي تتعلق بالكائنات؟..

وهل يمكن ألاّ يدون أفعاله للثواب والعقاب ولا يكتب سيئاته وحسناته في ألواح القدر ؟! حاشا لله وكلا بعدد حروف ما كتب في اللوح المحفوظ للقدر.

أي إن حقيقة «الإيمان بالله» مع حججها تثبت حقيقة «الإيمان بالملائكة» كما تثبت حقيقة «الإيمان بالقدر» أيضاً إثباتاً قاطعاً. كالشمس التي تظهر النهار والنهار الذي يدل على الشمس.

وهكذا فالأركان الإيمانية يثبت بعضها البعض الآخر.

النقطة الثانية:

إنَّ جميع ما دعت إليه الكتب والصحف السماوية وفي مقدمتها القرآن الكريم وجميع الدعوات التي قام بها الأنبياء عليهم السلام وفي مقدمتهم محمد (صلى الله عليه وسلم) تدور على أُسس ثابتة، وأركان معينة. ولقد سعى جميعهم لإثبات الأسس وتلقينها للآخرين. لذا فجميع الحجج والدلائل التي تشهد على نبوتهم وصدقهم متوجهة معاً إلى تلك الأُسس والأركان مما يزيدها قوة وأحقية. وما تلك الأُسس إلاّ الإيمان بالله، وباليوم الآخر، وبملائكته، وكتبه، ورسله، وبالقدر خيره وشره من الله تعالى.

فلا يمكن إذن التفريق بين أركان الإيمان الستة إطلاقاً، حيث إنَّ كل ركن من الأركان يثبت الأركان عامة بل يستدعيها ويقتضيها، لذا فان الأركان الستة كلٌ لا يقبل التجزئة البتة، وكلّي لا يمكن أن ينقسم أبداً. فكما أن كل غصن من أغصان الشجرة المباركة (شجرة طوبى) الممتد جذرها في السماء، وكل ثمرٍ من ثمارها وكل ورقة من أوراقها يستند على الحياة الخالدة لتلك الشجرة، فلا يمكن لأحد أن ينكر حياة ورقة واحدة متصلة بتلك الشجرة ما لم يتمكن له إنكار حياة تلك الشجرة الظاهرة ظهوراً ساطعاً كالشمس. ولئن

أنكر فان تلك الشجرة تكذبه بعدد أغصانها وثمارها وأوراقها وتسكته، كذلك الإيمان بأركانه الستة هو بالصورة نفسها.

هذا ولقد كانت النية معقودة على بيان الأركان الإيمانية الستة في ست نقاط وفي كل نقطة خمس نكات ذات مغزى، وكانت الرغبة متوجهة إلى إجابة السؤال المثير الوارد في المقدمة ببيان أكثر وتوضيح أوسع، إلاّ أن عوائق وعوارض حالت دون ذلك. بيد أنني أحال أن «النقطة الأولى» لم تدع سبيلاً لإيضاح أكثر لأهل الدراية، حيث إنها مقياس كافٍ للموضوع.

وهكذا وضِّح تماماً انه؛ إذا ما أنكر المسلم أية حقيقة إيمانية كانت فانه يتردى إلى الكفر المطلق؛ إذ تسلسلت الأركان الإيمانية بعضها ببعض، وفصّل الإسلام ووضح ما أجمل في الأديان الأخرى. فالمسلم الذي لا يعرف محمداً (صلى الله عليه وسلم) ولا يصدِّق به فلا يعرف الله سبحانه (بصفاته) ولا يعرف الآخرة كذلك.. فإيمان المسلم قوي ورصين إلى درجة لا يتزعزع أبداً ولا يدع مجالاً للإنكار قطعاً لإستناده إلى حجج كثيرة جداً، حتى كأن العقل يرضخ رضوخاً لقبول هذا الإيمان.

النقطة الثالثة:

قلت ذات مرة «الحمد لله». ثم بحثت عن نعمة عظيمة جداً تقابل معناها الواسع جداً، فخطر على القلب الجملة الآتية:

[الحمد لله على الإيمان بالله، وعلى وحدانيته، وعلى وجوب وجوده وعلى صفاته، وأسمائه، حمداً بعدد تجليات أسمائه من الأزل إلى الأبد].

فتأملت فيها فوجدتها مطابقة تماماً للمعنى.. وهي كالآتي :

(**الشعاعات، الشعاع/١١، المسألة التاسعة**)

ملاحظة : انتهى النص هنا وكأن الستار أسدل أمام الأستاذ فلم يستمر بالكتابة، أو لعل الظروف المحيطة به حالت دون ذلك، فاكتفى بالفقرات السابقة. – المترجم.

من جنان التوحيد

*بشائر التوحيد

*لا شريك له

* نور التوحيد

* نافذة الى التوحيد

بشائر التوحيد

«لا إله إلاّ الله، وحده، لا شريك له، له الملك، وله الحمد يحيي، ويميت، وهو حي لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، وإليه المصير» [1]

[إن هذه الجملة التي تلخص التوحيد، عبارة عن إحدى عشرة كلمة، ولقراءتها عقب صلاتي الفجر والمغرب فضائل جمة، حتى وردت في إحدى الروايات الصحيحة أنها تحمل مرتبة «الاسم الأعظم».فلا غرو إذن أن تقطر كل كلمة من كلماتها أملاً شافياً وبشرى سارة، وان تحمل مرتبة جليلة من مراتب توحيد الربوبية، وتبين من زاوية الاسم الأعظم كبرياء الوحدانية وكمال التوحيد.

وحيث إن هذه الحقائق الواسعة الرفيعة قد وضحت بجلاء في سائر «الكلمات» فنحيل إليها. ونكتفي هنا بوضع فهرس لها - بناء على وعد

---

[1] «كان (صلى الله عليه وسلم) يقول في دُبر كل صلاة مكتوبة [حين يسلم]: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد (يحيي ويميت، وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيءٍ قدير). «ثلاث مرات» اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ./ صحيح: انظر تفصيل التخريج وعزو هذه الزيادات في الأحاديث الصحيحة (١٩٦) – الأحاديث التي هي خارج الأقواس موجودة في البخاري ومسلم. والزيادة الأولى المحصورة بين القوسين لأحمد وأبي داود، والثانية للطبراني والثالثة للنسائي وأبي خزيمة. أقول: وهذا الحديث الذي أورده الأستاذ النورسي من العجائب، إذ عندما تتبعت أحاديث الورد في الصباح والمساء وبعد الصلاة وجدتها تختلف بالسياق. وجمع الزيادات بهذه الطريقة صعبة للغاية تحتاج إلى مصادر واسعة وطول باع في الحديث، فيا ترى ما تفسير إيراد الأستاذ لهذا النص وبتلك الزيادات دونما رجوع أو توفر مصادر كالتي يمتلكها المحدّثون.. إن التفسير الوحيد هو: إكرام إلهي.

سابق - على صورة خلاصة مجملة جداً، تتكون من «مقامين« و «مقدمة»].

المقدمة

اعلم يقيناً أن أسمى غاية للخلق، واعظم نتيجة للفطرة الإنسانية.. هو «الإيمان بالله».. واعلم أن أعلى مرتبة للإنسانية، وافضل مقام للبشرية.. هو «معرفة الله»التي في ذلك الإيمان.. واعلم أن أزهى سعادة للإنس والجن، وأحلى نعمة.. هو «محبة الله» النابعة من تلك المعرفة.. واعلم أن أصفى سرور لروح الإنسان، وأنقى بهجة لقلبه.. هو «اللذة الروحية» المترشحة من تلك المحبة.

أجل! إنَّ جميع أنواع السعادة الحقة، والسرور الخالص، والنعمة التي ما بعدها نعمة، واللذة التي لا تفوقها لذة، إنما هي في «معرفة الله».. في «محبة الله». فلا سعادة، ولا مسرة، ولا نعمة حقاً بدونها.

فكل من عرف الله تعالى حق المعرفة، وملأ قلبه من نور محبته، سيكون أهلاً لسعادة لا تنتهي، ولنعمة لا تنضب، ولأنوار وأسرار لا تنفد، وسينالها إما فعلاً وواقعاً أو استعداداً وقابلية. بينما الذي لا يعرف خالقه حق المعرفة، ولا يكنّ له ما يليق من حُبٍ وودٍ، يصاب بشقاء مادي ومعنوي دائمين، ويظل يعاني من الآلام والأوهام ما لا يحصر.

نعم! إنَّ هذا الإنسان البائس الذي يتلوى ألماً من فقده مولاه وحاميه، ويضطرب من تفاهة حياته وعدم جدواها، وهو عاجز وضعيف بين جموع البشرية المنكودة.. ماذا يغنيه عما يعانيه ولو كان سلطان الدنيا كلها!!

فما اشد بؤس هذا الإنسان المضطرب في دوامة حياة فانية زائلة وبين جموع سائبة من البشر إنْ لم يجد مولاه الحق، ولم يعرف مالكه وربه حق المعرفة! ولكن لو وجد ربه وعرف مولاه ومالكه لالتجأ إلى كنف رحمته الواسعة، واستند إلى جلال قدرته المطلقة.. ولتحولت له الدنيا الموحشة روضة مؤنسة، وسوق تجارة مربحة.

المقام الأول

كل كلمة من كلمات هذا الكلام التوحيدي الرائع تزف بشرى سارة، وتبث أملاً دافئاً. وفي كل بشرى شفاء وبلسم.. وفي كل شفاء لذة معنوية وانشراح روحي.

الكلمة الأولى: «لا إله إلا الله»

هذه الكلمة تتقطر بشرى عظيمة وأملاً بهيجاً كالآتي:

إنَّ روح الإنسان المتلهفة إلى حاجات غير محدودة، والمستهدفة من قبل أعداء لا يُعدّون.. هذه الروح المبتلاة بين حاجات لا تنتهي وأعداء لا يحصرون، تجد في هذه الكلمة العظيمة منبعاً ثراً من الاستمداد، بما يفتح لها أبواب خزائن رحمة واسعة ترد منها ما يطمئن جميع الحاجات وتضمن جميع المطالب.. وتجد فيها كذلك مرتكزاً شديداً ومستنداً رضياً يدفع عنها جميع الشرور، ويصرف عنها جميع الأضرار. وذلك بما تُري الإنسان من قوة مولاه الحق، وترشده إلى مالكه القدير، وتدله على خالقه ومعبوده. وبهذه الرؤية السديدة والتعرف على الله الواحد الأحد، تنقذ - هذه الكلمة - قلب الإنسان

من ظلام الوحشة والأوهام، وتنجي روحه من آلام الحزن والكمد، بل تضمن له فرحاً أبدياً، وسروراً دائماً.

الكلمة الثانية: «وحده»

هذه الكلمة تشرق أملاً وتزف بشرى سارة كالآتي:

إنَّ روح البشر، وقلبه المرهقين بل الغارقين إلى حد الاختناق تحت ضغوط ارتباطات شديدة وأواصر متينة مع اغلب أنواع الكائنات، يجدان في هذه الكلمة ملجأ أميناً، ينقذهما من تلك المهالك والدوامات. أي أن كلمة «وحده» تقول معنىً:

إنَّ الله واحد أحد، فلا تتعب نفسك - أيها الإنسان - بمراجعة الأغيار. ولا تتذلل لهم، فترزح تحت منتهم وأذاهم.. ولا تحني رأسك أمامهم وتتملق لهم.. ولا ترهق نفسك فتلهث وراءهم.. ولا تخف منهم وترتعد إزاءهم.. لأنَّ سلطان الكون واحد، وعنده مفاتيح كل شيء، بيده مقود كل شيء، تنحل عقد كل شيء بأمره، وتنفرج كل شدة بإذنه.. فإن وجدته فقد ملكت كل شيء، وفزت بما تطلبه، ونجوت من أثقال المن والأذى ومن أسر الخوف والوهم.

الكلمة الثالثة: «لا شريك له»

أي: كما لا ندّ له ولا ضد في ألوهيته لأنَّ الله واحد، فإنَّ ربوبيته وإجراءاته وإيجاده الأشياء منزهة كذلك من الشرك. بخلاف سلاطين الأرض، إذ يحدث أنَّ يكون السلطان واحداً متفرداً في سلطنته إلاّ أنه ليس متفرداً في إجراءاته،

حيث إن موظفيه وخدمه يعدّون شركاء له في تسيير الأمور وتنفيذ الإجراءات، ويمكنهم أن يحولوا دون مثول الجميع أمامه، ويطلبوا منهم مراجعتهم أولاً! ولكن الحق سبحانه وتعالى وهو سلطان الأزل والأبد، واحد لا شريك له في سلطنته، فليس له حاجة قط في إجراءات ربوبيته أيضاً إلى شركاء ومعينين للتنفيذ، إذ لا يؤثر شيء في شيء إلاّ بأمره وحوله وقوته، فيمكن للجميع أن يراجعوه دون وسيط، لعدم وجود شريك أو معين. ولا يقال عندئذٍ للمراجع: لا يجوز لك الدخول في الحضرة الإلهية.

وهكذا تحمل هذه الكلمة في طياتها أملاً باسماً وبشارة بهيجة، فتقول:

إنَّ الإنسان الذي استنارت روحه بنور الإيمان، ليستطيع عرض حاجاته كلها بلا حاجز ولا مانع بين يدي ذلك الجميل ذي الجلال، ذلك القدير ذي الكمال، ويطلب ما يحقق رغباته، أينما كان هذا الإنسان وحيثما حلّ. فيفرش حاجاته ومطالبه كلها أمام ذلك الرحيم الذي يملك خزائن الرحمة الواسعة، مستنداً إلى قوته المطلقة، فيمتلئ عندئذ فرحاً كاملاً وسروراً غامراً.

الكلمة الرابعة: «له الملك»

أي أنَّ الملك كله له، دون استثناء.. وأنت.. أيضاً ملكه، كما انك عبده ومملوكه، وأنت عامل في ملكه..

فهذه الكلمة تفوح أملاً وتقطر بشرى شافية، وتقول:

أيها الإنسان! لا تحسب انك مالك نفسك.. كلا.. لأنك لا تقدر على أن تدير أمور نفسك.. وذلك حمل ثقيل، وعبء كبير، ولا يمكنك أن تحافظ

عليها، فتنجيها من البلايا والرزايا، وتوفر لها لوازم حياتك.. فلا تجرّع نفسك إذن الآلام سدىً، فتلقي بها في أحضان القلق والاضطراب دون جدوى، فالملك ليس لك، وإنما لغيرك، وذلك المالك قادر، وهو رحيم. فاستند إلى قدرته، ولا تتهم رحمته.. دع ما كدر، خذ ما صفا.. انبذ الصعاب والأوصاب وتنفس الصعداء، وحز على الهناء والسعادة.

وتقول أيضاً:

إنَّ هذا الوجود الذي تهواه معنىً، وتتعلق به، وتتألم لشقائه واضطرابه، وتحس بعجزك عن إصلاحه.. هذا الوجود كله مُلك لقادر رحيم. فسلّم الملك لمولاه، وتخلّ عنه فهو يتولاه، واسعد بمسراته وهنائه، دون أنْ تكدرك معاناته ومقاساته، فالمولى حكيم ورحيم، يتصرف في ملكه كيف يشاء وفق حكمته ورحمته.

وإذا ما أخذك الروع والدهشة، فأطل من النوافذ ولا تقتحمها، وقل كما قال الشاعر إبراهيم حقي [٢]:

لنرَ المولى ماذا يفعلُ

فما يفعل هو الأجمل.

الكلمة الخامسة: «له الحمد»

أي أنَّ الحمد والثناء والمدح والمنة خاص به وحده، ولائق به وحده، لأنَّ

---

[٢] إبراهيم حقي : عالم تركي جليل وزاهد متصوف عاش في القرن الثاني عشر الهجري، قضى أواخر عمره في «تيللو» جنوب شرقي تركيا، اشهر مؤلفاته «معرفتنامه». – المترجم.

النعم والآلاء كلها منه وحده، وتفيض من خزائنه الواسعة، والخزائن دائمة لا تنضب.

وهكذا تمنح هذه الكلمة بشرى لطيفة، وتقول:

أيها الإنسان! لا تقاسي الألم بزوال النعمة، لأنَّ خزائن الرحمة لا تنفد، ولا تصرخ من زوال اللذة، لأنَّ تلك النعمة ليست إلاّ ثمرة رحمة واسعة لا نهاية لها. فالثمار تتعاقب ما دامت الشجرة باقية.

واعلم أيها الإنسان انك تستطيع أن تجعل لذة النعمة أطيب واعظم منها بمائة ضعف، وذلك برؤيتك إلتفاتة الرحمة إليك، وتكرمها عليك، وذلك بالشكر والحمد. إذ كما أن ملكاً عظيماً وسلطاناً ذا شأن إذا أرسل إليك هديةً - ولتكن تفاحة مثلاً - فان هذه الهدية تنطوي على لذة تفوق لذة التفاح المادية بأضعاف الأضعاف، تلك هي لذة الالتفات الملكي والتوجّه السلطاني المكلل بالتخصيص والإحسان، كذلك كلمة «له الحمد» تفتح أمامك باباً واسعاً تتدفق منه لذة معنوية خالصة هي ألذ من تلك النعم نفسها بألف ضعف وضعف، وذلك بالحمد والشكر، أي: بالشعور بالإنعام عن طريق النعمة، أي: بمعرفة المنعم بالتفكر في الإنعام نفسه، أي: بالتفكر والتبصر في التفات رحمته سبحانه وتوجهه إليك وشفقته عليك، ودوام إنعامه عليك.

الكلمة السادسة: «يحيي»

أي: هو الذي يهب الحياة، وهو الذي يديمها بالرزق، وهو المتكفل بكل ضروراتها وحاجاتها، وهو الذي يهيئ لوازمها ومقوماتها. فالغايات السامية

للحياة تعود إليه، والنتائج المهمة لها تتوجه إليه، وتسع وتسعون بالمائة من ثمراتها ونتائجها تقصده وترجع إليه.

وهكذا فهذه الكلمة تنادي هذا الإنسان الفاني العاجز، وتزجي له البشارة، نافخة فيه روح الأمل، وتقول:

أيها الإنسان! لا ترهق نفسك بحمل أعباء الحياة الثقيلة على كاهلك الضعيف، ولا تذهب نفسك حسرات على فناء الحياة وانتهائها. ولا تظهر الندم والتذمر من مجيئك إلى الحياة كلما ترى زوال نعيمها وتفاهة ثمراتها.. واعلم إن حياتك التي تعمر وجودك إنما تعود إلى «الحي القيوم» فهو المتكفل بكل حاجاتها ولوازمها. فهذه الحياة تعود إليه وحده، بغاياتها الوفيرة، ونتائجها الكثيرة. وما أنت إلاّ عامل بسيط في سفينة الحياة. فقم بواجبك أحسن قيام، ثم اقبض أجرتك وتمتع بها، وتذكر دائماً: مدى عِظَمَ هذه الحياة التي تمخر عباب الوجود، ومدى جلالة فوائدها، وثمراتها، ومدى كرم صاحبها وسعة رحمة مولاها.. تأمل ذلك واسبح في فضاء السرور، واستبشر به خيراً، وادّ شكر ما عليك تجاه مولاك. واعلم بأنك إن استقمتَ في أعمالك تسجّل في صحيفتها أولاً نتائج سفينة الحياة هذه، فتوهب لك حياة باقية، وتحيا حياة أبدية.

الكلمة السابعة: «ويميت»

أي: أنه هو الذي يهب الموت، أي: هو الذي يسرّحك من وظيفة الحياة، ويبدل مكانك في الدنيا الفانية، وينقذك من عبء الخدمة، ويحررك من

مسؤولية الوظيفة. أي: يأخذك من هذه الحياة الفانية إلى الحياة الباقية.

وهكذا فهذه الكلمة تصرخ في أذن الإنس والجن الفانين وتقول:

بشراكم.. الموت ليس إعداماً، ولا عبثاً ولا سدى ولا انقراضاً، ولا انطفاءً، ولا فراقاً أبدياً .. كلا فالموت ليس عدماً، ولا مصادفة، ولا انعداماً ذاتياً بلا فاعل.. بل هو تسريح من لدن فعال حكيم رحيم، وتبديل مكان، وتغيير مقام، وسَوق نحو السعادة الخالدة.. حيث الوطن الأصلي.. أي هو باب وصال لعالم البرزخ.. عالم يجمع تسعةً وتسعين بالمائة من الأحباب.

الكلمة الثامنة: «وهو حي لا يموت»

أي: إن الكمال والحسن والإحسان الظاهر في الموجودات وسيلةً للمحبة.. يتجلى بما لا يمكن وصفه وبما لا يحده حدود وفوق الدرجات العلى من مالك الجمال والكمال والإحسان، فومضةٌ من تجليات جماله سبحانه تعادل جميع محبوبات الدنيا بأسرها.. هذا الإله المحبوب المعبود له حياة أبدية دائمة منزهة عن كل شوائب الزوال وظلال الفناء، مبرأة عن كل عوارض النقص والقصور.

إذن فهذه الكلمة تعلن للملأ جميعاً من الجن والإنس وأرباب المشاعر والفطنة وأهل العشق والمحبة وتقول:

إليكم البشرى.. إليكم نسمة أمل وخير، إن لكم محبوباً أزلياً باقياً، يداوي الجروح المتمخضة من لوعة الفراق الأبدي لمحبوبتكم الدنيوية ويمسها ببلسمه الشافي بمرهم رحمته. فما دام هو موجوداً، وما دام هو باقياً فكل شيء يهون..

فلا تقلقوا ولا تبتئسوا. فان الحسن والإحسان والكمال الذي جعلكم مشغوفين بأحبائكم ليس إلاّ لمحة من ظل ضعيف انشق عن ظلال الحجب والأستار الكثيرة جداً لتجلٍ واحدٍ من تجليات جمال ذلك المحبوب الباقي. فلا يعذبنكم زوال أولئك وفراقهم، لأنهم جميعاً ليسوا إلاّ نوعاً من مرايا عاكسة، وتبديل المرايا وتغييرها يجدد ويجمّل انعكاسات تجلي الجمال وشعشعته الباهرة، فما دام هو موجوداً، فكل شيء موجود إذن.

الكلمة التاسعة: «بيده الخير»

أي: إنَّ الخير كله بيده، وأعمالكم الخيرة كلها تسجل في سجله، وما تقدموه من صالحات الأعمال جميعها تدرج عنده.

فهذه الكلمة تنادي الجن والإنس، وتزف لهم البشرى، وتهب لهم الأمل والشوق فتقول:

أيها المساكين! لا تقولوا عندما تغادرون الدنيا إلى المقبرة: «أواه.. وا أسفاه.. وا حسرتاه، لقد ذهبت أموالنا هباءً، وضاع سعينا هدراً، فدخلنا ضيق القبر بعد فسحة الدنيا!..» لا.. لا تصرخوا يائسين، لأن كل ما لديكم محفوظ عنده سبحانه، وكل ما قدمتموه من عمل وجهد قد سُجِل ودُوِّنَ عنده، فلا شيء يضيع ولا جُهد ينسى، لأن ذا الجلال الذي بيده الخير كله سيثيبكم على أعمالكم، وسيدعوكم للمثول أمامه بعد أن يضعكم في التراب.. مثواكم الموقت.

فما أسعدكم انتم إذن، وقد أتممتم خدماتكم، وأنهيتم وظائفكم، برئت

ساحتكم.. وانتهت أيام المعاناة والأعباء الثقيلة. فأنتم ماضون الآن لقبض الأجور واستلام الأرباح.

أجل!. إنَّ القادر الجليل الذي حافظ على البذور والنوى - التي هي صُحف أعمال الربيع الماضي ودفاتر خدماته وحجرات وظائفه - ونشرها في هذا الربيع الزاهي وفي أبهى حلة، وفي غاية التألق، وفي اكثر بركة وغزارة، وفي أروع صورة... إنَّ هذا القدير الجليل لا ريب يحافظ أيضاً على نتائج حياتكم ومصائر أعمالكم، وسيجازيكم بها أحسن الجزاء وأجزل الثواب.

الكلمة العاشرة: «وهو على كل شيء قدير»

أي: أنه واحد أحد. قادر على كل شيء، لا يشق عليه شيء، ولا يؤوده شيء، ولا يصعب عليه أمر، فخلق ربيع كامل - مثلاً - سهل ويسير عليه كخلق زهرة واحدة. وخلق الجنة عنده كخلق ذلك الربيع وبالسهولة واليسر الكاملين. فالمخلوقات غير المحدودة التي يوجدها ويجددها كل يوم، كل سنة، كل عصر، لتشهد كلها بألسنة غير محدودة على قدرته غير المحدودة.

فهذه الكلمة أيضاً تمنح أملاً وبشرى وتقول:

أيها الإنسان! إنَّ أعمالك التي أديتها، وعبوديتك التي قمت بها، لا تذهب هباءً منثوراً، فهناك دار جزاء خالدة، ومقام سعادة هانئة قد هيئ لك. فأمامك جنة خالدة متلهفة لقدومك، مشتاقة إليك. فثق بوعد خالقك ذي الجلال الذي تخر له ساجداً عابداً، وآمن به واطمئن إليه، فإنه محال أن يخلف وعداً قطعه على نفسه، إذ لا تشوب قدرته شائبة أو نقص، ولا يداخل

أعماله عجز أو ضعف، فكما خلق لك حديقتك الصغيرة ويحييها، فهو قادر على أن يخلق لك الجنة الواسعة، بل قد خلقها فعلاً، ووعدك بها. ولأنه وعد فسيفي بوعده حتماً ويأخذك إلى تلك الجنة.

وما دمنا نرى أنه يحشر وينشر في كل عام على وجه البسيطة اكثر من ثلاثمائة ألف نوع من أنواع النباتات وأمم الحيوانات وبانتظام كامل وميزان دقيق، وفي سرعة فائقة وسهولة تامة.. فلابد أنَّ هذا القادر الجليل، قادر أيضاً على أنْ يضع وعده موضع التنفيذ.

وما دام القادر المطلق يوجد في كل سنة آلاف النماذج للحشر والجنة وبمختلف الأنماط والأشكال.. وما دام أنه يبشّر بالجنة الموعودة، ويعد بالسعادة الأبدية في جميع أوامره السماوية.. وما دامت جميع إجراءاته وشؤونه حقاً وحقيقة وصدقاً وصائبة.. وما دامت جميع آثاره تشهد على أن الكمالات قاطبة إنما هي دلالات على أنه منزه عن كل نقص أو قصور.. وما دام نقض العهد وخلاف الوعد والكذب والمماطلة هو من أقبح الصفات فضلاً عن أنه نقص وقصور.. فلابد أنَّ ذلك القدير ذا الجلال، وذلك الحكيم ذا الكمال، وذلك الرحيم ذا الجمال سينفذ وعده حتماً مقضياً، وسيفتح أبواب السعادة الأبدية، وسيدخلكم - أيها المؤمنون - الجنة.. موطن أبيكم آدم (عليه السلام).

الكلمة الحادية عشر: «واليه المصير»

أي إن الذين يُرسلون إلى دار الدنيا.. دار الامتحان والاختبار للتجارة

وإنجاز الوظائف، سيرجعون مرة أخرى إلى مرسلهم الخالق ذي الجلال، بعد أن أدّوا وظائفهم وأتموا تجارتهم وأنهوا خدماتهم وسيلاقون مولاهم الكريم الذي أرسلهم.. أي: انهم سيتشرفون بالمثول بين يدي ربهم الرحيم، في مقعد صِدق عند مليكهم المقتدر، ليس بينهم وبينه حجاب. وقد خلصوا من مخاض الأسباب وظلام الحجب والوسائط وسيجد كل واحد منهم ويعرف معرفة خالصة كاملة خالقه وربه وسيده ومليكه.

فهذه الكلمة تشع أملاً وتتألق بشرى تفوق كل تلك الآمال والبشارات اللذيذة، وتقول:

أيها الإنسان! هل تعلم إلى أين أنت سائر؟ والى أين أنت تُساق؟

فقد ذكر في ختام «الكلمة الثانية والثلاثين»:

إنَّ قضاء ألف سنة من حياة الدنيا وفي سعادة مرفهة، لا يساوي ساعة واحدة من حياة الجنة! وان قضاء حياة ألف سنة وسنة بسرور كامل في نعيم الجنة لا يساوي ساعة من فرحة رؤية جمال الجميل سبحانه.

فأنت إذن أيها الإنسان راجع إلى ميدان رحمته، صائر إلى أعتاب ديوان حضرته. فما الحسن والجمال الذي تراه في أحبتك المجازيين - فتشتاق إليهم وتفتن بهم، بل ما الحسن والجمال في جميع موجودات الدنيا إلاّ نوع ظلٍ من تجلي جماله سبحانه، وحُسن أسمائه جلّ وعلا. فالجنة بلطائفها ولذائذها وحورها وقصورها ما هي إلاّ تجلٍ من تجليات رحمته سبحانه، وجميع أنواع الشوق والمحبة والانجذاب والجواذب ما هي إلاّ لمعة من محبة ذلك المعبود

الباقي وذلك المحبوب القيوم! فانتم ذاهبون إذن إلى دائرة حظوته ومقام حضرته الجليلة.. وأنتم مدعوون إذن إلى دار ضيافته الأبدية.. إلى الجنة الخالدة.

فلا تحزنوا ولا تبكوا عند دخولكم القبر، بل استبشروا خيراً واستقبلوه بابتسامة وفرح.

وتتابع هذه الكلمة وظيفتها في بث نور الأمل والبشرى وتقول:

أيها الإنسان! لا تتوهم انك ماضٍ إلى الفناء، والعدم، والعبث، والظلمات، والنسيان، والتفسخ، والتحطم، والإنهشام، والغرق في الكثرة والإنعدام. بل أنت ذاهب إلى البقاء لا إلى الفناء، وأنت مسوق إلى الوجود الدائم لا إلى العدم، وأنت ماضٍ إلى عالم النور لا إلى الظلمات وأنت سائر نحو مولاك ومالكك الحق، وأنت عائد إلى مقر سلطان الكون.. سلطان الوجود.. سترتاح وتنشرح في ميدان التوحيد دون الغرق في الكثرة أبداً، فانت متوجه إلى اللقاء والوصال دون البعاد والفراق!. **(المكتوبات، المكتوب العشرون)**

لا شريك له

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾(الانبياء:٢٢)

(لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حيّ لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير واليه المصير)

كنت قد بَيَّنتُ في إحدى ليالي رمضان المبارك؛ أن في كلٍ من الجمل الإحدى عشرة من هذا الكلام التوحيدي بشارة سارة، ومرتبة من مراتب التوحيد. وقد بسطت الكلام بسطاً يقرب من فهم العوام لتوضيح ما في جملة «لا شريك له» وحدها من معانٍ جميلة؛ وذلك على صورة محاورة تمثيلية ومناظرة افتراضية، واتخاذ لسان الحال على هيئة لسان المقال. وأُدرج الآن تلك المحاورة إسعافاً لطلب إخوتي الأعزاء الذين يعينونني في شؤوني، ونزولاً عند رغبة رفقائي في المسجد ونظراً لطلبهم. وهي على النحو الآتي:

نفترض شخصاً يمثل الشركاء الذين يتوهمهم جميع أنواع أهل الشرك والكفر والضلال من أمثال عبدة الطبيعة والمعتقدين بتأثير الأسباب والمشركين. ونفرض أن ذلك الشخص المفترض يريد أن يكون رباً لشيء من موجودات العالم، ويدّعي التملك الحقيقي له!

وهكذا فقد قابل ذلك المدّعي أولاً ما هو أصغر شيء في الموجودات وهو الذرة، فقال لها بلسان الطبيعة وبلغة الفلسفة المادية أنه ربها ومالكها الحقيقي!

فأجابته تلك الذرة بلسان الحقيقة وبلغة الحكمة الربانية المودعة فيها:

- إنني أؤدي وظائف وأعمالاً لا يحصرها العدّ. فأدخل في كل مصنوع على اختلاف أنواعها، فان كنت أيها المدَّعي مالكاً علماً واسعاً يحيط بجميع تلك الوظائف وصاحب قدرة شاملة توجّه جميعها، ولك حكم نافذ وهيمنة كاملة على تسخيري وتوجيهي مع أمثالي [٣]من الذرات العاملة والمتجولة في الوجود.. وكذا لو كنت تتمكن من أن تكون مالكاً حقيقياً للموجودات التي أنا جزء منها - كالكريات الحمر - وتتصرف فيها بانتظام تام.. فلك أن تدّعي المالكية عليّ، وتسند أمري إلى غير خالقي سبحانه.. وإلاّ فاسكت! إذ لا تقدر على أن تتدخل في شؤوني فضلاً عن انك لا تستطيع أن تكون رباً لي؛ لأن ما في وظائفنا وأعمالنا وحركاتنا من النظام المتقن الكامل بحيث لن يقدر عليه من لم يكن ذا حكمة مطلقة وعلم محيط، فلو تدخّل غيره لأفسد.

فأنّى لك أيها المدَّعي أن تمد إصبعك في شؤوننا وأنت العاجز الجامد الأعمى الأسير بيد الطبيعة والمصادفة العمياويين!

---

[٣] نعم! كما أن كل شيء متحرك ابتداءً من الذرات إلى الكواكب السيارة يدل على الوحدانية، بما فيه من سكة الصمدانية وطابعها، فانه يضم جميع الأماكن التي يجول فيها ضمن مُلك مالكه الواحد.. أما المصنوعات الساكنة ابتداءً من النباتات إلى النجوم الثابتة فهي بمثابة أختام الوحدانية حيث يظهر كل منها أن موضعه بمثابة رسالة من صانعه ومكتوب منه. أي أن كل نبات، وكل ثمر، هو ختم وحدانية، وسكة وحدة بحيث يدل على ان مواضعه وأوطانه رسالة لصانعه البديع.

والخلاصة: إن كل شيء يسيطر بحركته على جميع الأشياء باسم الوحدانية، أي أن الذي لا يقبض زمام جميع النجوم بيده لن يكون رباً على الذرة – المؤلف .

فقال المدَّعي ما يقوله الماديون:

- إذن كوني مالكة لنفسك، فَلِمَ تقولين انك تعملين في سبيل غيرك؟ فأجابته الذرة:

- لو كان لي عقل جبار كالشمس وعلم محيط كضوئها وقدرة شاملة كحرارتها وحواس ومشاعر واسعة كالألوان السبعة في ضيائها ووجه متوجّه إلى كل مكان أسيح فيه وعين ناظرة وكلام نافذ إلى كل موجود أتوجه إليه.. ربما كنت أتغابى مثلك فأدّعي الحاكمية لنفسي!. تنحّ عني فليس لك موضع فينا.

وعندما يئس داعية الشرك من الذرة. قابل كرية حمراء من الدم، علّه يظفر منها بشيء. فقال لها بلسان الأسباب ولغة الطبيعة ومنطق الفلسفة:

- أنا لكِ رب ومالك!

فردّت عليه الكرية الحمراء بلسان الحقيقة وبلغة الحكمة الربانية:

- إنني لست وحيدة منفردة، فأنا وأمثالي جميعاً في جيش الدم الكثيف، نظامنا واحد ووظائفنا موحدة، نسير تحت إمرة آمر واحد. فان كنت تقدر على أن تملك زمام جميع ما في الدم من أمثالي، ولك حكمة دقيقة وقدرة عظيمة تحكمان سيطرتهما على جميع خلايا الجسم التي نجول فيها ونُستخدم لإنجاز مهمات فيها بكل حكمة وانتظام، فهاتها. فلربما يكون عندئذٍ لدعواك معنى. ولكنك أيها المدَّعي لا تملك سوى قوة عمياء وطبيعة صماء فلا تقدر على أن تتدخل في شؤوننا ولو بمقدار ذرة، فضلاً عن ادّعاء التملك علينا؛ لأن النظام الذي يهيمن علينا دقيق وصارم إلى حدّ لا يمكن أن يحكمنا إلاّ من يرى كل

شيء ويسمع كل شيء ويعلم كل شيء ويفعل ما يشاء. ولهذا فاسكت. إذ لا تدع وظائفنا الجليلة ودقتها ونظامها مجالاً لنا لنسمع هذرك.. وهكذا تطرده الكرية الحمراء.

ولما لم يجد ذلك المدَّعي بغيته فيها. ذهب فقابل خلية في الجسم فقال لها بمنطق الفلسفة ولسان الطبيعة:

- لم أتمكن من أن أُسمع دعواي إلى الذرة، ولا إلى الكرية الحمراء، فلعلي أجد منك أُذناً صاغية؛ لأنك لست إلاّ حجيرة صغيرة حاوية على أشياء متفرقة! ولهذا فإنني قادرة على صنعك . فكوني مصنوعتي ومملوكتي حقاً!

فقالت لها الخلية بلغة الحكمة والحقيقة:

- إنني صغيرة جداً حقاً، ولكن لي وظائف جليلة وجسيمة، ولي علاقات وروابط وثيقة ودقيقة جداً مع جميع خلايا الجسم. فلي وظائف متقنة مع جميع الأوعية الدموية من شرايين وأوردة وأعصاب محركة وحسية، ومع جميع القوى التي تنظم الجسم كالقوة الجاذبة والدافعة والمولّدة والمصوّرة وأمثالها؛ فان كان لك أيها المدَّعي علم واسع وقدرة شاملة تنشئ تلك العروق والأعصاب والقوى المودعة في الجسم وتنسقها وتستخدمها في مهماتها.. وكذا إن كانت لديك حكمة شاملة وقدرة نافذة تستطيع أن تتصرف في شؤون أخواتي من خلايا الجسم كلها، والتي تتشابه في الإتقان والروعة النوعية، فهيا أظهرها، ثم ادّع بأنك تتمكن من صنعي. وإلاّ فاغرب عنا. فان الكريات الحمر تزودني بالأرزاق، والكريات البيضاء تدافع عني تجاه الأمراض المهاجمة. فلي أعمال جسام، لا تشغلني عنها. فإنَّ عاجزاً

قاصراً أعمى مثلك ليس له حق التدخل في شؤوننا الدقيقة ابداً؛ لأن فينا من النظام المحكم الكامل [٤]ما لو يحكمنا غير الحكيم المطلق والقدير المطلق والعليم

---

[٤] إن الصانع الحكيم قد خلق جسم الإنسان على هيئة مدينة منسقة ومنتظمة جداً. فقسم من العروق يقوم بمهمة التلغراف والتلفون، وقسم منها بمثابة الأنابيب التي تأتي بالماء من الينابيع فيسير فيها الدم ذلك السائل الباعث على الحياة.. والدم نفسه قد خلق فيه قسمان من الكريات، يطلق على إحداهما الكريات الحمراء التي تقوم بتوزيع الأرزاق إلى حجيرات البدن، فتوصل إليها أرزاقها بقانون الهي مثلما يقوم موظفو الأرزاق وتجّارها بالتوزيع. والقسم الآخر هو الكريات البيضاء التي هي أقل عدداً من الأولى، وتقوم بالدفاع عن الجسم تجاه الأمراض متخذة وضعاً سريعاً عجيباً بنوعين من الدوران والحركة – كالمريد المولوي – حالما تدخل حومة المعركة.. أما مجموع الدم فله وظيفتان عامتان..

الأولى: تعمير الحجيرات المتهدمة في الجسم وترميمها.. والأخرى : تنظيف الجسم بجمع النفايات وأنقاض الخلايا. وهناك قسمان من العروق أيضاً، يطلق على أحدهما الشرايين التي تقوم بنقل الدم الصافي وتوزيعه، فهي بحكم مجاري الدم النقي الصافي.. والآخر: هو مجاري الدم الفاسد الذي يجمع النفايات الضارة والأنقاض، ويأتي بها إلى الرئة التي هي مركز التنفس.

إن الصانع الحكيم قد خلق عنصرين في الهواء أحدهما: الآزوت، والآخر: مولد الحموضة (الأوكسجين) فهذا الأخير ما أن يلامس الدم في أثناء التنفس حتى يجذب إليه الكربون الكثيف الذي لوّث الدم محولاً إياه إلى مادة سامة يطلق عليها «حامض الكربون البخاري» (ثنائي أوكسيد الكربون) وبهذا يقوم بتنقية الدم وتصفيته، فضلاً عن انه يضمن الحرارة الغريزية للجسم. ذلك لان الصانع الحكيم قد وهب لمولد الحموضة والكربون علاقة شديدة تلك التي يطلق عليها (الألفة الكيمياوية) بحيث ما أن يقتربا حتى يمتزجا معاً بقانون الهي، فتتولد الحرارة من هذا الامتزاج كما هو ثابت علماً، إذ الامتزاج نوع من احتراق. وحكمة هذا السر هي ما يأتي: إن لذرات كل عنصر من العناصر حركات مختلفة، فأثناء الامتزاج، تمتزج الحركتان معاً وتتحرك الذرتان حركة واحدة، وتظل حركة واحدة معلقة ، سائبة، فتنطلق – بقانون الصانع الحكيم – على صورة حرارة.. ومعلوم ان الحركة تولد الحرارة،كما هو ثابت ومقرر.

وبناء على هذا السر، فكما تتحقق حرارة الجسم الغريزية بهذا الامتزاج الكيمياوي، يتصفى الدم أيضاً عندما يسلب منه الكربون.

المطلق لفسد نظامنا وانفرط عقدنا.

وهكذا يئس المدَّعي من الخلية كذلك، ولكنه قابل جسم الإنسان، فقال له كما يقول الماديون، بلسان الطبيعة العمياء والفلسفة الضالة:

- انت ملكي. فانا الذي صنعتك، أو في الأقل لي حظٌ فيك!

فردّ عليه ذلك الجسم الإنساني بحقيقة النظام الحكيم الذي فيه:

- إن كان لك أيها المدعي علم واسع وقدرة شاملة لها التصرف المطلق في جميع أجسام البشر من أمثالي، لوضع العلامات الفارقة الظاهرة في وجوهنا، والتي هي طابع القدرة وختم الفطرة.. وكذا لو كانت لك ثروة طائلة وحاكمية مهيمنة تتحكم في مخازن أرزاقي الممتدة من الهواء والماء إلى النباتات والحيوانات.. وكذا لو كانت لك حكمة لا حدّ لها وقدرة لا منتهى لها بحيث تمكّن اللطائف المعنوية الراقية الواسعة من روح وقلب وعقل في بودقة صغيرة مثلي وتسيّرها بحكمة بالغة إلى العبودية، فأرنيها ثم ادّع الربوبية لي، وإلاّ فاسكت، فان صانعي الجليل قادر على كل شيء عليم بكل شيء بصير بكل شيء، بشهادة النظام الأكمل الذي يسيّرني، وبدلالة طابع الوحدانية الموجود في وجهي، فلا يقدر عاجز وضال مثلك أن يمدّ إصبعه إلى صنعته البديعة أبداً ولا أن يتدخل فيها ولو بمقدار ذرة.

فانصرف داعية الشرك حيث لم يستطع أن يجد موضعاً للتدخل في الجسم، فقابل نوع الإنسان، فحاور نفسه قائلاً: ربما أجد في هذه الجماعة المتشابكة

وهكذا ينقي الشهيق ماء حياة الجسم ويشعل نار الحياة. أما الزفير فانه يثمر الكلمات المنطوقة من الفم، التي هي معجزات القدرة الإلهية، فسبحان من تحير في صنعه العقول. – المؤلف.

المتفرقة موضعاً، فأتدخل في أحوال فطرتهم ووجودهم مثلما يتدخل الشيطان بضلاله في أفعالهم الاختيارية وشؤونهم الاجتماعية. وعندها أتمكن من أن أجري حكمي على جسم الإنسان الذي طردني هو وما فيه من خلايا.

ولهذا خاطب نوع الإنسان بلسان الطبيعة الصماء والفلسفة الضالة أيضاً:

- انتم أيها البشر تبدون في فوضى، فلا أرى نظاماً ينظمكم، فأنا لكم رب ومالك، أو في الأقل لي حصة فيكم.

فردّ عليه حالاً نوع الإنسان بلسان الحق والحقيقة وبلغة الحكمة والانتظام:

- إن كنت مالكاً – أيها المدَّعي – قدرةً تتمكن من أن تُلبس الكرة الأرضية حلّة قشيبة ملونة بألوان زاهية منسوجة بكمال الحكمة بخيوط أنواع النباتات والحيوانات التي تنوف على مائة ألف نوع الشبيهة بنوعنا الإنساني، وتكون بوسعها نسج ذلك البساط البديع المفروش على الأرض من خيوط مئات الألوف من أنواع الكائنات الحية، والتي هي في أبدع نقش وأجمله.. وفضلاً عن خلق هذا البساط الرائع، تجدده دوماً وبحكمة تامة! فان كانت لديك قدرة محيطة وحكمة شاملة كهذه، بحيث تتصرف في كرة الأرض التي نحن من ثمارها، وتدبّر شؤون العالم الذي نحن بذوره، فترسل بميزان الحكمة لوازم حياتنا إلينا من أقطار العالم كله.. وان كنت تنطوي – أيها المدَّعي– على اقتدار يخلق علامات القدرة الإلهية المميزة الموحدة في وجوهنا، وفي أمثالنا من السالفين والآتين.. فإن كنت مالكاً لما ذكرنا فلربما يكون لك حقّ ادّعاء الربوبية عليّ. وإلاّ فاخرس! ولا تقل إنني أتمكن من أن أتدخل في شؤون هؤلاء الذين يبدون في اختلاط وتشابك، إذ الانتظام

عندنا على أتمه، وتلك الأوضاع التي تظنها فوضى إنما هي استنساخ للقدرة الإلهية بكمال الانتظام على وفق القدر الإلهي. فلئن كان النظام دقيقاً في أدنى درجات الحياة كالنباتات والحيوانات ويرفض أي تدخلٍ كان، فكيف بنا ونحن في قمة مراتب الحياة؟ أليس الذي يبدو اختلاطاً وفوضى هو نوع من كتابة ربانية حكيمة؟ أفيمكن للذي مكّن خيوط النقوش البديعة لهذا البساط، كلٌ في موضعه المناسب، وفي أي جزء وطرف كان، ان يكون غير صانعه، غير خالقه الحقيقي، فهل يمكن أن يكون خالق النواة غير خالق ثمرتها؟ وهل يمكن أن يكون خالق الثمرة غير خالق شجرتها؟ ولكنك أعمى لا تبصر! ألا ترى معجزات القدرة في وجهي وخوارق الصنعة في فطرتي؟ فان استطعت أن تشاهدها، فستدرك أن خالقي لا يخفى عليه شيء ولا يصعب عليه أمر، ولا يعجزه شيء، يدير النجوم بيسر إدارة الذرات، ويخلق الربيع الشاسع بسهولة خلق زهرة واحدة، وهو الذي أَدرج فهرس الكون العظيم في ماهيتي بانتظام دقيق، أفيمكن لعاجز أعمى مثلك أن يحشر نفسه فيتدخل في إبداع هذا الخالق العظيم والصانع الجليل.. ولهذا فاسكت واصرف وجهك عني.. فيمضى مطروداً.

ثم يذهب ذلك المدَّعي إلى البساط الزاهي المفروش على وجه الأرض والحلة القشيبة المزينة التي أُلبست، فخاطبه باسم الأسباب وبلغة الطبيعة ولسان الفلسفة:

- إنني أتمكن من التصرف في شؤونك، فأنا إذن مالك لك ولي حظ فيك في الأقل.

وعند ذلك تكلم ذلك البساط المزركش، وتلك الحلة القشيبة [٥]وخاطبا ذلك المدَّعي بلغة الحقيقة وبلسان الحكمة المودَّعة فيهما:

- إن كانت لك قدرة نافذة واتقان بديع يجعلانك تنسج جميع هذه البسط المفروشة والحلل البهية التي تخلع على الأرض بعدد القرون والسنين ثم تنزعها عنها بنظام تام وتنشرها على حبل الزمان الماضي، ومن بعد ذلك تخيط ما تخلع عليها من حلل زاهرة بنقوشها وتفصّل تصاميمها في دائرة القدر.. وكذا إن كنت مالكاً ليد معنوية ذات قدرة وحكمة بحيث تمتد إلى كل شيءٍ إبتداءً من خلق الأرض إلى دمارها، بل من الأزل إلى الأبد، فتجدد وتبدّل أفراد لحمة بساطي هذا وسُداه.. وكذا ان كنت تستطيع أنْ تقبض على زمام الأرض التي تلبسنا وتكتسي بنا وتتستر.. نعم، إنْ كنت هكذا فادعّ الربوبية عليَّ.. وإلاّ فاخرج مذموماً مدحوراً من الأرض. فليس لك مقام هنا؛ إذ فينا من تجليات الوحدانية وأختام الأحدية بحيث مَن لم يكن جميع الكائنات في قبضة تصرفه ولم ير جميع الأشياء بجميع شؤونها دفعة واحدة، ولم يستطع أن يعمل أموراً لا تحد في آن واحد، ولم يكن حاضراً ورقيباً في كل مكان ومنزهاً عن المكان والزمان.. لا يتمكن أن يكون مالكاً لنا أبداً، بل لا يمكن أن يتدخل في أُمورنا مطلقاً. أي من لم يكن مالكاً لقدرة مطلقة وحكمة مطلقة وعلم مطلق، لا يمكن أن يتحكم فينا ويدَّعي

---

[٥] ولكن مثلما أن هذا النسيج ذو حيوية، فهو كذلك في اهتزاز منتظم إذ تتبدل نقوشه باستمرار وبحكمة كاملة وتناسق تام، وذلك إظهاراً لتجليات الأسماء الحسنى المختلفة لنسّاجه البديع في تجليات متنوعة مختلفة.– المؤلف.

المالكية علينا.

وهكذا يذهب المدَّعي مخاطباً نفسَه: لأذهبْ إلى الكرة الأرضية علَّني أستغفلها وأجد فيها موضعاً.. فتوَّجهَ إليها قائلاً لها [٦]بإسم الأسباب وبلسان الطبيعة مرة أخرى:

- إنَّ دورانك هكذا دون قصد يشف عن أنَّك سائبة دون مالك. ولهذا يمكن أن تكوني طوع أمري!

فردَّتْ عليه الأرض بصيحة كالصاعقة منكرة دعواه بلسان الحق والحقيقة المضمرة فيها:

- لا تهذرْ أيها الأحمق الأبله!. كيف أكون هملاً بلا مالك ومولى! فهل رأيت في ثوبي الذي ألبسُه خيطاً واحداً فقط نشازاً بغير حكمة ومن دون إتقان! حتى تزعم أنَّ حبلي على غاربي وأنني بلا مولى ولا مالك؟ أُنظر فحسب إلى حركاتي، ومنها حركتى السنوية [٧]التي أسير فيها مسافة خمسٍ وعشرين ألف سنةٍ في سنة واحدة فقط، منجزةً وظائفي الملْقاة عليَّ بكمال الميزان والحكمة.. فإنْ كانت لديك حكمةٌ مطلقة وقدرةٌ مطلقة فتُسيّر وتُجري معي رفقائي من السيارات العشر

---

[٦] الحاصل: إن الذرة تحيل ذلك المدّعي إلى الكرية الحمراء، وهذه تحيله إلى الخلية، وهذه إلى الجسم، والجسم يحيله إلى النوع الإنساني، والنوع إلى الحلّة المنسوجة من الأحياء التي يلبسها سطح الأرض، وتحيله حلّة سطح الأرض إلى الأرض نفسها، وهذه إلى الشمس، والشمس إلى النجوم.. وهكذا يقول كل منها: انصرف عنّا.. فلو استطعت أن تسيطر على من هو فوقي فحاول السيطرة عليّ، وإلا فأنت عاجز عن التحكم عليّ. فإذن من لم ينفذ أمره على النجوم كافة لا يمكنه أن ينفذه على ذرة واحدة – المؤلف –

[٧] إذا كان نصف قطر دائرة مائة وثمانين مليون كيلومتراً، فتلك الدائرة تكون بمسافة خمس وعشرين ألف سنة تقريباً.– المؤلف.

من أمثالي في أفلاكها العظمى، وتخلقُ الشمس المنيرة التي هي قائدنا وإمامنا والتي تربطنا وإياها جاذبة الرحمة فتديرنا وتجري بنا أنا والسيارات جميعاً حول الشمس بنظام تام وحكمة كاملة. نعم، أيها المدَّعي إن كانت لديك قدرة مطلقة وحكمة مطلقة على إدارة هذه الأمور الجسام وتدبيرها فادّع بدعواك. وإلاّ فاتركْ هذا الهذيان المفرط، وسُحقاً لك في جهنم وبئس المصير، فلا تشغلني عن مهماتي العظيمة. إذ إنَّ ما فينا من الانتظام الرائع والتناسق المهيب والتسخير الحكيم يدل بوضوح على ان جميع الموجودات من الذرات إلى النجوم والى الشموس طوعَ أمر صانعنا ومسخّرة له. إذ مثلما ينظم الشجرة بسهولة ويزّين ثمراتها فإنَّه بالسهولة نفسها ينظم الشمس بسياراتها. فهو الحكيم ذو الجلال والحاكم المطلق ذو الكمال.

ثم يتوجه ذلك المدَّعي إلى الشمس بعد أن لم يجد له موضعَ قدم في الأرض فَحَاورَ نفسَه قائلاً: إنَّ هذه الشمس شيء عظيم، لعلّي أجد فيها ثغرة أُمرر فيها دعواي وأُسخّر بدوري الأرض كذلك.

فقال للشمس بلسان الشرك وأضاليل الفلسفة الشيطانية، وكما يقوله المجوس:

- أنت يا شمس سلطانة العالم، وأنت حتماً مالكة لنفسك، وتتصرفين في العالم كيف تشائين.

وعلى الفور إجابته الشمس بلسان الحق والحقيقة:

- كلا وألف مرة كلا.. بل لست إلاّ مأمورة مطيعة مسخرة بوظيفة تنوير مستضاف سيدي. فلست مالكة لنفسي أبداً بل لست مالكة حتى لجناح ذبابة

مُلكاً حقيقياً، لأن في جسم الذباب من الجواهر المعنوية النفيسة، كالعين والأذن ومن بدائع الصنعة، ما لا أَملكه قط وما هو خارج عن طوقي. وهكذا يوبّخ المدَّعي.

فينبرى ذلك المدَّعي قائلا بلسان الفلسفة المتغطرسة المتفرعنة:

- ما دمتِ لستِ مالكة لنفسك، بل خادمة، فإذن أنت مملوكة لي وتحت تصرفي بإسم الأسباب.

فردت عليه الشمس رداً قوياً بإسم الحق والحقيقة وبلسان العبودية قائلة:

- إنما أنا أكون مملوكة لمن خلق نجوماً عالية من أمثالي، وأَسكنَها في سمائه بكمال حكمة، وأدارها بكمال هيبة، وزيّنها بكمال زينة.

ثم إن ذلك المدَّعي بدأ يحدّث نفسَه: إن النجوم مختلطةٌ مزدحمة، وهي مشتَّتةٌ متباعدة بعضها عن بعض، فلعلي أجد منها موضعاً بإسم موكلي فأَظفر منها بشيء.. فيدخل بين النجوم.

فقال لها كما يقول الصابئة عباد النجوم بإسم الأسباب وفي سبيل شركائه وبلسان الفلسفة الطاغية:

– أيتها النجوم! إنَّ حُكاماً كثيرين يتحكمون فيكم لشدة تشتتكم وتبعثركم.

فأجابته نجمة واحدة نيابة عن النجوم: ما أشد بلاهتك أيها المدَّعي الأحمق.ألا ترى علامة التوحيد وطغراء الأحادية على وجوهنا، ألا تفهمها؟. ألا تعلم أنظمتنا الراقية وقوانين عبوديتنا الصارمة؟ أتظننا بلا نظام؟

فنحن مخلوقون عبيداً لواحد أحد يمسك في قبضته أمورنا وأمور السماوات التي

هي بحرنا والكائنات التي هي شجرتنا وفضاء العالم الواسع الذي هو مسيرنا. فنحن شواهد نورانية كالمصابيح المنيرة أيام المهرجانات نبيّن كمال ربوبيته سبحانه، ونحن براهين ساطعة نعلن عن سلطنة ربوبيته، فكل طائفة منا خَدَمَةٌ عاملون نورانيون ندل على عظمة سلطنته في منازل علوية سفلية دنيوية برزخية أخروية.

نعم، إننا معجزة باهرة من معجزات قدرة الواحد الأحد. وثمرة يانعة لشجرة الخلقة. وبرهان منور للوحدانية. فنحن للملائكة منزل وطائرة ومسجد، وللعوالم العلوية مصباح وشمس، وعلى سلطنة الربوبية شاهد، ولفضاء العالم وقصره زينة وزهرة. وكأننا اسماك نورانية تسبح في بحر السماء، وعين جميلة لوجه السماء . [٨]فكما أن كلاً منا هكذا فان في مجموعنا: سكوت في سكون.. وحركة في حكمة.. وزينة في هيبة.. واستواء خلقة في انتظام.. وإتقان صنعة في موزونية. لهذا نشهد بألسنة غير محدودة على وحدانية صانعنا الجليل وبأحديته وصمدانيته وعلى أوصاف جماله وكماله وجلاله ونعلن هذه الشهادة على أشهاد الكائنات جميعها.. أ فبعد هذا تتهمنا ونحن العبيد الطاهرين المطيعين المسخرين بأننا في فوضى واختلاط وعبث بل بلا مولى ومالك؟ فانك لا شك تستحق التأديب على إتهامك هذا.. فترجم نجمةٌ واحدة ذلك المدَّعي فتطرحه من هناك إلى قعر

---

[٨] فنحن مشاهدو مصنوعات الخالق البديعة، والمشيرون إليها، بل نجعل الآخرين يشاهدونها بإعجاب.. أي كأن السماء تنظر إلى عجائب الصنعة الإلهية في الأرض بما لا يحدّ لها من عيون.. فالنجوم كملائكة السماء تنظر إلى الأرض التي هي محشر العجائب، ومعرض الغرائب ، بل تستقطب أنظار ذوي الشعور إليها. – المؤلف.

جهنم وبِئس المصير. وتقذف معه الطبيعة ومدّعيها إلى وادي الأوهام [٩]وتلقي المصادفة إلى بئر العدم، والشركاء إلى ظلمات الامتناع والمحال، والفلسفة المعادية للدين إلى أسفل سافلين.

فترتل تلك النجمة مع النجوم كلها قوله تعالى:

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾(الانبياء:٢٢)

معلنة أن لا مجال لشريك قط ولا حدّ له أن يتدخل حتى في أدنى شيء اعتباراً من جناح ذبابة إلى قناديل السماء.

(سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا اِلاّ ما عَلَّمْتَنا اِنَّكَ اَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكيم)

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد سراج وحدتك في كثرة مخلوقاتك ودلاّل وحدانيتك في مشهر كائناتك

وعلى آله وصحبه اجمعين.

(الكلمات، الكلمة/٣٢، الموقف الاول)

---

[٩] وبعد ما هوت الطبيعة ندمت عمّا فعلت فتابت، وعلمت أن وظيفتها الحقيقية القبول والانفعال، لا التأثير والفعل، وأنها تعمل وفقاً لقدرة الله ومشيئته فهي كدفتر للقدر الإلهي – دفتر قابل للتبديل والتغيير –وبما يشبه منهج القدرة الربانية. ونوعاً من شريعة فطرية للقدير ذي الجلال. ومجموعة قوانينه.. فقبلت الطبيعة وظيفتها وهي العبودية بكمال العجز والانقياد، وتسمت باسم الفطرة الإلهية والصنعة الربانية.– المؤلف.

نور التوحيد

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾(الإخلاص: ١)

بينما أنا نزيل سجن «أسكي شهر» في شهر شوال إذ تراءت لي نكتة دقيقة من النكات اللطيفة لهذه الآية الجليلة، ولاح لي قبس من أنوار إسم الله الأعظم: «الفرد» - أو هو أحد أنواره الستة - الذي يتضمن إسمي «الواحد والأحد» من الأسماء الإلهية الحسنى.

سنبين هنا باختصار شديد التوحيد الحقيقي الذي يُظهره ذلك التجلي الأعظم. وذلك في سبع إشارات موجزة.

الإشارة الأولى:

لقد وضع إسم الله الأعظم «الفرد» بتجليه الأعظم على الكون كله بصمات التوحيد المميز، وأختامَ الوحدانية الواضحة، على مجموع الكون، وعلى كل نوعٍ فيه، وعلى كل فردٍ فيه. ولما كانت «الكلمة الثانية والعشرون» و«المكتوب الثالث والثلاثون» قد تناولا بيان ذلك التجلي بشيء من التفصيل، نكتفي بالإشارة فقط إلى ثلاث بصماتٍ وأختام منها دالّة على التوحيد:

الختم الأول: إن التجلي الأعظم للفردية قد طبع على وجه «الكون» كله طابعاً مميزاً للتوحيد، وختماً واضحاً للوحدانية وضوحاً حوّل الكون كلَّه

بحكم «الكل» الذي لا يقبل التجزئة مطلقاً بحيث إن مَن لا يقْدِر على أن يتصرف في الكون كلّه لا يمكن أن يكون مالكاً مُلكاً حقيقياً لأي جزء منه. ولنوضح هذا الختم المميز:

إنَّ موجودات الكون، بأنواعها المختلفة، تتعاون فيما بينها تعاوناً وثيقاً، ويسعى كلٌّ جزء منها لتكملة مهمة الآخر وكأنها تمثل بمجموعها وأجزائها تروس معمل بديع ودواليبه – الذي يشاهد فيه هذا التعاون بوضوح – فهذا التساند، وهذا التعاون بين الأجزاء، وهذه الإستجابة في إسعاف كلٍ منها لطلب الآخر، وإمداد كلِ جزء للجزء الآخر، بل هذا التعانق والإندماج بين الأجزاء، يجعل من أجزاء الكون كله وحدةً متحدة تتعصّى على الإنقسام والإنفكاك. يشبه في هذا وحدةَ أجزاء جسم الإنسان الذي لا يمكن فكّ بعضها عن البعض الآخر.

نفهم من هذا أن الذي يمسك زمام عنصر واحد في الوجود، إنْ لم يكن زمام جميع العناصر بيده لا يستطيع أن يسيطر على ذلك العنصر الواحد أيضاً. إذا فـ «التعاون» و«التساند» و«التجاوب» و«التعانق» الواضحة على وجه الكون، إنما هي أختام كبرى وبصمات ساطعة للتوحيد.

الختم الثاني: إنَّ التجلي الباهر لإسم الله «الفرد» يجعلنا نُشاهد – على وجه الأرض ولاسيما في الربيع – ختماً لامعاً للأحدية، وآية جلية للوحدانية بحيث إن من لا يدير جميع الأحياء على وجه الأرض كلها بأفرادها وأحوالها وشؤونها كافة، والذي لا يرى ولا يخلق ولا يعلم جميعها معاً، لا يمكن أن

يكون له تدخل في أي شيء من حيث الإيجاد. فلنوضح هذا الختم:

تأمل في هذه البُسُط المفروشة على الأرض التي لحمتُها وسُداها مائتا ألف طائفة ونوع من أنواع الحيوانات وطوائف النباتات بأفرادها المتنوعة التي لا تعد ولا تحصى والتي تضفي الزينة وتنشر البهجة على نسيج الحياة على سطح الأرض – وبخاصة في الربيع – تأمّلها جيداً وأدِم النظر فيها، فإنها مع إختلاف أشكالها، وتباين وظائفها، وإختلاف أرزاقها وتنوع أجهزتها، وإمتزاجها بعضها مع البعض الآخر تشاهد: إنَّ رزق كل ذي حياة يأتيه رغداً من كل مكان ومن حيث لا يحتسب، بلا سهو ولا نسيان، بلا إنشغال ولا إرتباك، بلا خطأ ولا إلتباس.. فيعُطى بميزان دقيق حساس كل ما يحتاجه الفرد، في وقته المناسب، من دون تكلف ولا تكليف، مع تمييز لكلٍ منها، وهو يموج في هذا الإمتزاج الهائل وفي هذا الخضم من الموجودات المتداخلة، فضلاً عما يُخْبِىء باطنُ الأرض من آيات التوحيد الرائعة المتلمعة من إنتظام المعادن والعناصر الجامدة.

لذا فإن هذا «التدبير والإدارة» المشاهد في هذا الأمر الدائب على وجه الأرض وباطنها إنما هو آية ساطعة للأحدية، وختمٌ واضح للوحدانية، بحيث إن مَن لم يكن خالقاً لجميع تلك الموجودات من العدم، ومدبّراً لجميع شؤونها في آن واحد، لا يقدر على التدخل – من حيث الربوبية والإيجاد – في شيء منها، لأنه لو تدخل لأفسد تلك الإدارة المتوازنة الواسعة. إلاّ ما يؤديه الإنسان من وظيفة ظاهرية – بإذن إلهي أيضاً – لكشف تلك القوانين الربانية

وحُسن سيرها.

الختم الثالث: في وجه الإنسان

إنَّ شعار التوحيد وختمه واضح وضوحاً بيناً لكل مَن يتأمل وجه أي إنسان كان، وذلك: إنَّ لكل إنسان علامة فارقة في وجهه تُميِّزه عن غيره. فالذي لا يستطيع أن يضع تلك العلامات في كل وجه، ولا يكون مطّلعاً على جميع الوجوه السابقة واللاحقة منذ آدم (عليه السلام)إلى يوم القيامة، لا يمكنه أن يمد يده من حيث الخلق والإيجاد ليضع تلك الفوارق المميزة الهائلة في ذلك الوجه الصغير لإنسان واحد.

نعم، إنَّ الذي وضع في وجه الإنسان ذلك الطابع المميز وتلك الآية الجلية بتلك العلامات الفارقة، لا بد أن أفراد البشر كافة هم تحت نظره وشهوده، وضمن دائرة علمه حتى يضع ذلك الختم للتوحيد في ذلك الوجه. بحيث إنه مع التشابه الظاهر بين الأعضاء الأساس – كالعيون والأنوف وغيرها من الأعضاء – لا تتشابه تشابهاً تاماً، بسبب علامات فارقة في كلٍ منها. وكما أن تشابه الأعضاء – من عيون وأنوف – في وجوه البشر كافة دليل قاطع على وحدانية خالق البشر سبحانه وتعالى، كذلك فإن العلامات الفارقة الموضوعة على كل وجه – لصيانة حقوق كل فرد في المجتمع، ولمنع الإلتباس، وللتمييز، ولحِكَم أخرى كثيرة – هي الأخرى دليل واضح على الإرادة المطلقة والمشيئة الكاملة لذلك الخالق الواحد سبحانه وتعالى، وآية بديعة جلية أيضاً للأحدية، بحيث إن من لا يَقدر على خلق جميع البشر والحيوانات والنباتات

بل جميع الكون لا يمكنه أن يضع تلك السمة المميزة في أحد.

الإشارة الثانية:

إنَّ عوالم الكائنات المختلفة وأنواعها المتنوعة وعناصرها المتباينة قد إندمجت اندماجاً كلياً وتداخل بعضُها مع البعض الآخر، بحيث:

إنَّ مَن لم يكن مالكاً لجميع الكون لا يمكنه أن يتصرف بنوعٍ منه أو عنصر فيه تصرفاً حقيقياً، لأن تجلي نور التوحيد لإسم الله «الفرد» قد أضاء أرجاء الكون كله، فضمّ أجزاءها كافة في وحدة متحدة، وجعل كل جزء منه يعلن تلك الوحدانية.

فمثلاً: كما أن كون الشمس مصباحاً واحداً لهذه الكائنات يشير إلى أن الكائنات بأجمعها ملكٌ لواحد، فإن كون الهواء هواءً واحداً يسعى لخدمة الأحياء كلها.. وكون النار ناراً واحدة توقد بها الحاجات كلها.. وكون السحاب واحداً يسقي الأرض.. وكون الأمطار واحدة تأتي لإغاثة الأحياء كافة.. وإنتشار أغلب الأحياء من نباتات وحيوانات إنتشاراً طليقاً في أرجاء الأرض كافة مع وحدة نوعيتها، ووحدة مسكنها.. كل ذلك إشارات قاطعة وشهادات صادقة أن: تلك الموجودات ومساكنها ومواضعها إنما هي ملكٌ لمالك واحدٍ أحد.

ففي ضوء هذا وقياساً عليه نرى: أن تداخل الأنواع المختلفة للكائنات وإندماجها الشديد ببعضها قد جعل مجموعَها بمثابة كلٍ واحد لا يقبل التجزئة قطعاً من حيث الإيجاد. فالذي لا يستطيع أن يُنفّذ حكمَه على جميع الكون

لا يمكنه – من حيث الخلق والربوبية – أن يُخضِع لربوبيته أي شيء فيه، حتى لو كان ذلك الشيء ذرة أو أصغر منها.

الإشارة الثالثة:

لقد تحول الكون كله بالتجلي الأعظم لإسم الله «الفرد» إلى ما يشبه رسائل صمدانية ومكاتيب ربانية متداخلة بعضها في البعض الآخر، تزخر كلُ رسالة منها بآيات الوحدانية وأختام التوحيد، وتحمل كل رسالة بصمات الأحدية بعدد كلماتها، بل إن كل كلمة فيها تُفصح عن وحدانية كاتبها؛ إذ كما يدل الختمُ أو التوقيع في الرسالة على كاتبها، فإن كل زهرة وكل ثمرة، وكل عشب، وكل حيوان، وكل شجر، إنما يمثل ختم الأحدية وطغراء الصمدانية وكأنها أختام لمواضعها التي تتخذ هيئة الرسائل فتبين كاتبها. فزهرة صفراء – مثلاً – في حديقةٍ ما. هذه الزهرة هي بمثابة ختم يدل بوضوح على مصور الحديقة، فمَنْ كان مالكاً لذلك الختم – الزهرة – فهو مالكٌ لجميع أنواع تلك الزهرة ومثيلاتها المبثوثة على الأرض كافة، ويدل أيضاً على أن تلك الحديقة كتابته. أي أن كل شيء يُسند جميع الأشياء إلى خالقها ويشير إلى تجلٍ باهر عظيم لوحدانيته سبحانه.

الإشارة الرابعة:

لقد أوضحت «رسائل النور» في أجزائها الكثيرة ببراهين متعددة أن التجلي الأعظم لإسم الله الفرد مع أنه واضح وضوح الشمس، فهو مقبول في الأعماق إلى حد السهولة المطلقة، وهو مستساغ عقلاً ومنطقاً إلى حد

الوجوب والبداهة. وبعكسه الشرك المنافي لذلك التجلي، فهو معقد إلى أقصى حدود التعقيد، وغير منطقي إطلاقاً، وهو بعيد جداً عن المعقول إلى حد المحال والإمتناع. سنبين هنا ثلاث نقاط من تلك الأدلة فقط، ونحيل تفاصيلها إلى الرسائل الأخرى.

النقطة الأولى: لقد أثبتنا ببراهين قاطعة في ختام «الكلمة العاشرة» وفي «الكلمة التاسعة والعشرين» إثباتاً مجملاً، وفي ختام «المكتوب العشرين» مفصلاً أنه: من السهولة واليسر على قدرة «الأحد الفرد» سبحانه، خلقُ أعظم جِرم، وخلقُ أصغرِ شيء على حدّ سواء، فهو سبحانه يخلق الربيع الشاسع بيُسرِ خلقِ زهرةٍ واحدة، ويُحدِث في كل ربيع بسهولة بالغة آلافاً من نماذج الحشر والنشور -كما هو مشاهَد- ويُراعي شجرة ضخمة باسقة بيُسر مراعاته فاكهة صغيرة. فلو أسنِد أيٌ من ذلك إلى الأسباب المتعددة، لأصبح خلقُ كلِّ زهرةٍ فيه من المشكلات ما للربيع الشاسع، وخلقُ كل ثمرةٍ فيه من الصعوبات ما للشجرة الباسقة.

نعم، إن كان تجهيز الجيش بأكمله بالمؤن والعتاد بأمر صادر من قائد واحد، من مصدر واحد، سهلاً وبسيطاً كتجهيز جندي واحد، يكون صعباً بل ممتنعاً إن كان كل جندي يتجهز من معامل متفرقة ويتلقى الأوامر من إدارات متعددة كثيرة، إذ عندئذٍ يحتاج كل جندي إلى معامل بقدر أفراد الجيش بأكمله!!

فكما أن الأمر يسهل بالوحدة ويصعب بالكثرة هكذا، كذلك إذا أسنِد

الخلقُ والإيجاد إلى «الفرد الأحد» جل وعلا، فإن خلقَ أفراد غير محدودة لنوعٍ واحد يكون سهلاً كخلق فرد واحد، بينما لو أُسنِد إلى الأسباب، فإن خلقَ كلَّ فردٍ يكون مُعضلاً وصعباً كخلق النوع الواسع الكثير.

أجل! إن الوحدانية والتفرد تجعل كل شيء منتسباً ومستنداً إلى الذات الإلهية الواحدة، ويصبح هذا الإنتساب والإستناد قوة لا حدّ لها لذلك الشيء، حتى يمكنه أن يُنجز من الأعمال الجسيمة، ويولّد من النتائج العظيمة ما يفوق قوته الذاتية ألوفَ المرات معتمداً على سر ذلك الإستناد والإنتساب. أما الذي لا يستند ولا ينتسب إلى صاحب تلك القوة العظمى ومالكها «الفرد الأحد» فسينجز من الأعمال ما تتحمله قوتُه الذاتية المحدودة جداً، وتنحسر نتائجُها تبعاً لذلك.

فمثلاً: إن الذي إنتسب إلى قائد عظيم واستند إليه بصفة الجندية، يصبح له هذا الإنتساب والإستناد بمثابة قوة ممدّة لا تنفد، فلا يضطر إلى حمل ذخيرته وعتاده معه، لذا قد يَقْدِم على أسر قائد جيش العدو المغلوب مع آلاف ممن معه، بينما السائب الذي لم ينخرط في الجندية، مضطر إلى حمل ذخيرته وعتاده معه، ومهما بلغ من الشجاعة فلا يستطيع أن يقاوم بتلك القوة إلاّ بضعة أفراد من العدو، وقد لا يثبت أمامهم إلاّ لفترة قليلة.

ومن هنا نرى أن قوة الإستناد والإنتساب – التي في الفردية والوحدانية – تجعل النملة الصغيرة تقدم على إهلاك فرعون عنيد، وتجعل البعوضة الرقيقة تجهز على نمرود طاغية، وتجعل الميكروب البسيط يدمر باغياً أثيماً.. كما تمدّ

البذرة الصغيرة لتحمِل على ظهرها شجرة صنوبر باسقة شاهقة.. كل ذلك بإسم ذلك الإنتساب وبسر ذلك الإستناد.

نعم، إن قائداً عظيماً شهماً يستطيع أن يستنفر جميع جنوده ويحشّدهم لإنقاذ جندي واحد وإمداده، والجندي بدوره يستشعر كأن جيشاً جراراً يسنده ويمدّه بقوة معنوية عالية حتى تمكّنه من أن ينهض بأعمال جسام بإسم القائد. فالله سبحانه وتعالى (وله المثل الأعلى) لأنه فرد واحد أحد، فلا حاجة في أية جهة إلى أحد غيره، وإذا افترضت الحاجة في جهة ما، فانه يستنفر الموجودات كلها لإمداد ذلك الشيء وإسناده، فيحشر سبحانه الكون كله لأجله.

وهكذا يستند كلُّ شيء إلى قوة عظيمة هائلة تملك مقاليد الكون بأسره.. وهكذا يستمد كل شيء في الوجود قوته من تلك القوة الإلهية العظيمة المطلقة.. من ذلك «الفرد الأحد» جلّ وعلا.

فلولا «الفردية».. لفقَد كل شيء هذه القوة الجبارة، ولسقط إلى العدم وتلاشت نتائجه. فما تراه من ظهور نتائج عظيمة هائلة من أشياء بسيطة تافهة، ترشدنا بالبداهة إلى الفردية والأحدية. ولولاها لبقيت نتائج كل شيء وثماره منحصرة في قوته ومادته الضئيلة، وتصغر عندئذٍ النتائج بل تزول. ألا ترى الأشياء الثمينة النفيسة كالفواكه والخضر وغيرها مبذولة ومتوافرة أمامنا. ما ذلك إلاّ بسر الوحدانية والإنتساب وحشر جميع القوى، فلولا «الفردية» لما كنا نحصل بآلاف الدراهم ما نحصله اليوم من بطيخ أو رمان بدراهم

معدودة. فكل ما نشاهده من بساطة الأمور والأشياء وسهولتها ورخصها وتوفرها إنما هي من نتائج الوحدانية وتشهد بالفردية.

النقطة الثانية: إن الموجودات تُخلق وتظهر إلى الوجود بوجهين:

الأول: الخلق من العدم، وهو ما يعبَّر عنه بـ «الإبداع والإختراع».

الثاني: إنشاؤها من عناصر موجودة، وتركيبها ومنح الوجود لها من أشياء حاضرة، أي بـ«التركيب والإنشاء».

فإذا نظرنا إلى الموجودات من زاوية سر الأحدية وتجلي الفردية، نرى أن خلقها وإيجادَها يكون سهلاً وهيّناً إلى حد الوجوب والبداهة، بينما إن لم يُفوَّض أمر الخلق والإيجاد إلى الفردية والوحدانية،فستتعقد الأمور وتتشابك، وتظهر أمور غير معقولة وغير منطقية إلى حد المحال والإمتناع. وحيث إننا نرى الموجودات قاطبة تظهر إلى الوجود من دون صعوبة وتكلف، ومن غير عناء، وعلى أتم صورة وكيفية، يثبت لنا بداهة إذا تجلي الفردية، ويتبين لنا: أن كل شيء في الوجود إنما هو من إبداع «الأحد الفرد» ذي الجلال والإكرام.

نعم، إن اسند أمر الخلق إلى «الفرد الواحد الأحد» يخلق كل شيء من العدم في لمح البصر وبكل سهولة ويسر، وبقدرته المطلقة العظيمة بآثارها المشهودة. ويقدّر لكل شيء بعلمه المحيط المطلق ما يشبه قوالب معنوية وتصاميم غيبية.. فكل شيء عنده بمقدار.

فكما أن الجنود المطيعين في الجيش المنظم يساقون لأخذ مواضعهم بأمر من القائد وحسب خطته الموضوعة في علمه، كذلك الذرات المطيعة للأوامر

الربانية فإنها تساق بالقدرة الربانية – بكل سهولة ويسر – لتأخذ مواقعها وتحافظ عليها حسب تصميمٍ موجود، وصورة موجودة، في مرآة العلم الإلهي الأزلي. حتى لو لزم جمع الذرات من الأنحاء المختلفة، فإن جميع الذرات المرتبطة بقانون العلم الإلهي المحيط، والموثوقة الصلة بدساتير القدرة الإلهية، تصبح بمثابة الجنود المنقادين في الجيش المنظم، فتأتي مسرعة بذلك القانون وبسَوق القدرة لأخذ مواقعها في ذلك القالب العلمي والمقدار القدري المحيطين بوجود ذلك الشيء.

بل كما تظهر الصورةُ المثالية المتمثلة في المرآة على الورقة الحساسة في آله التصوير وتلبس وجوداً محسوساً خارجياً، وكما تظهر وتشاهَد الكتابة المخفية السرية بإمرار مادة كيماوية عليها، كذلك الأمر في صورة جميع الموجودات، وماهية جميع الأشياء الموجودة في مرآة العلم الإلهي الفرد الأحد، فإن القدرة الإلهية المطلقة تُلبسها – بكل سهولة ويسر – وجوداً خارجياً محسوساً، فتظهر للعيان في عالم الشهادة، بعد أن كانت في عالم المعنى والغيب. ولكن إن لم يُسند أمر الخلق إلى الفرد الأحد فعندئذٍ يلزم لخلق ذبابة واحدة مسح وتفتيش سطح الأرض وغربلة عناصرها جميعاً وذراتها المعينة لوجود معين ثم وزنها بميزان دقيق حساس، لوضع كل ذرة في موضعها المخصص لها، حسب قوالب مادية بعدد أجهزتها وأعضائها المتقنة، وذلك لكي يأخذ كل شيء مكانه اللائق به، فضلاً عن جلب المشاعر والأحاسيس الروحية الدقيقة واللطائف المعنوية من العوالم المعنوية والروحية بعد وزنها أيضاً بميزان دقيق حسب حاجة الذبابة!!

ألا يكون – بهذا الاعتبار – خلق ذبابة واحدة صعباً ممتنعاً كإيجاد جميع الكائنات؟! أليس فيه الصعوبات تلو الصعوبات والمحالات ضمن المحالات؟! لذا اتفق جميع أهل الإيمان والعلم: انه لا يخلق من العدم إلاّ الخالق الفرد سبحانه وتعالى. ولهذا لو فوّض الأمر إلى الأسباب والطبيعة يستلزم لوجود شيء واحد الجمع من اكثر الأشياء.

النقطة الثالثة: لقد أوردنا أمثلة كثيرة في رسائل شتى تشير إلى: أن إسناد الخلق إلى «الفرد الواحد الأحد» يجعل خلق جميع الأشياء سهلاً كالشيء الواحد، وبعكسه إذا أُسنِد إلى الطبيعة والأسباب فخلق الشيء الواحد يكون صعباً ممتنعاً كخلق جميع الأشياء..

نقتصر منها هنا على ثلاثة أمثلة فقط:

المثال الأول: **إذا** أُحيلت إدارة ألف جندي إلى ضابط واحد، وأُحيلت إدارةُ جندي واحد إلى عشرة ضباط، فإن إدارة هذا الجندي تكون ذات مشكلات وصعوبات بمقدار عشرة أضعاف إدارة تلك الفرقة من الجنود وذلك: لأن الأمراء العديدين سيعادي بعضُهم بعضاً، وستتعارض أوامرُهم حتماً، فلا يجد ذلك الجندي راحة بين منازعة أمرائه. بعكسه تماماً ذلك الضابط الذي يدير بأوامره فرقة كاملة من الجنود وكأنه يدير جندياً واحداً، وينفّذ خطته وما يريده من الفرقة بتدبيره كل شيء بسهولة ويسر، علماً انه يتعذر الوصول إلى هذه النتيجة إذا ترك الأمر إلى جنود سائبين.

المثال الثاني: **إذا** سُلّم أمر بناء قبة جامع أيا صوفيا إلى بنّاء ماهر، فانه

يقوم به بكل سهولة ويسر، بينما إذا سُلم بناؤها إلى أحجارها، للزم أن يكون كل حجرٍ حاكماً مطلقاً على سائر الأحجار، ومحكوماً لها في الوقت نفسه كي تأخذ القبة المعلقة الشامخة شكلها! فبينما كان البنّاء الماهر يصرف جهداً قليلاً - لسهولة الأمر لديه - تصرف الآن مئات من البنّائين - الأحجار - أضعاف أضعاف ذلك الجهد من دون الحصول على نتيجة!!.

المثال الثالث: إنَّ الكرة الأرضية مأمورة وموظفة من لدن «الفرد الواحد» سبحانه، وهي كالجندي المطيع لله الواحد الأحد، فحينما تستلم الأمر الواحد، الصادر من آمرها الأحد، تهبّ منتشية بأمر مولاها وتنغمر في جذبات وظيفتها في شوق عارم، وتدور كالمريد المولوي العاشق - عند قيامه للسماع - فتكون وسيلة لحصول المواسم الأربعة، وإختلاف الليل والنهار وظهور الحركات الرفيعة العظيمة، والكشف عن مناظر خلابة لقبة السماء المهيبة وتبديلها باستمرار كتبدل المشاهد السينمائية.. ويكون سبباً لحصول أمثال هذه النتائج الجليلة، حتى لكأنَّ الأرض هي القائد لتلك المناورة العسكرية المهيبة بين نجوم الكون.

ولكن إنْ لم يُسند الأمر إلى «الفرد الأحد» الذي أحاط بحاكمية ألوهيته وسلطان ربوبيته الكون كله، والذي ينفذ حكمه وأمره في كل صغيرة وكبيرة في الوجود، فعندئذٍ يلزم وجود ملايين النجوم التي تكبر الأرض بألوف المرات، ولابد من أن تسير هذه النجوم في مدار اكبر وأوسع بملايين المرات من مدار الأرض كي تظهر تلك المناورة السماوية والأرضية وتلك النتائج نفسها التي

تتولد من حركتي الأرض السنوية واليومية بكل سهولة ويسر.

وهكذا فإنَّ حصول هذه النتائج الجليلة الناشئة من حركتي الأرض حول محورها ومدارها - حركة تشبه حركات المولوي العاشق - يظهر لنا مدى السهولة والفطرية والبساطة في «الأحدية والفردية»، ويبين لنا في الوقت نفسه كم هي مملوءة طريق الشرك والكفر بالمحالات التي لا حدَّ لها وبالأمور الباطلة غير المعقولة.

وبعد.. فلاحظ الآن بمنظار هذا المثال الآتي جهل المتشدقين بالطبيعة وعبّاد الأسباب، لتعلم في أي دَرَك من وحل الحماقة يتمرغون وفي أي بيداء وهمٍ يتيهون، وقِسْ عليه مدى بُعدهم كل البعد عن ميدان المنطق والعقل السليم:

معمل عظيم.. كتاب رائع.. قصر مشيد.. ساعة دقيقة.. لا شك أن الذي صنع كلاً من هذه قد نظمه ونسقه بدقة وعناية، ويجيد إدارته ويرعاه، ولا شك إنه أراد في صنع كل منها إظهار محاسن صنعته وإبراز بدائع عمله. فإن أحال أحدُهم إدارة المعمل العظيم إلى دواليب المعمل نفسه، وفوّض بناء القصر المنيف إلى أحجار القصر نفسه، واسند معاني الكتاب الجميلة إلى الحروف نفسها، فكأنه قد جعل كل جزء من أجزاء المعمل ذا قدرة عظيمة لتنظيم نفسه وغيره! وجعل كل حرف من حروف الكتاب بل الورق والقلم شيئاً خارقاً يبدع الكتاب نفسه! أي انه يحيل روعة الإنتظام في المعمل إلى دواليب المعمل، ويسند جمال المعنى في الكتاب إلى توافق الحروف من تلقاء

نفسها!!

أيّ هذرٍ هذا! وأيّ وَهْم! أليس الذي يتفوه به بعيداً كل البعد عن سلامة العقل؟ فالذين يحيلون أمر الخلق والإيجاد في هذا الكون البديع إلى الأسباب والى الطبيعة يهوون في جهل مركب سحيق كهذا. وذلك لأن مظاهر الإبداع واضحة على الأسباب والطبيعة نفسها، فهي مخلوقة كسائر المخلوقات. فالذي خلقها – على هذه الصورة البديعة – هو الذي يخلق آثارها ونتائجها أيضاً، ويظهرها معاً.. فالذي خلق البذرة هو الذي أنشأ عليها شجرتها، وهو الذي يخرج أثمارها وأزهارها من أكمامها.. بينما إن لم يُسند خلق الأسباب والطبيعة مع آثارهما إلى «الواحد الأحد»، يلزم لوجود أنواع الأسباب وأنماط الطبيعة المختلفة، أنواع من الأسباب والطبيعة المنتظمة المنسقة المختلفة . وهكذا تستمر سلسلة موهومة ممتنعة لا معنى لها ولا نهاية! وهذا من أعجب عجائب الجهل وأتعسه!!

الإشارة الخامسة:

لقد أثبتنا في مواضع متعددة من الرسائل وببراهين دامغة: أن الإستقلال والإنفراد من أخص خصائص الحاكمية، حتى ان هذا الإنسان الذي هو عاجز عجزاً شديداً، ولا يملك من الحاكمية سوى ظل باهت، نراه يردّ بكل قوة أي فضول كان من الآخرين، ويرفض بكل شدة أي تدخل كان منهم في شؤونه، صوناً منه لإستقلاله وإنفراده في الأمر. بل ذُكِر في التاريخ أن كثيراً من السلاطين قد سفكوا دماءً زكية لأبنائهم الأبرياء وإخوانهم الطيبين حينما

شعروا بتدخل منهم في شؤونهم.

إذن فالإستقلال والإنفراد ورفض مداخلة الآخرين هو من أخصّ خصائص الحاكمية الحقة، لا فكاك لها عنه. بل هو لازمها ومقتضاها الدائم. فالحاكمية الإلهية التي هي في ربوبية مطلقة تردّ بكل شدة الشرك والإشتراك مهما كان نوعه، ولا تقبل تدخلاً ما من سواها قط، ومن هنا نرى القرآن الكريم يفيض في بيان التوحيد الخالص ويردّ الشرك والمشاركة بأسلوب شديد وبتهديد مروّع.. فكما إقتضت الحاكمية الإلهية – التي هي في الربوبية المطلقة – التوحيد والوحدانية بقطعية تامة، وأظهرت مقتضىً شديداً وداعياً قوياً لها، كذلك النظام المتقن والإنسجام البديع المشاهدان في الكون – إبتداء من النجوم والنباتات والحيوانات والأرض والمعادن وإنتهاء بالجزئيات والأفراد والذرات – كل منهما شاهدُ عدلٍ، وبرهان باهر على تلك الوحدانية والفردية، فلا يسمح قط لريبة أو لشبهة، إذ لو كان هناك تدخل مما سوى الواحد الأحد، لفسد هذا النظام البديع الرصين، واختل هذا التوازن المحكم المشاهَد في جميع أجزاء الكون، فصدق الله العظيم الذي قال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾(الأنبياء: ٢٢)

نعم، لو كان هناك أي تدخل مهما كان لظهرت آثارُه باديةً، إلاّ أن الدعوة الصريحة في الآية الكريمة: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ﴾(الملك: ٣) تريك هذا النظام البديع بكل وضوح وجلاء حتى لا ترى ثغرة ولا لبساً ولا نقصاً في جهة من الجهات ابتداءً من الذرات إلى المجرات.

إذن فالنظـام الرصـين في الكـون، والإنتظـام الرائـع في المخلوقـات كافـة، والموازنة الدقيقة بين الموجودات.. يظهر لنا التجلي الأعظم لإسم الفرد ويشهد شهادة واضحة على الوحدانية.

ثم إن أي مخلـوق مهمـا كـان صـغيراً، إنمـا هـو مثـال مصـغر للكـون كلـه ونموذجه، وفهرسه المختصر، بمقتضى تجلي الأحدية. فلا يكون مالكاً لذلك المخلوق الحي الصغير إلاّ مَن كان بيده زمام الكون كله وله الأمر جميعاً. وحيث إن كل بذرة متناهية في الصغر ليست بأقل إبداعاً في الخلق من شجرة ضخمة، وأن كل شجرة باسقة تضاهي في خلقها خلق الكائنات، وكل كائن حي صغير إنما هو بحكم عالم مصغّر، وكون صغير فإن تجلي الأحدية هذا يجعل الشرك والإشتراك محالاً ممتنعاً.

ثم إن هذا الكون في ضوء هذا السر - سر الأحدية - ليس كلاً يستعصي على التجزئة وحدها بل أيضاً هو كلّي من حيث الماهية، لا يقبل الإنقسام والإشتراك والتجزئة وتدخل الأيدي المتعددة قط، فإن كل جزء فيه بحكم جزئي وفرد منه وكل الكون هو بحكم الكلي، فليس فيه موضع للإشتراك في أية جهة كانت.

فهـذا التجلـي الأعظـم لإسـم الفـرد يثبـت حقيقـة التوحيـد بهـذا السـر للأحدية، بدرجة البداهة.

نعم، إنَّ إندماج أنواع الكائنات وإندغامها فيما بينها، وتوجه وظيفة كل منها إلى عموم الكائنات مثلما يجعل الكون كلاً واحداً يستعصي على التجزئة

قطعاً – من حيث الخلق والربوبية – كذلك الأفعال العمومية المحيطة بالكائنات والتي تظهر أثارها وفعالياتها في الكائنات عموماً تجعل الكون أيضاً كلاً واحداً – من حيث تداخلها ببعضها – حتى يرفض التجزئة ويردّها ردّاً قوياً. ولتوضيح ذلك نسوق المثال الآتي:

حالما توهب الحياة للكائن يظهر فعل الإعاشة والإرزاق فيه مباشرة. وضمن أفعال الإعاشة والإحياء هذه، يشاهَد مباشرةً فعلُ تنظيمِ جسد ذلك الكائن وتنسيق أعضائه، وتجهيزه بما يحتاج ويلزم. وحينما تظهر أفعال الإعاشة والإحياء والتنظيم والتجهيز يفعل التصويرُ والتربية والتدبير فعلَه في الوقت نفسه.. وهكذا.

فتداخل أمثال هذه الأفعال المحيطة العامة بعضها بالبعض الآخر، وإتحادها ببعضها، وإمتزاجها كامتزاج الألوان السبعة في الطيف الشمسي، ثم إحاطة كل فعل من تلك الأفعال وشموله – مع وحدته من حيث الماهية – للموجودات كلها في وحدة واحدة، وكون كل فعلٍ منها فعلاً وحدانياً.. يدل دلالة واضحة على أن فاعلَه واحدٌ أحد فرد..

وكما أن إستيلاء كل فعل – من تلك الأفعال – وهيمنته على الكائنات قاطبة، وإتحاده مع سائر الأفعال في تعاون وثيق، يجعل الكون كلاً غير قابل للتجزئة.. كذلك فإن كل مخلوق حي من حيث كونه بمثابة بذرة الكون وفهرسه ونموذجه يجعل الكون كلياً غير قابل للإنقسام والتجزئة – من حيث الربوبية – بل يجعل إنقسامه محالاً وخارجاً عن الإمكان، أي أن الكون بهذا

هو كلٌّ لا يتجزأ، فلا يكون إذن ربُّ الجزء إلاّ من كان ربّاً للكل. وهو كلي أيضاً بحيث يكون كل جزءٍ منه بحكم فرد، فلا يكون ربّاً للفرد الواحد إلاّ من كان زمام ذلك الكلي بيده.

الإشارة السادسة:

كما أن إنفراد الله سبحانه وتعالى بالربوبية،وتوحيده بالألوهية هو أساس جميع الكمالات[10] ومنشأ المقاصد السامية، ومنبع الحِكَم المودَعة في خلق الكون، كذلك هو الغاية القصوى، والبلسم الشافي، لتطمين رغبات كل ذي شعور وذي عقل ولاسيما الإنسان، فلولا «الفردية» لإنطفأت شعلةُ رغباته ومطالبه كلها وتنمحي جميعُ الحِكَم المودَعة في خلق الكون، وتتلاشى اكثرُ الكمالات الموجودة والثابتة وتنعدم.

فمثلا: إنَّ رغبة حب البقاء بل عشقه، عميقة في الإنسان.. هذه الرغبة العريقة لا يحققها ولا يسكّنها ويُطمئنُها إلاّ مَن هو مالك لمقاليد الكون، الذي يفتح باب البقاء السرمدي أمام الإنسان بالآخرة، بعد أن يُنهي هذه الدنيا الفانية ويغلق أبوابها كسهولة غلق غرفة وفتح أخرى.

---

[10] حتى ان التوحيد هو نفسه أوضح برهان، وأسطع دليل على الكمال والجمال الإلهي، لأنه: اذا عُرف ان صانع الكون واحد أحد، فسيُعرف جميع أنواع الكمال والجمال المشاهدة في الوجود، بأنها: ظلال وتجليات وعلامات لأنواع الكمال المقدس وأنماط الجمال المنزّه لذلك الصانع الواحد الأحد لذلك الكمال المقدس والجمال المنزه، بينما إذا لم يُعرف الصانعُ الواحد، فستحال تلك الكمالات وأنواع الجمال إلى الأسباب التي لا شعور لها والى مخلوقات عاجزة، وعندها يحار العقل البشري أمام خزائن الكمال والجمال السرمديين، لانه فقد مفتاح تلك الكنوز الخالدة. ـ المؤلف.

وهناك رغبات أخرى كثيرة جداً للإنسان أمثال هذه الرغبة، كلها ممتدة إلى غير نهاية معلومة ومتشعبة في ثنايا الكائنات جميعاً.. فهذه الرغبات جميعها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحقيقة التوحيد، ومشدودة مع سر «الفردية». فلولا ذلك السرّ لبقيت هذه الرغبات عقيمة دون نتائج، قاصرة عن بلوغ مداها، مبتورة منكمشة. ولولا تصرف الواحد الأحد في الكون كله لما إطمأنت ولا حصلت تلك الرغبات ولو حصلت حصلت مبتورة.

فالإيمان بالوحدانية، وبقدرة «الفرد الواحد الأحد» المطلقة إذن هو وحده الكفيل بإحلال الطمأنينة والسكون في تلك الرغبات المتأججة لدى الإنسان. من اجل هذا السر العظيم نرى القرآن الكريم يذكر التوحيد والوحدانية بكل حرارة وشوق، ويكررها بكل حلاوة وذوق، وان الأنبياء – عليهم السلام – والأصفياء والعلماء والأولياء الصالحين يجدون بغيتهم وذوقهم السامي، بل منتهى سعادتهم في أفضل ما قالوه: «لا إله إلاّ هو».

الإشارة السابعة:

إنَّ هذا التوحيد الحقيقي، بجميع مراتبه، وبأتم صورته الكاملة، قد أثبته وأعلنه وفهّمه وبلّغه محمد(صلى الله عليه وسلم)، فلابد أن رسالته ثابتة وقاطعة كقطعية ثبوت التوحيد نفسه؛ لأنه: لما كان التوحيد هو أعظم حقيقة في عالم الوجود، وان الرسول الأعظم (صلى الله عليه وسلم) هو الذي تولى تبليغه وتعليمه بجميع حقائقه، فلابد أن جميع البراهين التي تثبت التوحيد، تكون بدورها براهين لإثبات رسالته وأدلة على صدق نبوته وأحقية دعوته

(صلى الله عليه وسلم)، فرسالة كهذه الرسالة العظمى التي تضم ألوفاً من أمثال هذه الحقائق السامية وتكشف عن حقيقة التوحيد وترشد إليه وتلقنه، لا شك أنها رسالة يقتضيها ذلك التوحيد وتلك الفردية. فمَن ذا غير محمد (صلى الله عليه وسلم) الذي أدىّ الأمانة على أفضل وجه وبلّغ الرسالة على أجمل صورة؟.

سنذكر ثلاثة نماذج، مثالاً لتلك الأدلة الكثيرة والأسباب العديدة التي تشهد بعظمة الشخصية المعنوية لهذا النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) وتدل على علو منزلته الرفيعة، وتبيّن انه السراج المنير لهذه الكائنات وشمسها الساطعة.

الدليل الأول:

إنَّ ثواب جميع الحسنات التي ينالها جميع أفراد الأمة، وعلى مدى جميع العصور مكتوبٌ مثلُه في صحيفة حسناته (صلى الله عليه وسلم)، إذ هو السبب في نيل كل ثواب تناله أمتُه إلى يوم القيامة، حيث «السبب كالفاعل».. تأمل في هذا ثم فكّر في المقام المعظم اللائق الذي يقتضيه مجموع الأدعية غير المحدودة من الصلوات المقبولة المرفوعة يومياً من الأمة كافة.. تدرك عندئذٍ، درجته العالية الرفيعة وتفهم أن شخصيته المعنوية شمس الكائنات والسراج المنير للخلق أجمعين.

الدليل الثاني:

إنَّ بذرة الشجرة الوارفة للإسلام، ومنشأها، وحياتها، ومنبعها إنما هي

حقيقة الماهية المحمدية، بما تملك من فطرة سامية، وخلقة كاملة. فتذكّر هذا ثم فكّر في الرقي الروحي لهذا الرسول الحبيب (صلى الله عليه وسلم) النابع من إستشعاره الكامل الأتم لجميع معاني ومراتب عبادته، وأذكاره، وكلماته الشريفة، والذي يمثل بمجموعه روح الإسلام وحقيقته. لتعلم مدى علو مرتبة ولاية عبوديته (صلى الله عليه وسلم) إلى الدرجة الرفيعة، درجة الحبيبية. وافهم مبلغ سموّها.

ولقد فتح الله عليّ يوماً في سجدةٍ في صلاةٍ، بعض المعاني والأنوار المشعة من كلمة (سبحان ربي الأعلى) بما يقرب من فهم الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين من هذه الكلمة المقدسة. فتبين لي يقيناً أنها خير من عبادة شهر، فأدركتُ بها المنزلة العظيمة والدرجة العالية التي يحظى بها الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين.

نعم، إنَّ الأنوار التي تشعها الكلمات المقدسة، وفيوضاتها في بدء الإسلام لها مزايا خاصة، وذلك لجدّتها، ولها من اللطافة والطراوة واللذة ما تتناقص بمرور الزمن وتتستر تحت ستار الغفلة.

والآن، وفي ضوء ما سبق تأمل مكانة الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) الذي تناول الكلام المقدس، ورَشَفَه من المنبع الأقدس، واستوعب أنواره بالوحي الإلهي بكامل جدّته وطراوته ولطافته. مع ما فُطر عليه من إستعداد كامل.. فالأنوار والفيوضات الكامنة في تسبيحةٍ واحدة منه (صلى الله عليه وسلم) هي خيرٌ وأعم من جميع الأنوار التي تملأ أرجاء عبادة سنة

كاملة عند غيره.!.

قِس على هذا المنوال، كي تعلم كم بلغ رسولنا الحبيب (صلى الله عليه وسلم) من درجات الكمال التي لا حد لها ولا نهاية.

الدليل الثالث:

إنَّ الإنسان يمثل أعظم مقصد من المقاصد الإلهية في الكون، وهو المؤهَّل لإدراك الخطاب الرباني. وقد إختاره سبحانه من بين مخلوقاته، واصطفى من بين الإنسان المكرّم مَن هو أكمل وأفضل وأعظم إنسان بأعماله وآثاره الكاملة، ليكون موضع خطابه الجليل بإسم النوع الإنساني كافة، بل بإسم الكائنات جميعاً. فلا ريب أن الله سبحانه الفرد الجليل الذي هيأ رسوله الحبيب (صلى الله عليه وسلم) لهذه المرتبة اللائقة به قد منحه من الأنوار والكمالات ما لا يحد بحدود.

وهكذا وبمثل هذه الدلائل الثلاثة ودلائل أخرى كثيرة يَثبت لدينا يقيناً: إن الشخصية المعنوية للرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) ، شمس معنوية ساطعة للكائنات. وسراج منير لامع لها، كما أنها الآية العظمى من قرآن الكون، والإسم الأعظم للفرقان الأعظم، ومرآة صافية للتجلي الأعظم لأنوار إسم «الفرد» عزّ وجل.

فاللّهم يا أحدُ، يا فردُ، يا صمدُ، أنزِل من بركات خزينة رحمتك التي لا تنفد صلواتٍ وسلاماً على تلك الذات النبوية الشريفة، بعدد ذرات الكون مضروباً بعدد عاشرات جميع أزمنة الكون.

(اللمعات، اللمعة الثلاثون، النكتة الرابعة)

نافذة الى التوحيد

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ ﴾(الإسراء:٤٤)

نعم، مثلما أودع الصانع الجليل حكماً لا تُعَدُّ، ومعاني ساميةً لا تحصى في الأجرام السماوية، فزيَّن تلك السماوات بكلمات الشموس والأقمار والنجوم لتعبّر عن جلاله وجماله سبحانه.. كذلك ركّب جلَّ وعلا في موجودات جو السماء حِكَماً عالية، وعلّق عليها معاني سامية، ومقاصد عظمى، وأنطق جو السماء بكلمات الرعود والبروق وقطرات الأمطار ليُعْلَمَ بها، ويُعَرّفَ عن طريقها كمال حكمته، وجمال رحمته.

ومثلما جعل سبحانه وتعالى كرة الأرض تتكلم بكلماتٍ ذات مغزى، وأنطَقَها بما بثَّ فيها من الحيوانات والنباتات التي هي كلمات بليغة، مبيّناً بذلك كمال صنعته للوجود.. كذلك جعل النباتات والأشجار نفسها تنطق بلسان أوراقها وأزهارها وثمارها، معلنةً كمال صنعته سبحانه، وجمال رحمته جلَّ جلاله.. وجعل الزهرة أيضاً، والثمرة كذلك وهي كلمة واحدة من تلك الكلمات.. جعلها البارئ المصور تتكلم بلسان بُذيراتها الدقيقة فأشار بها سبحانه إلى دقائق صنعته، وكمال ربوبيته، لمن يُحسن الرؤية من ذوي الإحساس والشعور.

فدونك إنْ شئتَ الاستماع إلى ما لا يحد من كلمات التسبيح والأذكار في الكون.

وسنستمع الآن إلى ذلك النمط من الكلام متمثلاً في كلام زهرة واحدة من بين أزهار العالم، وسنصغي إلى إفادة سنبلة واحدة من بين سنابل الأرض، لنزداد يقيناً كيف أن هذا كله يشهد شهادة صادقة على مصداقية التوحيد.

نعم، إن كل نبات وكل شجر، دليل واضح على صانعه، وشَاهدُ صدقٍ على وحدانية خالقه بمختلف الألسنة، بحيث إن تلك الشهادة تجعل المدقق المتمعن فيها في حيرة وذهول، فيقول: يا سبحان الله.. ما أجمل شهادة هذا على أحقية التوحيد!

نعم، انه واضح جلي كوضوح النبات نفسه، وجميل كذلك كجمال النبات نفسه، تلك التسبيحات التي يهمس بها كل نبات في إشراق تبسمه، عند تفتح زهره، ونضج ثمره، وتسنبل سنبله، لأنه بالثغر الباسم لكل زهرة، وباللسان الدقيق للسنبل المنتظم، وبكلمات البذور الموزونة، والحبوب المنسقة، يظهر «النظام» الذي يدل على «الحكمة»..

وهذا النظام كما هو مشاهد، في ثنايا «ميزان» دقيق حسّاس، يدل على «العِلم» ويبينه ويبرزه، وذلك «الميزان» هو ضمن «الصنعة الدقيقة» التي تدل على «المهارة الفائقة». وتلك الصنعة الدقيقة والنقوش البديعة هي الأخرى ضمن الزينة الرائعة التي تبين «اللطف والكرم». وتلك الزينة البهيجة هي بدورها معبّقة بالروائح الطيبة الفواحة، والعطور الزكية اللطيفة التي تظهر «الرحمة والإحسان».

فتلك الأوضاع والحالات، التي لها معانٍ عميقة متداخلة، ومكتنفة بعضها ببعض، لسان شهادة عظمى للتوحيد، بحيث تعرِّف الصانع ذا الجلال بأسمائه

المقدسة الحسنى، وتصفه بأوصافه الجليلة السامية، وتشرح وتفسر أنوار تجليات أسمائه الحسنى، وتعبّر عن تودّده وتحبّبه سبحانه وتعالى.

فلئن استمعتَ إلى شهادة كهذه من زهرة واحدة فقط، وتمكنت من الإصغاء إلى الشهادة العظمى الصادرة من جميع الأزهار في جميع البساتين الربانية على سطح الأرض، واستمعت إلى ذلك الإعلان المدوي الهائل الذي تعلنه تلك الأزهار في وجوب وجوده سبحانه ووحدانيته، فهل تبقى لديك ثمة غفلة! أو أية شبهة؟ وإنْ بقيتْ لديك غفلة، فهل يمكن أن يطلق عليك بأنك إنسان ذو شعور سامٍ متجاوب مع مشاعر الكون وأحاسيسه؟!.

فتعالَ لنتأمل شجرة.. نحن أمام نشوء الأوراق ونموها في الربيع بانتظام ودقة متناهية، وأمام تفتح الأزهار وخروجها من أكمامها بشكل موزون، وأمام نمو الثمار بحكمة ورحمة..

فهلاَّ أمعنت النظر في منظر ملاعبة النسيم للأوراق برقة وبراءة كبراءة الطفولة النقية الرقيقة.

وشاهد من فم الشجرة، كيف تنطق هذه الألسن وتفصح عن حالها؛لسان الأوراق المخضرة بيد الكرم.. ولسان الأزهار المبتسمة بنشوة اللطف.. ولسان الثمار الفرحة بتجلي الرحمة.. كُلٌ منها يعبّر عن ذلك «الميزان» الدقيق العادل الذي هو ضمن «النظام» البديع المحكم، وفي هذا الميزان الدقيق الذي يدل على «العدل» نقوشُ صنعةٍ دقيقة بديعة، وزينة فائقة تضم مذاقات متنوعة، وروائح مختلفة طيبة لطيفة، تدل على الرحمة والإحسان، وفي تلك المذاقات اللطيفة بذور

ونوى هي بحد ذاتها معجزة من معجزات القدرة الإلهية، ألا يدل ذلك بوضوح، ويظهر بجلاء وجوب وجود خالق كريم ورحيم، محسن، منعم، مُجمِّل، مُفضِّلٍ، واحد، أحد، ويشهد كذلك على جمال رحمته سبحانه وكمال ربوبيته؟

فإن استطعت أن تسمع هذا من لسان حال جميع الأشجار على سطح الأرض معاً، فستفهم، بل سترى؛ كم من الجواهر الجميلة النفيسة الرائعة في خزينة الآية الكريمة:﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (الحشر:٢٤)

فيا أيها الغافل المسكين، ويا مَنْ يظن نفسَه هملاً دون حساب، ويا مَنْ يغرق في نكران الجميل والكفران!.

إنَّ الكريم ذا الجمال يعرّف نفسه ويحبّبُها إليك بهذا الحشد من الألسنة التي لا تعد ولا تحصى، وإن أردت أن تصرف نفسك عن ذلك التعريف، فما عليك إلاّ أن تكمم جميع هذه الأفواه، وتسكت تلك الألسنة كافة.

وأنّى لك هذا!!

فما دام إسكات تلك الألسنة الناطقة بالتوحيد غير ممكن، فما عليك إلاّ الإصغاء والإنصات إليها. وإلاّ فلن تنجو بمجرد سد الأذن بأصابع الغفلة، لأن عملك هذا لا يسكت الكون. فالكون جميعاً، والموجودات كافة ناطقة بالتوحيد. فدلائل التوحيد وأصداؤه شواهد عدل لا تنقطع ولا تنتهي أبداً. فلا بد أنها ستُدينك. (**الكلمات، الكلمة/٣٣، النافذة/١٩**)

في رحاب القرآن

* الألفاظ القرآنية والأذكار المأثورة

* القرآن يحمي نفسه بنفسه

* أدب القرآن والأدب الغربي

* إياك نعبد

* الوظيفة الاساسية للقرآن الكريم

الألفاظ القرآنية والأذكار المأثورة

سؤال مهم: يقول بعض اهل العلم والتحقيق:

لما كانت الالفاظ القرآنية، والاذكار المأثورة، والتسبيحات الواردة، تنور شتى جوانب اللطائف المعنوية للانسان وتغذيه روحياً، الا يكون من الافضل ان يصوغ كل قوم تلك الالفاظ وفق لسانهم الخاص حتى تفهم معانيها؟ اذ الالفاظ وحدها لا تفي بالغرض المطلوب إذ هي في حقيقتها ألبسة وقوالب للمعاني؟

الجواب: ان الفاظ الكلمات القرآنية، والتسبيحات النبوية، ليس لباساً جامداً يقبل التبديل والتغيير وانما مثله مثل الجلد الحي للجسد، بل انها اصبحت فعلاً جلداً حياً بمرور الزمن، ولا جدال في ان تبديل الجلد وتغييره يضر الجسم.

ثم ان تلك الكلمات المباركة في الصلاة، والذكر، والاذان، اصبحت إسما و عَلَما لمعانيها العرفية والشرعية ولا يمكن تبديل الاسم والعلَم.

ولقد توصلتُ الى هذه الحقيقة، بعد التأمل والامعان في حالة مرت عليَّ، وهي:

عندما كنت أقرأ يوم يوم عرفة سورة الاخلاص مائة مرة مكرراً اياها باستمرار لاحظت:

ان قسماً من حواسي الروحية اللطيفة، بعدما اخذت غذاءها بالتكرار قد ملت وتوقفت؛ وان قوة التفكير فيّ قد توجهت الى المعنى، فأخذت حظها، ثم توقفت وملّت. وان القلب الذي يتذوق المعاني الروحية ويدركها، هو ايضاً قد سكت، بعدما اخذ نصيبه من التكرار.

بينما بالمواظبة والتكرار المستمر على القراءة رأيت ان قسماً من اللطائف في الكيان الانساني لا يمل بسرعة، فلا تضره الغفلة التي تضر قوة التفكير، بل انه

يستمر ويداوم في اخذ حظه بحيث لا يدع حاجة الى التدقيق والتفكر في المعنى، اذ يكفيه المعنى العرفي الذي هو اسمٌ وعلَم، ويكفيه اللفظ والمعنى الاجمالي لتلك الالفاظ الغنية المشبعة. بل ربما يورث سآمة وملل حينما يبدأ التفكر يتوجه الى المعنى، ذلك لان تلك اللطائف لا تحتاج الى تعلّم وتفهيم بقدر ما هي بحاجة الى التذكر والتوجيه والحث.

لذا فان اللفظ الذي هو اشبه بالجلد يكفي لتلك اللطائف وفي اداء وظيفة المعنى، وخاصة ان تلك الالفاظ العربية هي مبعث فيض دائم، اذ تذكر بالكلام الإلهي والتكلم الرباني.

فهذه الحالة التي جربتها بنفسي تبين لنا:

ان التعبير باي لغة كانت غير اللغة العربية، عن حقائق الاذان وتسبيحات الصلاة، وسورة الاخلاص والفاتحة التي تتكرر دائما، ضار جداً. ذلك لان اللطائف الدائمة تبقى محرومة من نصيبها الدائم بعدما ان تفقد المنابع الحقيقية الدائمية التي هي الالفاظ الإلهية والنبوية. فضلاً عن انه يضيع في الاقل عشر حسنات لكل حرف. ولعدم دوام الطمأنينة والحضور القلبي لكل واحد في الصلاة، تبعث التعابير البشرية المترجمة عند الغفلة ظلمتها في الروح.. وامثالها من الاضرار الاخرى.

نعم، فكما قال الامام ابو حنيفة رضي الله عنه ان: (لا إله إلا الله) علم للتوحيد. كذلك نقول:

ان الاكثرية المطلقة لكلمات التسبيحات والاذكار وخاصة كلمات الاذان والصلاة والذكر، اصبحت بمثابة الاسم والعَلَم، فتُنظر الى معانيها العرفية الشرعية اكثر من النظر الى معانيها اللغوية، لذا لا يمكن شرعاً تبديلها مطلقاً.

اما معانيها التي لابد ان يفهمها كل مؤمن، فان اي شخص عامي يمكنه ان يفهم ويتعلم مجمل معانيها في اقصر وقت. فكيف يعذر ذلك المسلم الذي يقضي عمره مالئاً فكره وعقله بما لا يعنيه من الامور ولا يصرف جزءاً ضئيلاً من وقته لفهم تلك المعاني التي هي مفاتيح حياته الابدية وسعادته الدائمة. بل كيف يعتبر من المسلمين وكيف يقال عنه انه انسان عاقل!!

فهل من العقل في شئ ان تفسد تلك الالفاظ التي هي مستودع منابع تلك الانوار لاجل تقاعس هؤلاء الكسالى؟!

ثم انه عندما يقول أي مؤمن، بأي لغة يتكلم: ((سبحان الله)) فانه يعلم انه يقدس ربه جل وعلا.. الا يكفي هذا القدر؟! بينما اذا حصر اهتمامه بالمعنى المجرد، بلسانه الخاص، فانه لا يتعلم الا حسب تفكيره وعقله، الذي يأخذ حظه ويفهم مرة واحدة، والحال انه يكرر تلك الكلمة المباركة اكثر من مائة مرة يومياً ففضلاً عن ذلك الفهم العقلي فان المعنى الاجمالي الذي سرى في اللفظ وامتزج معه هو مبعث انوار وفيوضات كثيرة جداً، ولاسيما ان تلك الالفاظ العربية لها اهميتها وقداستها وانوارها وفيوضاتها، حيث انها كلام إلهي.

ومجمل القول: انه لا يمكن ان يقوم مقام الالفاظ القرآنية التي هي محافظ ومنابع للضروريات الدينية اي لفظ آخر، ولا يمكن لاي لفظ آخر ان يحل محلها قطعاً، ولا ان يؤدي الغرض منها لقدسيتها، وسموها، ودوامها، وان ادى مؤقتاً جزءاً ضئيلاً منها. اما الامور الدينية من غير الضروريات فليس هناك حاجة الى تبديل الفاظها ايضاً لان تلك الحاجة تندفع بالمواظبة على النصيحة والارشاد والوعظ.

والنتيجة: ان شمولية اللغة العربية الفصحى وسعتها، والبيان المعجز في الالفاظ القرآنية، تحولان دون ترجمة تلك الالفاظ، ولذلك لا يمكن ترجمتها قطعاً، بل انه

محال. ومن كان يساوره الشك في هذا فليراجع (الكلمة الخامسة والعشرين) في المعجزات القرآنية ليرى منزلة الآية الكريمة باعجازها وتشعبها وشمولها وجمالها ومعناها الرفيع واين منها ((الترجمة)) التي هي معنى مبتور بل ناقص وقاصر. (**المكتوبات، المكتوب/٢٦، المسألة/٨**).

القرآن يحمي نفسه بنفسه وينفذ حكمه

رأيت شخصاً قد ابتلي باليأس، وأصيب بالتشاؤم. يقول:

لقد قلّ العلماء في هذه الأيام، وغلبت الكميةُ النوعيةَ، نخشى أن ينطفئ ديننا في يوم من الأيام.

قلت: كما لا يمكن إطفاء نور الكون ولا يمكن إطفاء إيماننا الإسلامي، كذلك سيسطع الإسلام في كل آن إن لم تطفأ منارات الدين، معابد الله، معالم الشرع، تلك هي شعائر الإسلام، الأوتاد الراسخة في الأرض.

فلقد أضحى كل معبد من معابد الله معلّماً بطبعه يعلّم الطبائع.

وصار كلُ مَعْلَمٍ من معالم الشرع أستاذاً، يلقن الدين بلسان حاله. من دون خطأ ولا نسيان!

وأصبحت كل شَعيرة من شعائر الإسلام، عالماً حكيماً بذاته، يدرّس روح الإسلام ويبسطه أمام الأنظار بمرور العصور.

حتى كأن روح الإسلام قد تجسم في شعائره. وكأن زلال الإسلام قد تصلب في معابده، عموداً سانداً للإيمان، وكأن أحكام الإسلام قد تجسدت في معالمه. وكأن أركان الإسلام قد تحجرت في عوالمه، كل ركن عمود من الألماس يربط الأرض بالسماء. ولا سيما هذا القرآن العظيم، الخطيب المعجز البيان، يلقي خطاباً أزلياً في أقطار عالم الإسلام.. لم تبقَ ناحيةٌ ولا زاوية إلاّ واستمعت له واهتدت بهديه. حتى صار حفظُه مرتبة جليلة يسري فيها سر الآية الكريمة: ﴿ ..

وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الحجر:٩) وغدت تلاوته عبادة الإنس والجان.

فيه تعليم، فيه تذكير بالمسلّمات. إذ النظريات تنقلب إلى مسلّمات بمرور الأزمان، ثم إلى بديهيات حتى لا تدع حاجة إلى بيان.

فقد خرجت الضروريات الدينية من طور النظريات. فالتذكير بها إذن كافٍ والتنبيه وافٍ، والقرآن شافٍ في كل وقتٍ وآن، إذ فيه التنبيه والتذكير.

ويقظة المسلمين وصحوتهم الاجتماعية تسلّم لكل فرد ما يخص العموم من الدلائل، وتضع لهم الميزان.

فإيمان كل شخص لا ينحصر بدليله، ولا يستند الوجدان إليه وحده، بل والى أسباب لا تحد في قلب الجماعة أيضاً.

فلئن كان رفض مذهب ضعيف يصعب كلما مرّ عليه الزمن؛ فكيف بالإسلام الذي هيمن طوال هذه العصور هيمنة تامة، وهو المستنِد إلى أساسين عظيمين هما: الوحي الإلهي، والفطرة السليمة.

لقد التحم الإسلام وتغلغل في أعماق نصف المعمورة، بأسسه الراسخة وآثاره الباهرة. فسرى روحاً فطرياً فيه. فأنّى يستُره كسوفٌ وقد انزاح عنه الكسوف تواً.

ولكن ويا للأسف يحاول بعض الكفرة البلهاء وأهل السفسطة أن يتعرضوا لأسس هذا القصر الشاهق العظيم، كلما سنحت لهم الفرصة.

ولكن هيهات.. فهذه الأسس لا تتضعضع أبداً.

فليخرس الإلحاد الآن، ولقد أفلس ذلك الديوث.

ألا تكفيه تجربة الكفران ومزاولة الكذب والبهتان.

كانت هذه الدار، دار الفنون (الجامعة). في مقدمة قلاع عالم الإسلام تجاه الكفر والطغيان، بيد أن اللامبالاة والغفلة والعداوة، تلك الطبيعة الثعبانية المنافية للفطرة، شقّت فرجة خلف الجبهة فهاجم منها الإلحاد، واهتزت عقيدة الأمة أي اهتزاز.

فلابد أن تكون طليعة الحصون المستنيرة بروح الإسلام، أكثَرها صلابة وأزيدها انتباهاً ويقظة، هكذا تكون وإلاّ فلا. فلا ينبغي أن يُخدع المسلمون.

إن القلب مستقر الإيمان، بينما الدماغ مرآة لنوره، وقد يكون مجاهداً وقد يزاول كنس الشبهات وأدران الأوهام.

فان لم تدخل الشبهات التي في الدماغ إلى القلب لا يزيغ إيمان الوجدان.

ولو كان الإيمان في الدماغ – كما هو ظن البعض – فالاحتمالات الكثيرة والشكوك تصبح أعداءاً ألدّاء لروح الإيمان الذي هو حق اليقين.

إن القلب والوجدان محل الإيمان.

والحدس والإلهام دليل الإيمان.

وحسّ سادس طريق الإيمان.

والفكر والدماغ حارس الإيمان.

تدعو الحاجة إلى التذكير بالمسلّمات اكثر من تعليم النظريات

لقد استقرت في القلوب الضروريات، والمسلّمات الشرعية.

ويحصل المطلوب بمجرد التنبيه للإطمئنان، والتذكير للإستشعار. والعبارة العربية تنبّه وتذكّر على أفضل وجه وأسماه ولهذا؛ فخطبة الجمعة باللغة العربية

كافية ووافية للتنبيه على الضروريات والتذكير بالمسلّمات. إذ تعليم النظريات ليس مقصود الخطبة.

ثم إن هذه العبارة العربية تمثل شعار الوحدة الإسلامية في أعماق وجدان الإسلام الذي يرفض التشتت. **(الكلمات، اللوامع)**

أدب القرآن والأدب الغربي

لا تبلغ يد الأدب الغربي ذي الأهواء والنزوات والدهاء..

شأن أدب القرآن الخالد ذي النور والهدى والشفاء.

إذ الحالة التي ترضى الأذواق الرفيعة للكاملين من الناس وتُطمئنهم، لا تسرّ أصحاب الأهواء الصبيانية وذوي الطبائع السفيهة، ولا تسلّيهم، فبناءً على هذه الحكمة؛

فان ذوقاً سفيهاً سافلاً، ترعرع في حمأة الشهوة والنفسانية، لا يستلذ بالذوق الروحي، ولا يعرفه أصلاً.

فالأدب الحاضر؛ المترشح من أدب أوروبا، عاجز عن رؤية ما في القرآن الكريم من لطائف عالية ومزايا سامية، من خلال نظرته الروائية، بل هو عاجز عن تذوقها، لذا لا يستطيع أن يجعل معياره محكّاً له.

والأدب يجول في ثلاثة ميادين، دون أن يحيد عنها:

ميدان الحماسة والشهامة..

ميدان الحسن والعشق..

ميدان تصوير الحقيقة والواقع..

***فالأدب الأجنبي:**

في ميدان الحماسة؛

لا ينشد الحق، بل يلقّن شعور الافتتان بالقوة بتمجيده جَور الظالمين

وطغيانهم.

وفي ميدان الحسن والعشق؛

لا يعرف العشق الحقيقي، بل يغرز ذوقاً شهوياً عارماً في النفوس.

وفي ميدان تصوير الحقيقة والواقع؛

لا ينظر إلى الكائنات على أنها صنعة إلهية، ولا يراها صبغة رحمانية، بل يحصر همه في زاوية الطبيعة ويصور الحقيقة في ضوئها، ولا يقدر الفكاك منها.. لذا يكون تلقينه عشق الطبيعة، وتأليه المادة، حتى يمكّن حبها في قرارة القلب، فلا ينجو المرء منه بسهولة.

ثم إن ذلك الأدب المشوب بالسفه، لا يغني شيئاً عن اضطرابات الروح وقلقها الناشئة من الضلالة والواردة منه أيضاً، ولربما يهدئها وينيّمها.

وفي حسبانه انه قد وجد حلاً، وكأن العلاج الوحيد، وهو رواياته. وهي:

في كتاب.. ذلك الحي الميت.

وفي سينما.. وهي أموات متحركة.

وفي مسرح.. الذي تبعث فيه الأشباح وتخرج سراعاً من تلك المقبرة الواسعة المسماة بالماضي!

هذه هي أنواع رواياته.

وأنّى للميت أن يهب الحياة!..

وبلا خجل ولا حياء!.. وضع الأدب الأجنبي لساناً كاذباً في فم البشر.. وركّب عيناً فاسقة في وجه الإنسان.. وألبس الدنيا فستان راقصة ساقطة.

فمن أين سيعرف هذا الأدب؛ الحسنَ المجرد.

حتى لو أراد أن يُري القارئ الشمسَ؛ فانه يذّكره بممثلة شقراء حسناء.

وهو في الظاهر يقول: «السفاهة عاقبتها وخيمة، لا تليق بالإنسان»..

ثم يبين نتائجها المضرة..

إلاّ انه يصورها تصويراً مثيراً إلى حد يسيل منه اللعاب، ويفلت منه زمام العقل، إذ يضرم في الشهوات، ويهيج النزوات. حتى لا يعود الشعور ينقاد لشيء.

*** أما أدب القرآن الكريم:**

فانه لا يحرك ساكن الهوى، لا يثيره، بل يمنح الإنسان الشعور بنشدان الحق وحبه، والافتتان بالحسن المجرد، وتذوّق عشق الجمال، والشوق إلى محبة الحقيقة.. ولا يخدع أبداً.

فهو لا ينظر إلى الكائنات من زاوية الطبيعة، بل يذكرها صنعة إلهية، صبغة رحمانية، دون أن يحير العقول.

فيلقّن نور معرفة الصانع..

ويبين آياته في كل شيء..

والأدبان.. كلاهما يورثان حزناً مؤثراً. إلاّ انهما لا يتشابهان.

فما يورثه أدب الغرب هو حزن مهموم، ناشئ من فقدان الأحباب، وفقدان المالك. ولا يقدر على منح حزن رفيع سامٍ.

إذ استلهام الشعور من طبيعة صماء، وقوة عمياء يملؤه بالآلام والهموم حتى يغدو العالم مليئاً بالأحزان، ويلقي الإنسان وسط أجانب وغرباء دون أن يكون

له حامٍ ولا مالك! فيظل في مأتمه الدائم..

وهكذا تنطفئ أمامه الآمال.

فهذا الشعور المليء بالأحزان والآلام يهيمن على كيان الإنسان، فيسوقه إلى الضلال، وإلى الإلحاد، وإلى إنكار الخالق.. حتى يصعب عليه العودة إلى الصواب، بل قد لا يعود أصلاً.

أما أدب القرآن الكريم:

فانه يمنح حزناً سامياً علوياً، ذلك هو حزن العاشق، لا حزن اليتيم.. هذا الحزن نابع من فراق الأحباب، لا من فقدانهم.

ينظر إلى الكائنات؛ على أنها صنعة إلهية، رحيمة، بصيرة بدلاً من طبيعة عمياء. بل لا يذكرها أصلاً، وإنما يبين القدرة الإلهية الحكيمة، ذات العناية الشاملة، بدلاً من قوة عمياء.

فلا تلبس الكائنات صورة مأتم موحش، بل تتحول – أمام ناظريه – إلى جماعة متحابّة، إذ في كل زاوية تجاوب. وفي كل جانب تحابب. وفي كل ناحية تآنس.. لا كدر ولا ضيق.

هذا هو شأن الحزن العاشقي.

وسط هذا المجلس يستلهم الإنسان شعوراً سامياً، لا حزناً يضيق منه الصدر.

الأدبان.. كلاهما يعطيان شوقاً وفرحاً.

فالشوق الذي يعطيه ذلك الأدب الأجنبي؛ شوق يهيج النفس، ويبسط الهوس.. دون أن يمنح الروح شيئاً من الفرح والسرور.

بينما الشوق الذي يهبه القرآن الكريم؛ شوق تهتز له جنبات الروح، فتعرج به إلى المعالي.

وبناءً على هذا السر:

فقد نهت الشريعة الغراء عن اللهو، وما يُلهي.. فحرّمت بعض آلات اللهو، وأباحت أخرى.

بمعنى:

إن الآلة التي تؤثر تأثيراً حزيناً حزناً قرآنياً وشوقاً تنزيلياً، لا تضر. بينما إن أثرت في الإنسان تأثيراً يتيمياً وهيّجت شوقاً نفسانياً شهوياً. تحرم الآلة.

تتبدل حسب الأشخاص هذه الحالة..

والناس ليسوا سواء. **(الكلمات، اللوامع)**

إياك نعبد

سأذكر لكم ما جرى عليَّ من حالة نورانية خاصة ومن خيال ذي حقيقة، توضيحاً لمعنى كلمة ((...نعبد)) وتبياناً لجانب خفي من سرِّها:

تأملت ذات يوم في ((ن)) المتكلم مع الغير في: { اياك نعبد وإيّاك نستعين} وتحرّى قلبي وبحث عن سبب انتقال صيغة المتكلم الواحد الى صيغة الجمع (نعبد).. فبرزت فجأة فضيلة صلاة الجماعة وحكمتها من تلك ((النون))، اذ رأيت انه بسبب مشاركتي للجماعة في الصلاة التي أدَّيتها في جامع ((بايزيد)) يكون كل فرد منها بمثابة شفيع لي.

ورأيت ان كل فرد من أفراد تلك الجماعة شاهدٌ ومؤيدٌ لما أظهرته من أحكام وقضايا في قراءتي. فولّد ذلك عندي الشجاعة الكافية لكي أقدم عبادتي الناقصة، وأرفعها مضمومة مع العبادة الهائلة لتلك الجماعة الى الحضرة الإلهية المقدسة.

وبينما كنت أتأمل في هذا؛ اذا بستار آخر يُرفع، ورأيت أن جميع ((مساجد استانبول)) قد اتصلت وترابط بعضها ببعض؛ فأصبحت تلك المدينة كهذا الجامع، واستشعرت بشرف أدعيتهم جميعاً بل تصديقهم كذلك.

وهناك رأيت نفسي محشوراً في تلك الصفوف الدائرية على مسجد سطح الارض المتحلقة حلقات حول الكعبة المشرفة فحمدت الله كثيراً وقلت: ((الحمدلله رب العالمين)).. ان لي كل هذه الكثرة الكاثرة من الشفعاء، وممن يرددون معي، ويصدقونني في كل ما اقوله في الصلاة.

وقلت: ما دام الستار قد رفع هكذا خيالاً.. وأصبحت الكعبة المشرفة بحكم محراب لأهل الأرض، فلأغتنم اذن هذه الفرصة، ولأدع فيها خلاصة الايمان التي

اذكرها في التشهد وهي، ((أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً رسول الله)) وأسلمها أمانة عند الحجر الأسود. متخذاً الصفوف شهداء عليها.

وهنا انكشفت حالة اخرى، إذ رأيت:

ان الجماعة التي انضممت اليها قد أصبحت ثلاث جماعات ودوائر:

الأولى: هي الجماعة الكبرى المؤلفة من المؤمنين الموحدين على وجه الأرض قاطبة.

الثانية: هي جماعة الموجودات كافة حيث { كلٌ قد علم صلاته وتسبيحه} فرأيت نفسي مع صلاتها الكبرى وفي تسبيحاتها العظمى.. وأن ما يسمّى وظائف الاشياء واعمالها، إن هو إلاّ عناوين عباداتها وعبوديتها..

فطأطأت رأسي حائراً أمام هذه العظمة قائلاً: ((الله اكبر)) وتأملت في نفسي وفي الدائرة:

الثالثة: ورأيت عالماً يبدأ من ذرات وجودي، وينتهي الى حواسي الظاهرة؛ فهو عالم صغير وصغير.. إلاّ أنه عظيم جداً يدعو الى الحيرة والاعجاب. وهو عالم ظاهره متناهٍ في الصغر إلاّ أن حقيقته عظيمة، ووظائفه جليلة.

نعم، رأيت أن كل جماعة من جماعات هذا العالم منهمكة بوظائف عبوديتها وواجبات شكرها. ورأيت أن اللطيفة الربانية التي هي في تلك الدائرة في قلبي تردد: { ايّاك نعبد وإيّاك نستعين} باسم هذه الجماعة، مثلما ردّدها لساني بنية الجماعتين العظيمتين الأوليين.

والخلاصة: أن (نون) "نعبد" تشير الى هذه الجماعات الثلاث وتدل عليها.

وبينما أنا في هذه الحالة؛ إذا بالشخصية المعنوية المباركة لمبلّغ القرآن الكريم قد تمثلت أمامي بعظمته ووقاره.. وهو صلى الله عليه وسلم على منبره المعنوي (المدينة المنوّرة). وأسمع منه –كما سمع غيري – خطاباً إلهياً موجهاً..

{يا أيُّها الناس اعبدوا ربكم..} (البقرة: ٢١) فرأيت خيالاً أن كل مَن في تلك الجماعات الثلاث يتجاوب مثلي مع ذلك الخطاب الرباني العظيم قائلاً: {إيّاك نعبد} .

وهناك تمثلت حقيقة أخرى أمام الفكر، حسب قاعدة: ((إذا ثبت الشئ ثبت بلوازمه)) وهي:

ما دام رب العالمين قد اتخذ الانسان مخاطباً له، فيتكلم مع جميع الموجودات، وان هذا الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - قد قام بتبليغ ذلك الخطاب الرباني الجليل الى جميع البشر بل الى جميع ذوي الشعور، والى جميع ذوي الارواح، فلابد ان الماضي والمستقبل معاً قد اصبحا بحكم الزمن الحاضر، وغدت البشرية كافة مجلساً واحداً وجماعة واحدة في صفوف مختلفة متنوعة، حيث الخطاب موجه اليهم جميعاً.

هناك بدا لي أن كل آية من آيات القرآن الكريم في قمة البلاغة ومنتهى الجزالة، وفي غاية الاعجاز الذي يشع نوره الساطع، حيث أن الآية تكسب علوّها وسموّها وقوتها لصدورها: من ذلك المقام السامي الرفيع الذي لا نهاية لعظمته، ولا غاية لسعته ولا منتهى لسموه، من ذي الجلال والعظمة المطلقة، من المتكلم الازلي جل جلاله..

ومن مبلّغها الذي هو في مقام المحبوبية العظمى صاحب المنزلة الرفيعة والدرجة العالية. ومن توجهها الى المخاطبين الذين هم في منتهى الكثرة والأهمية والتباين.

لذا، تحقق عندي؛ انه ليس القرآن كله معجزة، بل كل سورة من سوره معجزة، وكل آية من آياته معجزة بل حتى كل كلمة فيه بحكم معجزة.

لذا قلت ((الحمدلله على نعمة الايمان والقرآن)).

وبهذا خرجت من ذلك الخيال الذي هو عين الحقيقة، كما دخلت فيه من (ن) نعبد، وفهمت أنه: ليست آيات القرآن ولا كلماتها معجزة وحدها، وانما كذلك حروف القرآن -كما في (ن) نعبد - هي مفاتيح نورانية لحقائق عظمى.

وبعدما خرج القلب والخيال من (ن) نعبد قابلهما العقل قائلاً:

- انني أطالب بحظي ونصيبي مما انتم فيه، فلا اتمكن من التحليق مثلكم، ولا استطيع السير الا باقدام الادلة والحجج.. اروني ما في (نعبد) و (نستعين) من الطريق الموصل الى (المعبود الحقيقي) و (المستعان الحقيقي) حتى أتمكن من مرافقتكم.

وعندها خطر للقلب أن:

- قل لذلك العقل الحائر أن يتأمل في جميع موجودات العالم سواءً منها الحي وغير الحي. فلكلٍ منها عبودية على شكل وظيفة من الوظائف على وفق نظام دقيق، وضمن اطاعة تامة.

ومع أن قسماً من تلك الموجودات دون شعور واحساس؛ فانه ينجز اعماله ووظائفه في غاية العبودية والنظام والشعور.

اذن لابدّ أن معبوداً حقيقياً وآمراً مطلقاً، يسخّر هذه الموجودات ويسوقها الى العبودية.

وقل له ليتأمل كذلك في جميع الموجودات ولاسيما الاحياء منها، فلكل منها حاجات كثيرة متنوعة، ولكلٍ منها مطاليب عدة ومختلفة لأدامة حياتها وبقاء نوعها. وبينما لا تصل أيديها الى أبسط تلك الحاجات والمطاليب، وليست هي في طوقها.. إذا بنا نشاهد أن تلك المطاليب التي لا تحد، تأتيها رغداً من كل مكان، بل تأتيها في أفضل وقت وأنسبه. فهذا الافتقار والحاجة غير المتناهيتين

للموجودات، وهذه الإعانات الغيبية والإمدادات الرحمانية تدل بداهة على أن لها رزاقاً يحميها.

وهو غني مطلق.. كريم مطلق.. قدير مطلق.. بحيث يستعين به كل شئ، وكل حيّ، طالباً منه العون والمدد.

أي أن كل شئ في الوجود يقول ضمناً ومعنىً:

{وإيّاك نستعين} وهناك استسلم العقل وقال: آمنا وصدّقنا.

(المكتوبات، المكتوب/٢٩، النكتة السادسة)

هيمنة القرآن الكريم

قال تعالى:

(واعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا) (آل عمران: ١٠٣)

(الم. ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين) (البقرة: ١،٢)

أرى ان مرد ماتبديه الامة الاسلامية من اهمال وعدم مبالاة نحو الاحكام الفقهية مايأتي:

ان اركان الدين واحكامه الضرورية نابعة من القرآن الكريم والسنة النبوية المفسرة له، وهي تشمل تسعين بالمائة من الدين، اما المسائل الخلافية التي تحتمل الاجتهاد فلا تتجاوز العشرة منه.

فالبون اذن شاسع بين اهمية الاحكام الضرورية والمسائل الخلافية.

فلو شبهنا المسائل الاجتهادية بالذهب لكانت الاحكام الضرورية واركان الايمان اعمدة من الالماس. تُرى هل يجوز ان تكون تسعون عمودا من الالماس تابعة لعشرة منها من الذهب؟ وهل يجوز ان يوجه الاهتمام الى التي من الذهب اكثر من تلك التي من الالماس؟.

ان الذي يسوق جمهور الناس الى الاتباع وامتثال الاوامر، هو مايتحلى به المصدر من قدسية، هذه القدسية هي التي تدفع جمهور الناس الى الانقياد اكثر من قوة البرهان ومتانة الحجة، فينبغي اذن ان تكون الكتب الفقهية بمثابة وسائل شفافة – كالزجاج – لعرض قدسية القرآن الكريم، وليس حجاباً دونه، او بديلاً عنه.

ان ذهن الانسان ينتقل من الملزوم الى اللازم وليس الى لازم اللازم – كما هو مقرر في علم المنطق – ولو انتقل فبقصد غير طبيعي. فالكتب الفقهية شبيهة بالملزوم، والقرآن الكريم هو الدال على تلك الاحكام الفقهية ومصدرها، فهو اللازم، والصفة الملازمة الذاتية للقرآن الكريم هي القدسية المحفزة للوجدان. فلأن نظر العامة ينحصر في الكتب الفقهية فحسب، فلا ينتقل ذهنهم الى القرآن الكريم الا خيالاً، ونادرا مايتصورون قدسيته – من خلال نظرهم المنحصر – ومن هنا يعتاد الوجدان التسيب، ويتعود على الاهمال فينشأ الجمود.

فلو كان قد بيّن القرآن الكريم ضمن بيان الضروريات الدينية مباشرة لكان الذهن ينتقل انتقالاً طبيعياً الى قدسيته، ولاثارت الشوق الى الاتباع، ولنبهت الوجدان الى الاقتداء، وعندها تنمو ملكة رهافة المشاعر لدى المخاطب بدلا من صممها امام حوافز الايمان وموقظاته.

فالكتب الفقهية اذن ينبغي ان تكون شفافة لعرض القرآن الكريم واظهاره، ولاتصبح حجابا دونه كما آلت اليه – بمرور الزمان – من جراء بعض المقلدين. وعندئذ تجدها تفسيراً بين يدي القرآن وليست مصنفات قائمة بذاتها.ان توجيه انظار عامة الناس في الحاجات الدينية توجيها مباشراً الى لقرآن الكريم، خطاب الله العزيز الساطع باعجازه والمحاط بهالة القدسية والذي يهز الوجدان بالايمان دائما.. إنما يكون بثلاث طرق:

١– اما ازالة ذلك الحجاب من امام القرآن الكريم بتوجيه النقد وتجريح الثقة باولئك المؤلفين للكتب الفقهية الذين يستحقون كل الاحترام والتوقير والثقة والاعتماد.. وهذا ظلم فاضح، وخطر جسيم، واجحاف بحق اولئك الائمة الاجلاء.

٢- او تحويل تلك الكتب الفقهية تدريجيا الى كتب يستشف منها فيض القرآن الكريم، اي تصبح تفسيرا له، ويمكن ان يتم هذا باتباع طرق تربوية منهجية خاصة حتى تبلغ تلك الكتب الى مايشبه كتب الائمة المجتهدين من السلف الصالح امثال "الموطأ" لمالك بن انس و"الفقه الاكبر" لابي حنيفة النعمان. فعندئذ لايُقرأ كتاب "ابن حجر" - مثلاً - بقصد مايقوله ابن حجر نفسه، بل يُقرأ لاجل فهم مايأمر به القرآن الكريم، وهذا الطريق بحاجة الى زمن مديد.

٣- او شد انظار جمهور الناس دوما الى مستوى اعلى من تلك الكتب - التي اصبحت حجابا - اي شدها باستمرار الى القرآن الكريم واظهاره فوقها دائما، مثلما يفعله ائمة الصوفية، وعندها تؤخذ الاحكام الشرعية والضروريات الدينية من منبعها الاساس وهو القرآن الكريم، اما الامور الاجتهادية التي ترد بالواسطة فيمكن مراجعتها من مظانها.

ولايخفى ان مايستشعره المرء من جاذبية في كلام الصوفي الحق ومن طلاوة في حديثه غير مايستشعره في وعظ عالم في الفقه، فالفرق في هذا نابع من ذلك السر.ثم انه من الامور المقررة، ان مايوليه عامة الناس من تقدير لشئ وتثمينهم له ليس نابعاً - على الاغلب - مما فيه من كمال، بل مما يشعرون نحوه من حاجة وبما يحسون تجاهه من رغبة، فالساعاتي الذي يأخذ اجرة اكثر من عالم جليل مثال يؤيد هذا.فلو وجهت حاجات المسلمين الدينية كافة شطر القرآن الكريم مباشرة، لنال ذلك الكتاب المبين من الرغبة والتوجه - الناشئة من الحاجة اليه - اضعاف اضعاف ماهو مشتت الآن من الرغبات نحو الالوف من الكتب، بل لكان القرآن الكريم مهيمنا هيمنة واضحة على انفوس، ولكانت اوامره الجليلة مطبقة منفذة كليا. وما كان يظل كتابا مباركا يتبرك بتلاوته فحسب.

هذا وان هناك خطراً عظيماً في مزج الضروريات الدينية مع المسائل الجزئية الفرعية الخلافية، وجعلها كأنها تابعة لها، لان الذي يرى الآخرين على خطأ- ونفسه على صواب - يدعي:

ان مذهبي حق يحتمل فيه الخطأ والمذهب المخالف خطأ يحتمل فيه الصواب!

وحيث ان جمهور الناس يعجزون عن ان يميزوا تمييزاً واضحا بين الضروريات الدينية والامور النظرية الممتزجة معها، تراهم يعممون - سهواً او وهماً - الخطأ الذي يرونه في الامور الاجتهادية على الاحكام كلها، ومن هنا تتبين جسامة الخطر.

والذي اراه ان من يخطّئ الاخرين - ويرى نفسه في صواب دائما - مصاب بمرض ضيق الفكر وانحصار الذهن الناشئين من حب النفس. ولاشك انه مسؤول امام رب العالمين عن تغافله عن شمول خطاب القرآن الى البشرية كافة.

ثم ان فكر التخطئة هذا، منبع ثر لسوء الظن بالاخرين، والانحياز، والتحزب في الوقت الذي يطالبنا الاسلام بحسن الظن والمحبة والوحدة! ويكفيه بعدا عن روح الاسلام ما شق من جروح غائرة في ارواح المسلمين المتساندة، ومابثه من فرقة بين صفوفهم، فابعدهم عن اوامر القرآن الكريم.

بعد ان كتبت هذه المسألة بفترة قصيرة، تشرفت برؤيا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في المنام. كنت في حظوة مجلسه الجليل في مدرسة دينية، سيعلمني من القرآن درسا. فعندما اتوا بالمصحف الشريف قام الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم احتراماً للقرآن، فخطر لي آنئذ ان هذا ارشاد للامة لتوقير القرآن الكريم واجلاله. ثم حكيت الرؤيا لاحد الصالحين فعبّره هكذا: ان هذه اشارة واضحة وبشرى عظيمة الى ان القرآن الكريم سيحوز مايليق به من مقام رفيع في العالم اجمع.

(صيقل الإسلام/السانحات - ص: ٣٤٨)

الوظيفة الاساسية للقرآن الكريم

اذا قلت: لما كان القرآن الكريم قد نزل لأجل الانسان، فَلِمَ لا يصرّح بما هو المهم في نظره من خوارق المدنية الحاضرة؟ وانما يكتفي برمز مستتر، وايماء خفي، واشارة خفيفة، وتنبيه ضعيف فحسب؟

فالجواب: ان خوارق المدنية البشرية لا تستحق أكثر من هذا القدر، اذ إن الوظيفة الاساسية للقرآن الكريم هي تعليم شؤون دائرة الربوبية وكمالاتها ووظائف دائرة العبودية وأحوالها.

لذا فان حق تلك الخوارق البشرية وحصتها من تلك الدائرتين مجرد رمز ضعيف واشارة خفية ليس إلاّ.. فانها لو ادّعت حقوقها من دائرة الربوبية، فعندها لا تحصل إلاّ على حق ضئيل جداً.

فمثلاً: اذا طالبت الطائرة البشرية(١) القرآن الكريم قائلة:

((أعطني حقاً للكلام، وموقعاً بين آياتك)). فان طائرات دائرة الربوبية تلك الكواكب السيّارة والارض والقمر، ستقول بلسان القرآن الكريم:

– ((انكِ تستطيعين أن تأخذي مكانكِ هنا بمقدار جرمك لا أكثر)).

واذا أرادت الغواصة البشرية موقعاً لنفسها بين الآيات الكريمة فستتصدى لها غواصات تلك الدائرة؛ التي هي الارض السابحة في محيط الهواء، والنجوم العائمة في بحر الأثير قائلة:

– ((ان مكانك بيننا ضئيل جداً يكاد لا يُرى!)).

واذا ارادت الكهرباء ان تدخل حرم الآيات بمصابيحها اللامعة أمثال النجوم، فان مصابيح تلك الدائرة التي هي الشموس والشهب والانجم المزيّنة لوجه السماء، سترد عليها قائلة:

-((انك تستطيعين أن تدخلي معنا في مباحث القرآن وبيانه بمقدار ما تمتلكين من ضوء!!)).

ولو طالبت الخوارق الحضارية - بلسان صناعاتها الدقيقة - حقوقها وارادت لها مقاماً بين الآيات.. عندها ستصرخ ذبابة واحدة بوجهها قائلة:

- اسكتوا.. فليس لكم حق. ولو بمقدار أحد جناحيّ هذين! ولئن اجتمع كل ما فيكم من المصنوعات والأختراعات - التي اكتشف إكتساباً بارادة الانسان الجزئية - مع جميع الآلات الدقيقة لديكم، لن تكون أعجب بمقدار ما في جسمي الصغير جداً من لطائف الاجهزة ودقائق الصنعة. وان هذه الآية الكريمة تبهتكم جميعاً:

{إنَّ الذينَ تَدعون مِن دونِ الله لن يَخلُقوا ذباباً ولو اجتَمعوا له، وإن يسلُبْهم الذبابُ شيئاً لا يستنقذوهُ منه، ضعُفَ الطالبُ والمطلوبُ} (الحج:٧٣)

واذا ذهبت تلك الخوارق الى دائرة العبودية وطلبت منها حقها فستتلقى منها مثل هذا الجواب:

-ان علاقتكم معنا واهية وقليلة جداً، فلا يمكنكم الدخول إلى دائرتنا بسهولة، لأن منهجنا هو:

ان الدنيا دار ضيافة، وان الانسان ضيف يلبث فيها قليلاً، وله وظائف جمة، وهو مكلف بتحضير وتجهيز ما يحتاجه لحياته الأبدية الخالدة في هذا العمر القصير، لذلك يجب عليه ان يقدّم ما هو الأهم والألزم.

إلاّ أنه تبدو عليكم - على اعتبار الأغلبية - ملامح نسجت بحب هذه الدنيا الفانية تحت أستار الغفلة واللهو وكأنها دار للبقاء ومستقر للخلود. لذا فان حظكم من دائرة العبودية المؤسّسة على هدى الحق والتفكر في آثار الآخرة، قليل جداً.

ولكن.. ان كان فيكم - أو من ورائكم - من الصناع المهرة والمخترعين الملهمين - وهم قلة - وكانوا يقومون بأعمالهم مخلصين لأجل منافع عباد الله - وهي عبادة ثمينة - ويبذلون جهدهم للمصلحة العامة وراحتهم لرقي الحياة الاجتماعية وكمالها، فان هذه الرموز والارشادات القرآنية كافية بلا ريب لأولئك الذوات المرهفي الاحساس، ووافية لتقدير مهاراتهم وتشويقهم الى السعي والاجتهاد.

واذا قلت: لم تبق لديّ الآن بعد هذا التحقيق شبهة، فقد ثبت عندي بيقين وصدّقت؛ أن القرآن الكريم فيه جميع ما يلزم السعادة الدنيوية والأخروية كل حسب قيمته وأهميته، فهناك رموز واشارات الى خوارق المدنية الحاضرة بل الى أبعد منها من الحقائق الأخرى مع ما فيه من حقائق جليلة ولكن لِمَ لم يذكر القرآن الكريم تلك الخوراق بصراحة تامة كي تجبر الكفرة العنيدين على التصديق والايمان وتطمئن قلوبنا فتستريح؟.

الجواب:

ان الدين امتحان، وان التكاليف الإلهية تجربة واختبار من أجل أن تتسابق الارواح العالية والارواح السافلة، ويتميز بعضها عن بعض في حلبة السباق.

فمثلما يختبر المعدن بالنار ليتميز الالماس من الفحم والذهب من التراب؛ كذلك التكاليف الإلهية في دار الامتحان هذه. فهي ابتلاء وتجربة وسَوق للمسابقة حتى تتميز الجواهر النفيسة لمعدن قابليات البشر واستعداداته من المعادن الخسيسة.

فما دام القرآن قد نزل - في دار الابتلاء هذه - بصورة اختبار للانسان ليتم تكامله في ميدان المسابقة، فلابد انه سيشير - اشارة فحسب - الى هذه الأمور الدنيوية الغيبية التي ستتوضح في المستقبل للجميع، فاتحاً للعقل باباً بمقدار اقامة

حجته. وإلاّ فلو ذكرها القرآن الكريم صراحة، لاختلتْ حكمة التكليف اذ تصبح بديهية مثل كتابة (لا إله إلاّ الله) واضحاً بالنجوم على وجه السماء، والذي يجعل الناس – أرادوا أم لم يريدوا – عندئذ مرغمين على التصديق، فما كانت ثمة مسابقة ولا اختبار ولا تمييز فحينئذٍ تتساوى الارواح السافلة التي هي كالفحم مع التي هي كالالماس.

(الكلمات ، الكلمة/٢٠، المقام الثاني)

من بستان الآخرة

***درس للعبرة**

***النشأة الاخرى**

***عبودية محمد** صلى الله عليه وسلم **دليل على الآخرة**

***باب الى حقيقة الحشر**

***أمثلة مشهودة عن الحشر**

من ثمرات الايمان بالآخرة

***أعظم قضية للبشرية**

درس للعبرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (آل عمران: ١٨٥)

(درس للعبرة وصفعة قوية على رأس الغفلة)

يا نفسي!.. أيتها السادرة في الغفلة!

يا مَنْ تَرينَ هذه الحياة حلوة لذيذة فتطلبين الدنيا وتنسين الآخرة.. هل تدرينَ بمَ تشبهينَ؟ إنّك لتشبهين النعامة.. تلك التي ترى الصياد فلا تستطيع الطيران، بل تُقحم رأسها في الرمال تاركةً جسَمها الضَّخمَ في الخارج ظَناً منها أَنّ الصياد لا يراها.إلا أن الصياد يرى، ولكنها هي وحدها التي أطبقتْ جفنيها تحت الرمال فلم تَعُدْ ترى!

فيا نفسي!

أُنظري إلى هذا المثال وتأَملّي فيه، كيف إنَّ حصر النظر كلّه في الدنيا يُحوّل اللذة الحلوة إلى ألم مرير!.

هَبْ أَنّه في هذه القرية (بارلا) رجلان اثنان: أَحدهما قد رَحَلَ تسعةُ وتسعون بالمائة من أَحبّته إلى استانبول وهم يعيشون هناك عِيشة طيبة جميلة، ولم يبقَ منهم هنا سوى شخص واحد فقط وهو أيضاً في طريقه إلى الإلتحاق بهم، لذا فان هذا الرجل مشتاق إلى استانبول أشدَّ الاشتياق بل يفكر بها، ويرغب في أَنْ يلتقي الأحبابَ دائماً. فلو قيل له في أي وقت من الأوقات: «هيًّا اذهبْ إلى

هناك» فإنّه سيذهبُ فرحاً باسماً..

أما الرجل الثاني فقد رَحَلَ من أحبته تسعةٌ وتسعون بالمائة، ويظن أن بعضهم فَنِيَ، ومنهم مَن انزوى في أماكن لا تُرى. فَهَلَكُوا وتفرَّقوا حَسْبَ ظنه. فهذا الرجل المسكين ذو داء عُضال يبحث عن أنيس وعن سُلوان حتى عند سائح واحد، بدلاً من أولئك جميعاً، ويريد أن يغطّي به على ألم الفراق الشديد.

فيا نفسي!

إنّ أحبَّتك كلَّهم، وعلى رأسهم وفي مقدمتهم حبيبُ الله (صلى الله عليه وسلم)، هم الآن في الطرف الآخر من القبر. فلم يبق هنا إلاّ واحد أو إثنان وهم أيضاً متأهبون للرّحيل.

فلا تُديرنّ رأسك جَفْلَةً من الموت، خائفة من القبر، بل حَدِّقي في القبر وانظري إلى حفرته بشهامة واستمعي إلى ما يطلب. وابتسمي بوجه الموت برجولة، وانظري ماذا يريد؟ وإياكِ أن تغفلي فتكوني أَشْبَه بالرجل الثاني!.

يا نفسي!

لا تقولي أبداً بأن الزمان قد تغيّر، وأنَّ العصر قد تبدّل، وأنّ الناس قد انغمسوا في الدنيا وافتتنوا بحياتها، فهم سُكارى بهموم العيش.. ذلك لأنَّ الموت لا يتغير، وأنّ الفراق لا ينقلب إلى بقاء فلا يتغير أيضاً، وأنّ العجز الإنساني والفقر البشري هما أيضاً لا يتغيران بل يزدادان، وأنّ رحلة البشرية لا تنقطع، بل تَحُثُّ السير وتمضي. ثم لا تقولي كذلك: «أنا مثل كل الناس». ذلك لانّ ما من أحدٍ من الناس يصاحبك إلاّ إلى عتبة باب القبر .. لا غير.

ولو ذهبتِ تنشدين السُّلوان فيما يقال عن مشاركة الآخرين معك في المصيبة ومعيتهم لك، فانّ هذا أيضاً لا حقيقة له ولا أساس مطلقاً في الطرف الآخر من القبر!.

ولا تَظّني نفسَك سارحةً مفلوتَ الزمام، ذلك لأنّكِ إذا ما نظرت إلى دار ضيافة الدنيا هذهِ نَظر الحكمة والروية.. فلن تجدي شيئاً بلا نظام ولا غاية، فكيف تبقين إذن وحدَك بلا نظام ولا غاية؟! فحتى الحوادث الكونية والوقائع الشبيهة بالزلازل ليست ألعوبةً بيد الصدفة.

فمثلاً: في الوقت الذي تشاهدين فيه بأَنَّ الأرض قد أُلبست حُللاً مزركشة بعضُها فوق بعض مكتنفةً بعضُها البعض الآخر من أنواع النباتات والحيوانات في منتهى النظام وفي غاية النقش والجمال، وترينها مجهّزة كلَّها من قمة الرأس إلى أخمص القدم بالحكم، ومزينة بالغايات. وفي الوقت الذي تدور بما يشبه جذبةَ حبّ وشوق مولوية [١] بكمال الدقة والنظام ضمن غايات سامية.. ففي الوقت الذي تشهدين هذا، وتعلمين ذلك فكيف يسوغ إذن أَنْ تكون الزلزلة الشبيهة بهزّ عطف كرة الأرض [٢] مظهرةً بها عدمَ رضاها عن ثُقل الضِّيق المعنوي الناشئ من أعمال البشر، ولا سيما أهل الإيمان منهم، كيف يمكن أَنْ تكون تلك الحادثة المليئة بالموت، بلا قصد ولا غاية كما نشره ملحدٌ ظناً منه أنها مجردُ

---

[١] تشبيه لطيف بالمريد المولوي الذي يدور حول نفسه وحول حلقة الذكر بحلاوة الخشوع ونشوة الذكر. والمولوية طريقة صوفية منتشرة في تركيا. – المترجم.

[٢] كتب البحث بمناسبة الزلزال الذي حدث في أزمير. – المؤلف.

مصادفة، مرتكباً بذلك خطأ فاحشاً ومقترفاً ظلماً قبيحاً؟ إذ صيَّر جميعَ ما فقده المصابون من أموال وأرواح هباءً منثوراً قاذفاً بهم في يأس أليم. والحال أنَّ مثل هذه الحوادث تدّخر دائماً أموال أهل الإيمان، محولةً إياها بأمر الحكيم الرحيم، إلى صَدَقةٍ لهم. وهي كفّارةٌ لذنوب ناشئة من كفران النعم.

فلسوف يأتي ذلك اليوم الذي تجد الأرض المسخرة وجْهَهَا دميمةً قبيحة بما لَطَّخَ زينتَها شركُ أعمال البشر ولوّثها كفرانه، فتمسح عندئذٍ وجهها بزلزلة عظيمة بأمر الخالق، وتطهّره مفرغةً أهل الشرك بأمر الله في جهنم، وداعيةً أهل الشكر: «هيا تفضلوا إلى الجنة».(**الكلمات، الكلمة/١٤، الخاتمة**)

النشأة الأخرى

إنَّ إخبار القرآن نفسه عن الحشر الجسماني هو تنوير كافٍ وكشف بيّن له، فهو المفتاح للحكمة المودعة في الكائنات وللسر المغلق للعالم.

ولقد دعا هذا القرآن العظيم مراراً إلى التفكر ولفت الأنظار إلى آلاف من البراهين العقلية القطعية. فالآيات الكريمة مثلاً:

﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ (نوح:١٤)

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ...﴾(يس:٧٩) إنما هي نماذج للقياس التمثيلي. وأن﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾(فصلت:٤٦) نموذج آخر يشير إلى دليل العدالة في الكون، وآيات كثيرة أخرى قد وضحت فيها نظارات «مراصد» ذات عدسات مكبرة كثيرة كي تنظر بإمعان من خلالها إلى السعادة الأبدية في الحشر الجسماني. وقد أوضحنا في رسالة «النقطة» القياس التمثيلي الموجود في الآيتين الأوليين مع سائر الآيات الأخرى وخلاصته:

إنَّ الإنسان كلما انتقل من طور إلى طور مرّ بانقلابات منتظمة عجيبة، فمن النطفة إلى العلقة ومن العلقة إلى المضغة ومن المضغة إلى العظم ثم اللحم، ومن ثم إلى خلق جديد، أي أن انقلابه إلى صورة إنسان يتبع دساتير دقيقة، فكل طور منها له من القوانين الخاصة والأنظمة المعينة والحركات المطردة بحيث يشف عما تحته من أنوار القصد والإرادة والإختيار والحكمة.

وعلى الطريقة نفسها فإن الخالق الحكيم يُبدّل هذا الجسد سنوياً كتبديل

الثياب، فيكون هذا الجسد بحاجة إلى تركيب جديد كي يتبدّل ويبقى حيّاً، وبحاجة إلى إحلال ذرات فعّالة جديدة محل ما انحلّت من الأجزاء؛ لذا فكما أن الجسد تنهدم حجيراته بقانون إلهي منتظم، كذلك يحتاج إلى مادة لطيفة باسم «الرزق» كي يعمر من جديد بقانون إلهي ربّاني دقيق.. فالرزّاق الحقيقي يوزع ويقسم - بقانون خاص - لكل عضو من أعضاء الجسد المختلفة - وبنسبة معينة -ما يحتاجه من المواد المتباينة.

والآن انظر إلى أطوار تلك المادة اللطيفة المرسلة من قبل الرزاق الحكيم تَرَ: أن ذرّات تلك المادة هي كقافلة منتشرة في الغلاف الجوّي.. في الأرض.. في الماء.. فبينما هي مبعثرة هنا وهناك، إذا بها تُستنفر فتتجمع بكيفية خاصة، وكأن كل ذرة منها هي مسؤولة عن وظيفة أرسلت إلى مكان معيّن بواجب رسمي، فتجتمع مع بعضها في غاية الإنتظام، مما يوحي بأنها حركة مقصودة، فسلوكها هذا يبيّن:

إنَّ فاعلاً ذا إرادة يسوق تلك الذرات - بقانونه الخاص - من عالم الجمادات إلى عالم الأحياء، وهنا بعد أن دخلت جسماً معيناً - رزقاً له - تسير وفق نظم معينة وحركات مطردة وحسب دساتير خاصة، إذ بعد أن تنضج في أربعة مطابخ وتُمررّ بأربعة انقلابات عجيبة وتصفّى بأربعة مصاف، تُهيّأ للتوزيع إلى أقطار الجسم واعضائه المختلفة حسب الحاجات المتباينة لكل عضو، وتحت رعاية الرزاق الحقيقي وعنايته وبقوانينه المنتظمة، فإذا تأملت بعين الحكمة أية ذرّة من تلك الذرات فإنك سترى: أن الذي يسوق تلك الذرّة ويسيّرها إنما يسوقها بكل بصيرة، وبكل نظام، وبملء السمع والعلم المحيط.. فلا يمكن بحال من الأحوال أن

يتدخل فيه «الإتفاق الأعمى» و «الصدفة العشواء» و «الطبيعة الصمّاء» و«الأسباب غير الواعية»؛ لأن كل ذرة من الذرات عندما دخلت إلى أي طور من الأطوار ابتداءً من كونها عنصراً في المحيط الخارجي وانتهاءً إلى داخل الخلية الصغيرة من الجسم، كأنما تعمل بإرادة وباختيار حسب القوانين المعينة في كل طور من تلك الأطوار، إذ هي حينما تدخل فإنها تدخل بنظام، وعندما تسير في أية مرتبة من المراتب فإنها تسير بخطوات منتظمة إلى درجة تظهر جلياً كأن أمر سائقٍ حكيم يسوقها.

وهكذا وبكل انتظام، كلما سارت الذرة من طور إلى طور ومن مرتبة إلى أخرى لا تحيد عن الهدف المقصود حتى تصل إلى المقام المخصص لها بأمر ربّاني في قزحية عين «توفيق[1] مثلاً.. وهناك تقف لتنجز وظائفها الخاصة وتؤدي ما أنيط بها من أعمال، وهكذا فان تجلّى الربوبية في الأرزاق، يبين أن تلك الذرات - منذ البداية - كانت معينّة ومأمورة، وكانت مسؤولة عن وظيفة، وكانت مهيّأة مستعدة للوصول إلى تلك المراتب المخصصة لها، وكأن كل ذرة مكتوب على جبينها ما ستؤول إليها- أي أنها ستكون رزقاً للخلية الفلانية - مما يشير لنا هذا النظام الرائع إلى أن اسم كل إنسان مكتوب على رزقه، كما أن رزقه مكتوب على جبينه بقلم القدر.

فهل من الممكن أن الرب الرحيم ذا القدرة المطلقة والحكمة المحيطة ألاّ يُنشئ «النشأة الأخرى»؟ أو يعجز عنها؟ وهو الذي له مُلك السماوات والأرض وهنّ

---

[1] من تلاميذ الأستاذ النورسي الأوائل، وأحد كتّاب رسائل النور.(المترجم)

مطويات بيمينه من الذرات إلى المجرات ويديرها جميعاً ضمن نظام محكم وميزان دقيق... فسبحان الله عما يصفون.

لذلك فان كثيراً من آيات القرآن الكريم تُلفت نظر الإنسان إلى «النشأة الأولى» الحكيمة كمَثَل قياسي «للنشأة الأخرى» في الحشر والقيامة، وذلك كي تستبعد إنكارها من ذهن الإنسان فتقول:﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ...﴾(يس:٧٩) أي أن الذي أنشأكم - ولم تكونوا شيئاً يذكر - على هذه الصورة الحكيمة هو الذي يحييكم في الآخرة.

وتقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ...﴾ (الروم:٢٧) أي أن إعادتكم وأحياءكم في الآخرة هي أسهل من خلقكم في الدنيا، إذ كما أن الجنود إذا ما انتشروا وتفرّقوا للاستراحة، يمكن إرجاعهم إلى أماكنهم تحت راية الفرقة بنفخة من البوق العسكري، فجمعهم هكذا من الاستراحة في مكان معين أسهل بكثير من تكوين فرقة جديدة من الجنود، كذلك فان الذرات الأساس التي استأنست وارتبط بعضها بالبعض الآخر بامتزاجها في جسم معين عندما ينفخ إسرافيل عليه السّلام في صُورِهِ نفخة واحدة تهبّ قائلة: لبيّك لأمر الخالق العظيم، وتجتمع. فاجتماعها بعضها مع البعض الآخر مرة أخرى لا ريب أسهل وأهون - عقلاً - من إيجاد تلك الذرات أول مرّةً.

هذا وقد لا يكون ضرورياً اجتماع جميع الذرات، وإنما تكفي الذرات الأساس التي هي بمثابة البذور والنوى للأجسام.كما عبّر عنها الحديث الشريف«عجب

الذنب» [٢] التي هي - الأجزاء الأساس - والذرات الأصيلة الكافية وحدها أنْ تكون أساساً لإنشاء النشأة الآخرة عليها،فالخالق الحكيم يبني من جديد جسد الإنسان على ذلك الأساس.

وأما القياس العدلي الذي تشير إليه الآية الكريمة:

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾(فصلت:٤٦ فخلاصته:

إننا نرى كثيراً في عالمنا: إن الظالمين والفجّار يقضون حياتهم في رفاه وراحة تامة أما المظلومون والمتدينون فيقضونها في شظفٍ من العيش بكل مشقة وإرهاق.. ومن ثم يأتي الموت فيحصد الإثنين معاً دون تمييز، فلو لم تكن هناك نهاية مقصودة ومعينة لظهر الظلم إذن في المسألة؛ لذا فلابدّ من الإجتماع الأخروي بينهما حتى ينال الأول عقابه وينال الثاني ثوابه؛ إذ المنزّه عن الظلم سبحانه وتعالى وهو العادل الحكيم - بشهادة الكائنات قاطبةً – لا يمكن بحال من الأحوال أن تقبل عدالته وحكمته هذا الظلم ولا يمكن أن ترضيا به، فالنهاية المقصودة إذن حتميّة؛ لأن رؤية هذا الإنسان الكادح المنهوك جزاءه وثوابه - حسب استعداده - يجعله رمزاً للعدالة المحضة ومداراً لها، ومظهراً للحكمة الربّانية ومنسجماً مع الموجودات الحكيمة في الكون وأخاً كبيراً لها.

---

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «كل ابن آدم يأكله التراب إلاّ عجب الذنب، منه خلق ومنه يركّب» رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه. والعجب: اصل الذنب. – المترجم.

نعم، إنّ دار الدنيا القصيرة هذه لا تكفي - كما أنها ليست ظرفاً - لإظهار ما لا يحدّ من الاستعدادات المندمجة في روح الإنسان وإثمارها، فلابدّ أن يرسَل هذا الإنسان إلى عالم آخر.. نعم، إن جوهر الإنسان عظيم، لذا فهو رمز للأبدية ومرشح لها. وان ماهيته عالية وراقية؛ لذا أصبحت جنايته عظيمة؛ فلا يشبه الكائنات الأخرى، وان نظامه دقيق ورائع، فلن تكون نهايته دون نظام، ولن يُهمل ويذهب عبثاً، ولن يحكم عليه بالفناء المطلق ويهرب إلى العدم.

وإنما تفتح جهنم أفواهها فاغرة... تنتظره...

والجنة تبسط ذراعيها لاحتضانه.. (**الكلمات، الكلمة/٢٩، المقصد الثاني، المدار/١٠**)

عبودية محمد صلى الله عليه وسلم دليل على الآخرة

أمن الممكن لرب ذي رحمة واسعة وشفقة غير متناهية يبصر أخفى حاجة لأدنى مخلوق، ويسعفه من حيث لا يحتسب برأفة غير متناهية ورحمة سابغة، ويسمع أخفت صوت لأخفى مخلوق فيغيثه، ويجيب كل داعٍ بلسان الحال والمقال، أمن الممكن الا يقضى هذا الرب المجيب الرحيم أهم حاجة لأعظم عباده، وأحب خلقه اليه، ولا يسعفه بما يرجوه منه؟

فحُسن تربية صغار الحيوانات وضعافها، واعاشتها بسهولة ولطف ظاهريين تريااننا ان مالك هذه الكائنات يسيّرها بربوبية لا حدّ لرحمتها. فهل يعقل لهذه الربوبية المتصفة بكمال الشفقة والرأفة الاّ تستجيب لأجمل دعاء لأفضل مخلوق؟..

وكما بينتُ هذه الحقيقة في ((الكلمة التاسعة عشرة)) أعيد بيانها هنا:

فيا صديقي الذي يسمعني مع نفسي! لقد ذكرنا في الحكاية: ان هناك اجتماعاً في جزيرة، وان مبعوثاً كريماً يرتجل خطبة هناك، فحقيقة ما أشارت اليه الحكاية هي ما يأتي:

تعال! لنتجرد من قيود الزمان، ولنذهب بأفكارنا الى عصر النبوة، وبخيالنا الى تلك الجزيرة العربية كي نحظى بزيارته – صلى الله عليه وسلم – ، وهو يزاول وظيفته بكامل عبوديته. انظر! كيف انه سبب السعادة بما اتى به من رسالة وهداية، فانه – صلى الله عليه وسلم – هو الداعي لايجاد تلك السعادة وخلق الجنة بدعائه وبعبوديته.

انظر الى هذا النبي الكريم إلامَ يدعو.. انه يدعو الى السعادة الابدية في صلاة كبرى شاملة، وفي عبادة رفيعة مستغرقة، حتى أن الجزيرة العربية، بل الارض برمّتها، كأنها تصلي مع صلاته، وتبتهل الى الله بابتهاله الجميل، ذلك لأن عبوديته – صلى الله عليه وسلم – تتضمن عبودية جميع أمته الذين اتبعوه، كما تتضمن – بسر الموافقة في الاصول – سرّ العبودية لجميع الانبياء عليهم السلام. فهو يؤم صلاة كبرى – ايّما صلاة – ويتضرع بدعاء – ويا له من تضرع رقيق – في خلق عظيم، كأن الذين تنوروا بنور الايمان – من لدن آدم عليه السلام الى الآن والى يوم القيامة – اقتدوا به، وأمّنوا على دعائه(١).

انظر! كيف يدعو الله حاجة عامة كحاجة البقاء والخلود!. هذه الدعوة التي لا يشترك فيها معه أهل الارض وحدهم، بل أهل السموات ايضاً، لا بل الموجودات كافة. فتقول بلسان الحال: ((آمين اللهم آمين استجب يا ربنا دعاءه، فنحن نتوسل بك ونتضرع اليك مثله)).

ثم انظر! انه يسأل تلك السعادة والخلود بكل رقة وحزن، وبكل حب وود، وبكل شوق والحاح، وبكل تضرع ورجاء، يُحزن الكون جميعاً ويبكيه فيُسهمه في الدعاء.

ثم انظر وتأمل! انه يدعو طالباً السعادة لقصد عظيم، ولغاية سامية.. يطلبها لينقذ الانسان والمخلوقات جميعاً من التردي الى هاوية أسفل سافلين وهو الفناء المطلق والضياع والعبث، ويرفعه الى أعلى عليين وهو الرفعة والبقاء وتقلّد الواجبات وتسلّم المسؤوليات، ليكون أهلاً لها ويرقى الى مرتبة مكاتيب صمدانية.

انظر! كيف انه يطلب الاستعانة مستغيثاً ببكاء، متضرعاً راجياً من الاعماق، متوسلاً بإلحاح.. حتى كأنه يُسمع الموجودات جميعاً، بل السموات، بل العرش، فيهزّهم وجداً وشوقاً الى دعائه ويجعلهم يرددون: آمين اللّهم آمين.

وانظر! انه يسأل السعادة والبقاء الابدي، ويرجوهما من قدير سميع كريم، ومن عليم بصير رحيم يرى ويسمع أخفى حاجة لأضعف مخلوق فيتداركه برحمته، ويستجيب له، حتى إن كان دعاءً بلسان الحال.

نعم، انه يستجيب له ببصيرة ورحمة ويغيثه بحكمة، مما ينقي أية شبهةٌ بأن تلك الرعاية الفائقة ليست الاّ من لدن سميع بصير، وان ذلك التدبير الدقيق ليس اِلاّ من عند كريم رحيم.

نعم، ان الذي يقود جميع بنى آدم على هذه الارض متوجهاً الى العرش الاعظم، رافعاً يديه، داعياً بدعاء شامل لحقيقة العبودية الأحمدية التي هي خلاصة عبودية البشرية.. تُرى ماذا يريد؟ ماذا يريد شرف الانسانية، وفخر الكائنات، وفريد الازمان والاكوان؟!. لننصت اليه.. انه يسأل السعادة الابدية لنفسه ولأمته، انه يسأل الخلود في دار البقاء، انه يسأل الجنة ونعيمها.. نعم، يسألها ويرجوها مع تلك الاسماء الإلهية المتجلية بجمالها في مرآة الموجودات.. انه يستشفع تلك الاسماء الحسنى كما ترى.

أرأيت ان لم يكن شئ من اسباب موجبة لا تعد ولا تحصى للآخرة ولا شئ من دلائل وجودها، أليس دعاء واحد من هذا النبي الكريم – صلى الله عليه وسلم – سبباً كافياً لايجاد الجنة التي هي سهلة على قدرة خالقنا الرحيم، كسهولة اعادة الحياة الى الارض في ايام الربيع؟.

نعم، ان الذي جعل سطح الارض في الربيع مثالاً للحشر، فاوجد فيه مائة نموذج من نماذجه بقدرته المطلقة، كيف يصعب عليه ايجاد الجنة؟.. اذن فكما كانت رسالته – صلى الله عليه وسلم – سبباً لايجاد دار الامتحان هذه، وصارت بياناً وايضاحاً لسر :((لَوْلاَكَ لَوْلاَكَ لَمَا خَلَقْتُ الافْلاَكَ)) فان عبوديته كذلك اصبحت سبباً لخلق تلك الدار السعيدة الابدية.

فهل من الممكن يا ترى لانتظام العالم البديع الذي حيّر العقول والصنعة المتقنة وجمال الربوبية الشاملة في اطار رحمته الواسعة، ان يقبل قبحاً فظيعاً وظلماً شنيعاً وفوضى ضاربة اطنابها، بعدم استجابة ذلك الدعاء أي أن لا يراعي ولا يسمع ولا ينجز اكثر الرغبات اهمية، واشدها ضرورة في حين انه يراعي باهتمام بالغ ابسط الرغبات وأصغرها، ويسمع أخفت الاصوات وادقها ويقضي لكل ذي حاجة حاجته! كلا ثم كلا الف ألف مرة، ان مثل هذا الجمال يأبى التشوه ولن يكون قبيحاً.

فالرسول – صلى الله عليه وسلم – اذن يفتح بعبوديته باب الآخرة مثلما فتح برسالته باب الدنيا.

عليه صلوات الرحمن ملء الدنيا ودار الجنان.

اللّهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك، ذلك الحبيب الذي هو سيد الكونين، وفخر العالمين، وحياة الدارين، ووسيلة السعادتين، وذو الجناحين، ورسول الثقلين وعلى آله وصحبه اجمعين، وعلى اخوانه من النبيين والمرسلين. آمين. (**الكلمات، الكلمة العاشرة، الحقيقة الخامسة**)

باب الى حقيقة الحشر

أمن الممكن للذي اظهر قدرتَه بإحياء الأرض الضخمة بعد موتها وجفافها، وبعث اكثر من ثلاثمائة ألف نوع من انوع المخلوقات، مع ان بعث كل نوع عجيب كأعجوبة بعث البشر.. والذي اظهر احاطةَ علمه ضمن ذلك الإحياء بتمييزه كل كائن من بين ذلك الامتزاج والتشابك.. والذي وجّه انظار جميع عباده الى السعادة الأبدية بوعدهم الحشر في جميع أوامره السماوية.. والذي اظهر عظمة ربوبيته بجعله الموجودات متكاتفة مترافقة، فادارها ضمن أمره وارادته، مسخراً أفرادها، معاوناً بعضها بعضاً.. والذي أولى البشر الاهمية القصوى، بجعله أجمع ثمرة في شجرة الكائنات، وألطفها وأشدها رقةً ودلالاً، واكثرها مستجاباً للدعاء، مسخراً له كل شئ، متخذاً إياه مخاطباً.. أفمن الممكن لمثل هذا القدير الرحيم ولمثل هذا العليم الحكيم الذي أعطى هذه الأهمية للانسان ان لا يأتي بالقيامة؟ ولا يحدث الحشر ولا يبعث البشر، أو يعجز عنه؟ وان يعجز عن فتح أبواب المحكمة الكبرى وخلق الجنة والنار؟!. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

نعم، ان الرب المتصرف في هذا العالم جلّ جلاله يُحدث في هذه الأرض المؤقتة الضيقة في كل عصر وفي كل سنة وفي كل يوم نماذج وأمثلة كثيرة واشارات عديدة للحشر الاكبر. فعلى سبيل المثال:

انه يحشر في بضعة ايام في حشر الربيع ويبعث اكثر من ثلاثمائة ألف نوع من أنواع النباتات والحيوانات من صغير وكبير، فيحيي جذور الاشجار والاعشاب، ويعيد بعض الحيوانات بعينها كما يعيد أمثال بعضها الآخر. ومع أن الفروق المادية بين البُذيرات المتناهية في الصغر جزئية جداً، اِلا أنها تُبعث وتُحيا بكل تميّز، وتشخّص في منتهى السرعة في ستة ايام، أو ستة أسابيع، وفي منتهى السهولة

والوفرة، وبانتظام كامل وميزان دقيق، رغم اختلاطها وامتزاجها. فهل يصعب على من يقوم بمثل هذه الاعمال شئ، أو يعجز عن خلق السموات والارض في ستة أيام، أولا يستطيع ان يحشر الانسان بصيحة واحدة؟.. سبحان الله عما يصفون.

فيا ترى ان كان ثمة كاتبٌ ذو خوارق يكتب ثلاثمائة ألف كتاب مُسحت حروفُها ومُسخت، في صحيفة واحدة دون اختلاط ولا سهو ولا نقص، وفي غاية الجمال، ويكتبها جميعاً معاً خلال ساعة واحدة. وقيل لك: ان هذا الكاتب سيكتب من حفظه في دقيقة واحدة كتابك الذي وقع في الماء وهو من تأليفه. فهل يمكنك أن ترد عليه وتقول: لا يستطيع. لا أصدق؟!.. أو أن سلطاناً ذا معجزات يرفع الجبال وينسفها ويغير المدن بكاملها ويحول البحر براً، باشارة منه، اظهاراً لقدرته وجعلها آية للناس.. فبينما ترى منه هذه الاعمال اذا بصخرة عظيمة قد تدحرجت الى وادٍ وسدّت الطريق على ضيوفه، وقيل لك: ان هذا السلطان سيميط حتماً تلك الصخرة من على الطريق ويحطمها مهما كانت كبيرة، حيث لا يمكن ان يدع ضيوفه في الطريق.. كم يكون جوابك هذياناً أو جنوناً اذا ما أجبته بقولك: لا، لا يستطيع أن يفعل؟!!.. أو أن قائداً يمكنه أن يجمع من جديد افراد جيشه الذي شكله بنفسه في يوم واحد. وقيل لك: ان هذا سيجمع افراد تلك الفرق وسينضوي تحت لوائه أولئك الذين سرّحوا وتفرّقوا، بنفخة من بوق، فأجبته: لا، لا اصدق!. عندها تفهم أن جوابك هذا ينبئ عن تصرف جنوني، أيّ جنون!!

فاذا فهمت هذه الأمثلة الثلاثة فتأمل في ذلكم البارئ المصور سبحانه وتعالى الذي يكتب امام انظارنا باحسن صورة واتمها بقلم القدرة والقدر اكثر من ثلاثمائة الف نوع من الانواع على صحيفة الارض، مبدلاً صحيفة الشتاء البيضاء

الى الاوراق المتفتحة للربيع والصيف، يكتبها متداخلة دون اختلاط، يكتبها معاً دون مزاحمة ولا التباس، رغم تباين بعضها مع البعض الآخر في التركيب والشكل. فلا يكتب خطأ مطلقاً. أفيمكن ان يُسال الحفيظ الحكيم الذي أدرج خطة روح الشجرة الضخمة ومنهاجها في بذرة متناهية في الصغر محافظاً عليها، كيف سيحافظ على ارواح الاموات؟. أم هل يمكن أن يُسأل القدير ذو الجلال الذي يُجري الارض في دورتها بسرعة فائقة، كيف سيزيلها من على طريق الآخرة، وكيف سيدمّرها؟ أم هل يمكن أن يُسأل ذو الجلال والاكرام الذي أوجد الذرات من العدم ونسّقها بأمر ((كُنْ فَيَكُونُ)) في أجساد جنود الاحياء ، فأنشأ منها الجيوش الهائلة، كيف سيجمع بصيحة واحدة تلك الذرات الاساسية التي تعارفت فيما بينها، وتلك الاجزاء الاساسية التي انضوت تحت لواء فرقة الجسد ونظامه؟

فها أنت ذا ترى بعينيك كم من نماذج وأمثلة وامارات للحشر شبيهة بحشر الربيع، قد أبدعها الباري سبحانه وتعالى في كل موسم، وفي كل عصر، حتى ان تبديل اللّيل والنّهار، وانشاء السحاب الثقال وافناءها من الجو، نماذج للحشر وأمثلة وامارات عليه.

واذا تصورت نفسك قبل ألف سنة مثلاً، وقابلت بين جناحي الزمان الماضي والمستقبل، ترى أمثلة الحشر والقيامة ونماذجها بعدد العصور والايام.

فلو ذهبت الى استبعاد الحشر الجسماني وبعث الاجساد متوهماً انه بعيد عن العقل ، بعد ما شاهدت هذا العدد الهائل من الأمثلة والنماذج، فستعلم انت كذلك مدى حماقة من ينكر الحشر.

تأمل ماذا يقول الدستور الاعظم حول هذه الحقيقة:

{فَانْظُرْ اِلى آثَارِ رَحْمَتِ الله كَيْفَ يُحْيِي الاَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا اِنَّ ذلِكَ لَمُحيي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ}(الروم: ٥٠)

الخلاصة: لا شئ يحول دون حدوث الحشر، بل كل شئ يقتضيه ويستدعيه. نعم! ان الذي يحيي هذه الارض الهائلة وهي معرض العجائب ويميتها كأدنى حيوان، والذي جعلها مهداً مريحاً وسفينة جميلة للانسان والحيوان، وجعل الشمس ضياءً وموقداً لهذا المضيف، وجعل الكواكب السيّارة والنجوم اللامعة مساكن طائرات للملائكة.. ان ربوبية خالدة جليلة الى هذا الحدّ، وحاكمية محيطة عظيمة الى هذه الدرجة، لا تستقران ولا تنحصران في أمور الدنيا الفانية الزائلة الواهية السيالة التافهة المتغيرة. فلابد أن هناك داراً اخرى باقية، دائمة، جليلة، عظيمة، مستقرة، تليق به سبحانه فهو يسوقنا الى السعي الدائب لأجل تلك الممالك والديار ويدعونا اليه وينقلنا الى هناك. يشهد على هذا اصحاب الأرواح النيرة، وأقطاب القلوب المنورة، وأرباب العقول النورانية، الذين نفذوا من الظاهر الى الحقيقة، والذين نالوا شرف التقرب اليه سبحانه. فهم يبلغوننا متفقين انه سبحانه قد أعد ثواباً وجزاءاً، وأنه يَعِد وعداً قاطعاً، ويوعد وعيداً جازماً..

فاخلاف الوعد لا يمكن أن يدنو الى جلاله المقدّس، لأنه ذلّة وتذلل. وأما اخلاف الوعيد فهو ناشئ من العفو أو العجز. والحال أن الكفر جناية مطلقة(١) لا يستحق العفو والمغفرة. اما القدير المطلق فهو قدوس منزّه عن العجز، وأما المخبرون والشهود فهم متفقون اتفاقاً كاملاً على اساس هذه المسألة رغم اختلاف مسالكهم ومناهجهم ومشاربهم. فهم من حيث الكثرة بلغوا درجة التواتر، ومن حيث النوعية بلغوا قوة الاجماع، ومن حيث المنزلة فهم نجوم البشرية وهداتها وأعزة القوم وقرة عيون الطوائف. ومن حيث الأهمية فهم في هذه المسألة ((أهل اختصاص وأهل اثبات)). ومن المعلوم ان حكم اثنين من أهل الاختصاص في علم أو صنعة يرجّح على آلاف من غيرهم، وفي الاخبار والرواية يرجح قول اثنين من المثبتين على آلاف من النافين المنكرين، كما في اثبات رؤية

هلال رمضان، حيث يرجّح شاهدان مثبتان، بينما يضرب بكلام آلاف من النافين عرض الحائط.

والخلاصة: لا خبر اصدق من هذا في العالم، ولا قضية أصوب منها، ولا حقيقة اظهر منها ولا اوضح.

فالدنيا اذن مزرعة بلا شك، والمحشر بيدر، والجنة والنار مخزنان.

(الكلمات، الكلمة العاشرة،الحقيقة التاسعة من رسالة الحشر)

أمثلة مشهودة عن الحشر

سؤال يرد بمناسبة مبحث الحشر:

ان ما ورد في القرآن الكريم مراراً { اِنْ كَانَتْ اِلاّ صَيْحَةً وَاحِدَةً }(يس:٢٩)، { وَمَآ اَمْرُ السَّاعَةِ اِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ } (النحل:٧٧) يبين لنا ان الحشر الاعظم سيظهر فجأة الى الوجود، في آن واحد بلا زمان. ولكن العقول الضيقة تطلب امثلة واقعية مشهودة كي تقبل وتذعن لهذا الحدث الخارق جداً والمسألة التي لا مثيل لها.

الجواب: ان في الحشر ثلاث مسائل هي: عودةُ الارواح الى الاجساد، وإحياءُ الاجساد، وانشاء الاجساد وبناؤها.

المسألة الأولى: وهي مجئ الارواح وعودتها الى اجسادها ومثاله هو:

اجتماع الجنود المنتشرين في فترة الاستراحة والمتفرقين في شتى الجهات على الصوت المدوي للبوق العسكري.

نعم، ان الصور الذي هو بوق اسرافيل عليه السلام، ليس قاصراً عن البوق العسكري كما أن طاعة الارواح التي هي في جهة الأبد وعالم الذرات والتي أجابت بـ{ قَالُوا:بَلى} (الاعراف:١٧٢) عندما سمعت نداء] اَلَسْتُ بِرَبِكُم[(الاعراف: ١٧٢) المقبل من اعماق الازل ونظامها يفوق بلاشك أضعاف اضعاف ما عند أفراد الجيش المنظم. وقد اثبتت((الكلمة الثلاثون)) ببراهين دامغة ان الارواح ليست وحدها جيش سبحاني بل جميع الذرات ايضاً جنوده المتأهبون للنفير العام.

المسألة الثانية: وهي إحياء الاجساد. ومثالُه هو:

مثلما يمكن اِنارة مئات الآلاف من المصابيح الكهربائية ليلة مهرجان مدينة عظيمة، من مركز واحد في لحظة واحدة، كأنها بلا زمان. كذلك يمكن انارة مئات الملايين من مصابيح الأحياء وبعثها على سطح الارض من مركز واحد. فما دامت الكهرباء وهي مخلوقة من مخلوقات الله سبحانه وتعالى وخادمة إضاءة في دار ضيافته، لها هذه الخصائص والقدرة على القيام بأعمالها حسب ما تتلقاه من تعليمات وتبليغات ونظام من خالقها، فلابد ان الحشر الاعظم سيحدث كلمح البصر ضمن القوانين المنظمة الإلهية التي يمثلها آلاف الخدم المنوّرِين كالكهرباء.

المسألة الثالثة: وهي انشاء الاجساد فوراً ومثاله هو:

انشاء جميع الاشجار والاوراق التي يزيد عددها ألف مرة على مجموع البشرية، دفعة واحدة في غضون بضعة ايام في الربيع، وبشكل كامل، وبالهيئة نفسها التي كانت عليها في الربيع السابق.. وكذلك ايجاد جميع أزهار الاشجار وثمارها واوراقها بسرعة خاطفة، كما كانت في الربيع الماضي.. وكذلك تنبّه البُذيرات والنوى والبذور وهي لا تحصى ولا تعد والتي هي منشأ ذلك الربيع في آن واحد معاً وانكشافها واحياؤها.. وكذلك نشور الجثث المنتصبة والهياكل العظمية للاشجار، وامتثالها فوراً لأمر ((البعث بعد الموت)) .. وكذلك احياء افراد انواع الحيوانات الدقيقة وطوائفها التي لا حصر لها بمنتهى الدقة والاتقان.. وكذلك حشر أمم الحشرات ولا سيما الذباب (الماثل امام اعيننا والذي يذكرنا بالوضوء والنظافة لقيامه بتنظيف يديه وعيونه وجناحيه باستمرار وملاطفته وجوهنا) الذي يفوق عدد ما ينشر منه في سنة واحدة عدد بنى آدم جميعهم من لدن آدم عليه السلام.. فحشر هذه الحشرة في كل ربيع مع سائر الحشرات الاخرى واحياؤها في بضعة ايام، لا يعطي مثالاً واحداً بل آلاف الامثلة على انشاء الاجساد البشرية فوراً يوم القيامة.

نعم، لما كانت الدنيا هي دار ((الحكمة)) والدار الآخرة هي دار ((القدرة)) فان ايجاد الاشياء في الدنيا صار بشئ من التدريج ومع الزمن. بمقتضى الحكمة الربانية وبموجب اغلب الاسماء الحسنى امثال ((الحكيم، المرتّب، المدبر، المربي)). اما في الاخرة فان ((القدرة)) و ((الرحمة)) تتظاهران اكثر من ((الحكمة)) فلا حاجة الى المادة والمدة والزمن ولا الى الانتظار. فالاشياء تنشأ هناك نشأة آنية. وما يشير اليه القرآن الكريم بـ] وَمَآ اَمْرُ السَّاعَةِ إلاّ كَلَمْحِ البَصَرِ اَوْ هُوَ اَقْرَبُ[(النحل:٧٧)، هو ان ما ينشأ هنا من الاشياء في يوم واحد وفي سنة واحدة ينشأ في لمحة واحدة كلمح البصر في الآخرة.

واذا كنت ترغب ان تفهم ان مجئ الحشر أمر قطعي كقطعية مجئ الربيع المقبل وحتميته، فانعم النظر في ((الكلمة العاشرة)) و ((الكلمة التاسعة والعشرين)). وان لم تصدق به كمجئ هذا الربيع، فلك ان تحاسبني حساباً عسيراً.

المسألة الرابعة: وهي موت الدنيا وقيام الساعة، ومثاله:

انه لو اصطدم كوكب سيار او مذنّب بأمر رباني بكرتنا الارضية التي هي دار ضيافتنا، لدمّر مأوانا ومسكننا – أي الارض – كما يُدمّر في دقيقة واحدة قصر بُني في عشر سنوات.(**الكلمات، الكلمة العاشرة، القطعة الثالثة من رسالة الحشر**).

من ثمرات الإيمان بالآخرة

سنبين هنا – بياناً موجزاً – بضع نتائج فقط من بين المئات من النتائج التي يحققها «الإيمان بالآخرة» لإسعاد الإنسان في حياته الشخصية والإجتماعية.

الثمرة الأولى:

كما أنَّ الإنسان – خلافاً للحيوان – ذو علاقة مع بيته، فهو أيضاً ذو إرتباط وثيق مع الدنيا. ومثلما أنه مرتبط بأقاربه بروابط ووشائج، فهو كذلك ذو نسب فطري بالجنس البشري. وكما أنه يحب البقاء في الدنيا الفانية فهو يتوق إلى بقائه في الدار الباقية. وكما أنه يسعى دائما لتأمين حاجات معدته إلى الغذاء فهو مضطر بفطرته – بل يسعى – لتأمين الأغذية لعقله وقلبه وروحه وإنسانيته وتناولها من الموائد الممتدة على سعة الدنيا، بل الممتدة إلى الأبد، لما له من آمال ومطالب لا يشبعها سوى السعادة الأبدية. فلقد حدّثتُ خيالي في عهد صباي كما أشير إليه في رسالة «الحشر»:

«أي الأمرين تفضّل ؟ قضاء عمر سعيد يدوم ألف ألف سنة مع سلطنة الدنيا وأبهتها على أن ينتهي ذلك إلى العدم، أم وجوداً باقياً مع حياة إعتيادية شاقة ؟»

فرأيته يرغب في الثانية ويضجر من الأولى، قائلاً:

«إنني لا أريد العدم بل البقاء ولو كان في جهنم !».

فمادام جميع لذائذ الدنيا لا تشبع الخيال، الذي هو أحد خدام الماهية الإنسانية، فلابد أن حقيقة الماهية الإنسانية الجامعة الشاملة جداً مرتبطة فطرة بالخلود والبقاء.

فكم يكون «الإيمان بالآخرة» إذن كنزاً عظيما كافياً ووافياً لهذا الإنسان الوثيق الصلة بهذه الرغبات والآمال التي لا تنتهي، وهو لا يملك سوى جزءٍ من الإختيار الجزئي، ويتقلب في الفقر المطلق! وكم يكون هذا الإيمان محوراً للسعادة المطلوبة واللذة المبتغاة ! وكم يكون مرجعاً ومدار إستمدادٍ وسلوة له تجاه هموم الدنيا غير المحصورة ؟ فلو ضحّى هذا الإنسان بكل حياته الدنيا في سبيل الفوز بهذه الثمرات والفوائد لكانت إذن زهيدة !

الثمرة الثانية المتوجهة لحياة الإنسان الشخصية:

إنَّ ما يقلق الإنسان دوما وينغّص حياته، هو تفكيره الدائم في مصيره، وكيفية دخوله القبر، مثلما إنتهى إليه مصير أحبته وأقاربه. فتوهم الإنسان المسكين – الذي يضحي بروحه لأجل صديق عزيز – وتصوّره من أن آلافاً بل ملايين الملايين من إخوانه البشر ينتهون إلى العدم بالموت – ذلك الفراق الأبدي الذي لا لقاء وراءه – سيذيقه هذا التصور ألماً شديداً ينبئ بآلام جهنم. وحينما يتلوى هذا الإنسان من ألم ذلك العذاب الأليم النابع من ذلك التفكير، يأتي «الإيمان بالآخرة» فاتحاً بصيرته، مزيلاً الغشاوة عن عينيه، قائلاً له: أُنظر.. فينظر بنور الإيمان، فإذا به يكسب لذة روحية عميقة تنبئ بلذة الجنة، بما يشاهد من نجاة أحبته وخلاصهم جميعا من الموت النهائي

والفناء والبلى والإندثار، ومن بقائهم خالدين في عالم النور الأبدي منتظرين قدومه إليهم. نقتصر على هذا حيث وضحت «رسائل النور» هذه النتيجة مع حججها.

الثمرة الثالثة التي تعود لعلاقات الإنسان:

إنَّ مقام الإنسان الراقي وتفوقه على سائر الأحياء وإمتيازه عليها إنما هو لسجاياه السامية، ولإستعداداته الفطرية الجامعة، ولعبوديته الكلية، ولسعة دوائر وجوده، لذا فالإنسان المنحصر في الحاضر فقط المنسلخ من الماضي، المبتوت الصلة بالمستقبل – وهما معدومان ميتان مظلمان بالنسبة له – هذا الإنسان يكسب سجايا المروءة والمحبة والأخوة والإنسانية على أساس حاضره الضيق، وتتحدد عنده على وفق مقاييسه وموازينه المحدودة، فيولي المحبة لأبيه أو أخيه أو زوجته أو أمته، ويقوم بخدمتهم على وفق تلك المقاييس الضيقة وكأنه لا يعرفهم سابقاً ولن يراهم مستقبلاً فلا يرقى أبداً إلى مرتبة الصدق في الوفاء، ولا إلى مكانة الإخلاص في الصداقة، ولا إلى درجة الود المصفى من الشوائب في المحبة، ولا إلى الإحترام المبرأ من الغرض في الخدمة؛ لأن سعة تلك السجايا والكمالات قد تضاءلت وصغرت بالنسبة نفسها، وحينها يتردى الإنسان إلى درك أدنى الحيوانات عقلا.

ولكن ما أن يأتي «الإيمان بالآخرة» إلى هذا الإنسان لينقذه ويمدَّه ويغيثه، حتى يحوِّل ذلك الزمن الضيق – الشبيه بالقبر – إلى زمان فسيح واسع جداً بحيث يستوعب الماضي والمستقبل معاً، فيريه وجوداً واسعاً بسعة الدنيا، بل

بسعة تمتد من الأزل إلى الأبد. وعندئذٍ يقوم هذا الإنسان باحترام والده وتوقيره بمقتضى الأبوة الممتدة إلى دار السعادة وعالم الأرواح، ويساعد أخاه ويعاونه - بذلك التفكير - بالأخوة الممتدة إلى الأبد، ويحب زوجته ويرفق بها ويعاونها لأنها أجمل رفيقة حياة له حتى في الجنة، ولا يجعل هذه الدائرة الحياتية الواسعة الفسيحة - وما فيها من علاقات وخدمات مهمة - وسيلة لأمور تافهة دنيوية ولا لأغراضها الجزئية ومنافعها الزهيدة. لذا يظفر بالصداقة التامة، والوفاء الخالص، والإخلاص الأتم، في علاقاته وخدماته، فتبدأ كمالاته وخصاله بالسمو والرقي بالنسبة نفسها، وتتعالى إنسانيته، ولكل حسب درجته..

فذلك الإنسان الذي ما كان له أن يرقى إلى مستوى عصفور في تذوقه الحياة، أصبح الآن - بفضل الإيمان بالآخرة - ضيفاً مرموقاً في الدنيا، وكائناً سعيداً، ومخلوقاً ممتازاً فيها، يرقى فوق جميع الحيوانات، بل يصبح أحب مخلوق، وأكرم عبد عند رب الكون ومالكه.

اكتفينا بهذا القدر في بيان هذه النتيجة حيث بيّنتها «رسائل النور» بحجج وبراهين.

الفائدة الرابعة التي تتطلع إلى الحياة الاجتماعية:

وهي التي وضحها «الشعاع التاسع» وخلاصتها هي:

إنَّ «الأطفال» الذين يمثلون ربع البشرية، لا يمكنهم أن يعيشوا عيشة إنسان سوي ينطوي على نوازع إنسانية إلاّ بالإيمان بالآخرة. إذ لولا هذا

الإيمان لاضطروا أن يقضوا حياة ملؤها الوقاحة والإضطراب والهموم الأليمة. فلا يهنأون بألعابهم ولا يتسلّون بلُعبهم، لأن الموت الذي يصيب من حولهم من الأطفال يؤثر بالغ التأثير في نفس كل طفل، وفي شعوره المرهف الرقيق، وفي قلبه الذي سينطوي في المستقبل على آمال ورغبات كثيرة، وفي روحه التي لا تستطيع الثبات فتصاب بالقلق والحيرة، حتى تصبح حياته وعقله، وسيلتَي عذاب له، فلا يجدي ما يتستر به من لهو ولعب نفعا قبل أن يجد لتساؤله وحيرته جوابا.. إلاّ أن إرشاد «الإيمان بالآخرة» يجعله يحاور نفسه على النحو الآتي:

«إن صديقي – أو أخي – الذي توفي قد أصبح الآن طيراً من طيور الجنة، فهو أكثر منا أُنساً وإنطلاقاً وتجوالاً. وان والدتي – وان توفيت – إلاّ أنها مضت إلى الرحمة الإلهية الواسعة، وستضمني أيضاً إلى صدرها الحنون في الجنة، فأرى تلك الوالدة الشفيقة». وبهذا يمكنه أن يعيش هادئاً مطمئناً عيشاً يليق بالإنسان.

وكذا «الشيوخ» الذين يمثلون ربع البشرية، فإنهم لا يرون السلوان حيال إنطفاء حياتهم قريباً، ودخولهم تحت التراب، وقد أوصدت الدنيا الجميلة الحلوة أبوابها في وجوههم إلاّ بـ«الإيمان بالآخرة». إذ لولا هذا الإيمان لتجرع أولئك الآباء المحترمون الرحماء، وتلك الأمهات الفدائيات الشفيقات الويل تلو الويل، ولباتوا في حالة نفسية تعسة جداً، وفي قلق قلبي عنيف ولأصبحت الدنيا تضيق عليهم كالسجن، ولغدت الحياة نفسها عذاباً مقيماً لا يطاق. بينما

الإيمان بالآخرة يهتف بهم قائلاً:

«لا تغتموا أيها الشيوخ ولا تبالوا كثيراً، فإن لكم شباباً خالداً وهو أمامكم وسيأتي حتماً. وإن حياة ساطعة بهيجة، وعمراً مديداً أبدياً في إنتظاركم، وستلتقون أولادكم وأقاربكم الذين فقدتموهم، وجميع حسناتكم محفوظة وستأخذون ثوابها..» وهكذا يمنح «الإيمان بالآخرة» سلواناً وإنشراحاً لهم، بحيث لو حمل أحدهم أثقال مائة شيخوخة لتحملها صابراً في إنتظار ما سيعقبها من حياة أخروية سعيدة.

وكذا «الشباب» الذين يمثلون ثلث البشرية، قد لا يصغون لصوت عقولهم الجريئة. فرغباتهم وهواهم في ثورة وجيشان، وهم مغلوبون على أمر حواسهم ونوازعهم، فإذا ما فقد هؤلاء الشباب «الإيمان بالآخرة» ولم يتذكروا عذاب جهنم، فإن أموال الناس وأعراضهم وراحة الضعفاء وكرامة الشيوخ تصبح مهددة بالخطر، إذ قد يدمر أحدهم سعادة بيت آمن هنيء لأجل لذة طارئة، ومن ثم يذوق وبال أمره عذابا لسنين عديدة في مثل هذه السجون فيتحول إلى ما يشبه الحيوان الكاسر.

ولكن إذا أمده «الإيمان بالآخرة» وأغاثه، فسرعان ما يسترجع صوابه ويسترشد بعقله، ويخاطب نفسه قائلا:

«على الرغم من أن شرطة الحكومة وعيونها لا يمكنهم رؤيتي لكوني في خفاء عنهم، فان ملائكة السلطان الأعظم ذي الجلال الذي يملك سجن جهنم ذلك السجن الأكبر الدائم يسجلون عليّ سيئاتي.. فأنا إذن لست

طليقا مفلوت الزمام، بل أنا ضيف عابر ذو مهمة.. وسأكون — لا محالة – في يوم ما ضعيفاً وشيخاً مثلهم». فتترشح قطرات الرحمة والرأفة والشفقة – عندئذٍ – من أعماق قلبه، ويشعر بالإحترام لأولئك الذين كان يريد أن يتعدى على حقوقهم ظلماً. وحيث إن «رسائل النور» قد وضحت هذا المعنى، نقتصر على هذا القدر.

وكذلك «المرضى والمظلومون وأمثالنا من ذوي المصائب والفقراء والمساجين» الذين حوكموا بعقوبات مشددة، كل هؤلاء يمثلون الجزء الأهم من البشرية، فان لم يُعنهمْ «الإيمان بالآخرة» وان لم يتسلوا به فان الموت الذي يجدونه أمامهم دائماً بما عندهم من مرض، وأن الإهانة التي يرونها من الظلمة – دون أن يتمكنوا من الإقتصاص منهم ولا من إنقاذ شرفهم وكرامتهم من بين مخالبهم – وان اليأس الأليم النابع مما أصاب أموالهم وأولادهم من الضياع في الكوارث، وان الضيق الشديد الناشئ من آلام السجن وعذابه لسنوات عدة نتيجة لذة طارئة لا تستغرق دقائق أو ساعات.. كل ذلك يصيّر الدنيا – بلا ريب – سجناً كبيراً لهؤلاء المنكوبين ويجعل الحياة نفسها عذابا أليما لهم ! ولكن ما أن يَمدّهم الإيمان بالآخرة بالعزاء والسلوان إلاّ وينشرحون فوراً، ويتنفسون الصعداء، لما يزيل عنهم من الضيق واليأس والقلق والإضطراب وسَورة الثأر إزالة كلية أو جزئية كلٌ حسب درجات إيمانه.

حتى يمكنني القول انه: لولا الإيمان بالآخرة الذي أمدّني وإخواني في مصيبتنا الرهيبة ودخولنا السجن هذا – دون ذنب إقترفناه – لكان تحمّل

مرارة يوم واحد من أيام العذاب كالموت نفسه، ولساقتنا هذه المصيبة إلى ترك الحياة ونبذها. ولكن شكراً لله - بلا عد ولا حد - أن جعلني أتحمل آلام كثير من إخواني الذين هم أحب إليّ من نفسي وأتحمل ضياع آلاف من «رسائل النور» التي هي أعزّ من عيوني، وأتحمل فقدان كثير من مجلداتي الزاهية الثمينة جداً.. فأتحمل كل هذا الحزن والأسى بذلك «الإيمان بالآخرة» رغم أنني ما كنت أتحمل أية إهانة وتحكّم من أحدٍ مهما كان، فإني أقسم لكم - لتطمئنوا - أن نور الإيمان بالآخرة وقوته قد منحني صبراً وجلداً وعزاءً وتسليةً، وصلابةً وشوقاً للفوز بثواب جهاد عظيم في هذا الإمتحان إلى حدّ بتّ أعدّ نفسي في مدرسة كلها خير وجمال. وحقٌ أن تطلق عليها «المدرسة اليوسفية» كما ذكرته في مستهل هذه الرسالة، فلولا المرض الذي كان ينتابني أحيانا، ولولا الحدة الحاصلة من الكهولة لكنت أسعى بجدٍ أكثر لأتلقى دروسي في هذه المدرسة مع ما أحمله من إطمئنان وسكينة قلب.. على كل حال فقد خرجنا عن الصدد أرجو العفو عن هذا الإستطراد.

وكذلك فان «بيت كل إنسان» هو دنياه الصغيرة بل جنته المصغرة فإن لم يكن «الإيمان بالآخرة» حاكماً ومهيمناً في سعادة هذا البيت لوجد كل فرد من أفراد تلك العائلة اضطراباً أليماً، وعذاباً شديداً في علاقة بعضهم ببعض حسب درجات رأفته ومحبته لهم فتتحول تلك الجنة إلى جحيم لا يطاق، وقد يخدر عقله باللهو والسفه المؤقت فيكون مَثَلهُ في هذا كمثل النعامة إذا رأت الصياد تخفي رأسها في الرمل كيلا يراها الصياد وهي عاجزة عن الفرار

والطيران، فهو كذلك يغمر رأسه في الغفلة، لئلا يراه الموت والزوال والفراق، ملغياً شعوره موقتاً ببلاهة، وكأنه وجد علاجاً لما يُعانيه !

فالوالدة مثلا - التي تُضحي بنفسها لأجل ولدها - كلما رأت إبنها يتعرض للخطر إرتعشت هلعاً وخوفاً عليه. والأولاد كذلك عندما لا يستطيعون إنقاذ آبائهم أو إخوانهم من المصائب التي لا تنقطع، يظلون في قلق دائم ويحسون خوفاً مستمراً. فقياساً على هذا فان حياة تلك العائلة، التي يُظن أنها حياة سعيدة، تفقد سعادتها في هذه الدنيا المضطربة الزائلة حيث لا تعطي الرابطة بين الأفراد، ولا علاقة القربى فيما بينهم - ضمن حياة قصيرة جدا - الصداقة الحقيقية والوفاء الخالص والإخلاص الكامل، والخدمة والمحبة الصافيين، بل تتصاغر الأخلاق وتنكمش بنسبة قصر الحياة نفسها، وربما تسقط وتنعدم كلياً.

ولكن ما أن يحل «الإيمان بالآخرة» في ذلك البيت حتى ينور أرجاءه مباشرة ويستضيء، لأن علاقة القربى والرأفة والمحبة التي تربطهم لا تقاس عندئذ ضمن زمن قصير جداً، بل تقاس على وفق علاقات تمتد إلى خلودهم وبقائهم في دار الآخرة والسعادة الأبدية، فيقوم - عندئذ - كلُ فرد باحترام خالص تجاه الآخرين، ويوليهم محبة صافية، ويظهر رأفة صادقة، ويبدي صداقة وفية، صارفاً النظر عن التقصيرات. فتتعالى الأخلاق وتسمو، وتبدأ السعادة الإنسانية الحقة بالتألق في ذلك البيت.

وقد بين هذا المضمون في «رسائل النور». إكتفينا هنا بما سلف.

وهكذا فإن كل «مدينة» هي بحد ذاتها بيت واسع لسكنتها. فإن لم يكن «الإيمان بالآخرة» مسيطراً على أفراد هذه العائلة الكبيرة فسيستولى عليهم الحقد والمنافع الشخصية والإحتيال والأنانية والتكلف والرياء والرشوة والخداع، بدلاً من أسس الأخلاق الحميدة التي هي الإخلاص والمروءة والفضيلة والمحبة والتضحية ورضى الله والثواب الأخروي. وكانت معاني الإرهاب والفوضى والوحشية حاكمة ومسيطرة تحت إسم النظام والأمن والإنسانية التي يظهرونها، وحينئذٍ تتسمم حياة تلك المدينة، فيتصف الأطفال بالوقاحة والإهمال، والشباب بالسُكر والعربدة، والأقوياء بالظلم والتجاوز، والشيوخ بالبكاء والأنين.

وقياساً على هذا فان «البلاد» بأكملها ما هي إلاّ بيت واسع جداً. والوطن بيت عائلة الأمة. فإذا ما حكم «الإيمان بالآخرة» هذه البيوت وسيطر، فإن الفضائل تتكشف وتنبسط وتتوضح فيها فتظهر الإحترام المتبادل والرحمة الجادة، والمحبة الخالصة بلا عوض، والمعاونة مع الخدمة الحقة بلا إحتيال، والمعاشرة والإحسان بلا رياء، والفضيلة والتوقير بلا إستكبار، وتشيع الفضائل الأخرى جميعاً ؛ حيث يهتف الإيمان بالآخرة بأولئك الأطفال قائلا لهم: «دعوا الوقاحة والإهمال فقدامكم جنة النعيم فلا تشغلوا أنفسكم عنها بالألاعيب». فيمكّن الأخلاق عندهم بإرشاد القرآن الكريم.

ويخاطب الشباب: «إنَّ أمامكم نار جهنم فانتهوا من السُكر والعربدة». ويجعلهم يثوبون إلى رشدهم.

ويخاطب الظالم: «احذر فان عذاباً شديداً سيحلّ بك» فيردعه عن الظلم ويجعله يرضخ للعدالة.

ويخاطب الشيوخ: «أبشروا فإن أمامكم شباباً خالدا ذا نضارة، وفي إنتظاركم سعادة أخروية دائمة باقية، هي أسمى مما فقدتموه من أنواع السعادة وأعلى منها فهلموا واسعوا للفوز بها». فيحوّل بكاءهم إلى بهجة وفرح.

وقياساً على هذا، فان «الإيمان بالآخرة» يبين تأثيره الطيب ويرسل شعاع نوره إلى كل طائفة، جزئيها وكلّيها عامها وخاصها قليلها وكثيرها.

فلترن آذان الإجتماعيين والأخلاقيين من المعنيين بشؤون الإنسان !.

وإذا قيس على ما ذكرناه آنفا من فوائد الإيمان بالآخرة ما بقى من الفوائد فسيفهم بوضوح وبشكل قاطع ان محور السعادة في الدارين وفي كلتا الحياتين إنما هو الإيمان وحده. **(الشعاعات، الشعاع/١١، المسألة/٨ من رسالة الثمرة)**

أعظم قضية للبشرية

إنَّ بيان القرآن الكريم فيما يخص جهنم واضح جلي لم يدع مجالا لأي إيضاح آخر، إلاَّ أننا سنبين باختصار شديد ما يزيل بضع شبهات تافهة في نكتتين، محيلين تفاصيلها إلى «رسائل النور»:

النكتة الأولى:

إنَّ التفكير في جهنم والخوف منها لا يزيل لذائذ ثمرات الإيمان المذكورة ولا يفوّتها، لأن الرحمة الربانية الواسعة تهتف بذلك الخائف:«تعالَ إليّ فدونك باب التوبة ادخل منه». فان وجود جهنم ليس للتخويف، بل ليعّرفك لذائذ الجنة معرفة كاملة، وليذيقك إياها تذوقاً كاملاً، وليأخذ لك ولمخلوقات غير محدودة الثأر والإنتقام ممن إنتهك حقوق الجميع واعتدى عليها، وليفرحهم جميعا بهذا ويدخل السرور إليهم.

فيا غارقاً في الضلالة – وليس بمستطيع أن يخرج منها – أنَّ وجود جهنم لهو أفضل لك من العدم الأبدي، إذ في وجودها نوع من الرحمة حتى للكفار أنفسهم، لأنَّ الإنسان – والحيوانات الولودة – يستمتع بتمتع أقاربه وأولاده وأحبابه ويسعد – من جهة – بسعادتهم. فيا أيها الملحد! إما انك ستسقط في هاوية العدم – باعتبار ضلالتك – أو ستدخل نار جهنم. ولما كان العدم شراً محضاً، فإن الإعدام النهائي لأحبابك جميعا وممن تسعد بسعادتهم من أقاربك وآبائك ونسلك، سيحرق روحك ويعذب قلبك ويؤلم ماهيتك

الإنسانية أكثر من عذاب جهنم بألف مرّة؛ لأنه لو لم تكن جهنم لما كانت هناك جنة أيضاً. فيسقط كل شيء إذن بكفرك إلى العدم. ولكن إذا دخلت جهنم وبقيت ضمن دائرة الوجود، فإن أحبابك وأقاربك إما انهم سيسعدون في الجنة أو انهم يكونون ضمن دوائر وجود تحت رحمة الله سبحانه. فلا مناص لك إلاّ أن تقبل بوجود جهنم، إذ العداء لوجودها - ورفضه - يعني الإنحياز إلى العدم المحض، الذي هو إبادة سعادة جميع الأحبة والأصدقاء وإفناؤهم!.

نعم إنَّ جهنم دار وجود تؤدي مهمة السجن بحكمة الحكيم الجليل وعدالته، وهي موضع مرعب ومهيب ضمن دائرة الوجود الذي هو الخير المحض، زِد على ذلك لها وظائف أخرى وخدمات جليلة، وحِكَمٌ شتى تخص عالم البقاء. فهي مسكن ذو جلال وهيبة لكثير من ذوي الحياة أمثال الزبانية.

النكتة الثانية:

إنَّ وجود جهنم وعذابها الشديد لا ينافي قطعاً الرحمة غير المحدودة، ولا العدالة الحقيقية، ولا الحكمة الموزونة التي لا إسراف فيها، بل إن الرحمة والعدالة والحكمة تتطلب وجود جهنم وتقتضيه، لأن قتل حيوان إفترس مائة من الحيوانات أو إنزال عقاب بظالم هتك حُرمات ألفٍ من الأبرياء، هو رحمة بآلاف الأضعاف للمظلومين من خلال العدالة. وإن إعفاء ذلك الظالم من العقاب أو التجاوز عنه، وترك ذلك الحيوان الوحشي طليقاً، فيه ظلم شنيع وعدم رحمةٍ لمئات المساكين بمئات الأضعاف، إزاء رحمة في غير موضعها. ومثل هذا أيضا، الكافر المطلق - الذي يدخل سجن جهنم - فانه بكفره ينكر

حقوق الأسماء الإلهية الحسنى، أي يتعدى على تلك الحقوق.. وبتكذيبه لشهادة الموجودات - الشاهدة على تلك الأسماء - يتعدى على حقوقها أيضاً.. وبإنكاره للوظائف السامية للمخلوقات- وهي تسبيحاتها تجاه الأسماء - يتجاوز على حقوقها.. وبجحوده لأنواع العبادات التي تؤديها المخلوقات تجاه تظاهر الربوبية والألوهية - وهي غاية خلقتها وسبب من أسباب وجودها وبقائها - يتعدى تعدياً صارخاً على حقوق جميع المخلوقات؛ لذا فالكفر جناية عظيمة وظلم شنيع تتجاوز بشاعته كل حدود العفو والمغفرة، فيحق عليه إذن تهديد الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ..﴾ (النساء: ٤٨) بل إن عدم إلقاء مثل هذا الشخص في جهنم رحمةً به هو أمر ينافي الرحمة منافاة كلية في حق هذه الأعداد الهائلة من المخلوقات والكائنات التي أُنتهكت حقوقها.

وهكذا مثلما يطالب أصحاب الدعاوى بوجود جهنم، فان عزة جلال الله وعظمة كماله سبحانه تطلبانها قطعاً.

نعم، إذا قال سفيه أو شقي عاص لحاكم عزيز للبلاد: «إنك لا تستطيع أن تقذفني في السجن ولن تقدر على ذلك أبداً». متجاوزاً حدَّه ومتعدياً على عزة ذلك الحاكم وعظمته، فلابد أن ذلك الحاكم سينشئ سجنا لذلك السفيه المتعدي حتى لو لم يكن هناك سجن في البلاد. كذلك الأمر في الكافر المطلق، فانه بكفره يتعدى بشدة على عزة جلاله سبحانه، وبإنكاره يتحدى عظمة قدرته، وبتجاوزه يمس كمال ربوبيته، فإن لم يكن هناك حتى

تلك الأسباب الموجبة وتلك المبررات الكثيرة والحكم العديدة والوظائف الكثيرة لجهنم ولوجودها؛ فان خلق جهنم لمثل هؤلاء الكفار وإلقاءهم فيها هو من شأن تلك العزة وذلك الجلال.

ثم إن ماهية الكفر نفسها توحي بجهنم؛ إذ كما أن ماهية الإيمان إذا تجسمت يمكن أن تبني بلذائذها ونعيم جمالها جنة خاصة في وجدان الإنسان وقلبه، هي جنة مصغرة تومئ وتخبر عن جنة الخلد التي تنتظره في الآخرة، كذلك الكفر - ولاسيما الكفر المطلق - والنفاق والردة فيه من الآلام والأعذبة والظلمات المرعبة بحيث لو تجسمت وتأصلت في نفس صاحبها كونت له جهنمه الخاصة به تلك التي تشير إلى ما سيفضي إليه في آخرته من جهنم هي اشد هولاً وأشد عذاباً. ولقد أثبتنا هذا بدلائل قاطعة في «رسائل النور»، وأشير إليه في مستهل هذه المسألة أيضاً.

ولما كانت هذه الدنيا مزرعة الآخرة، فالحقائق الصغيرة التي فيها تثمر وتتسنبل في الآخرة، فهذه البذرة السامة (الكفر) تشير من هذه الزاوية إلى شجرة الزقوم تلك، وتقول: «أنا أصل تلك الشجرة وجوهرها.. فمن يحملني في قلبه من المنكوبين سأثمر له نموذجاً خاصاً من تلك الشجرة الملعونة».

وما دام الكفر تعدياً على حقوق غير محدودة، وتجاوزاً فاضحاً، فهو إذن جناية غير محدودة، لذا يجعل صاحبه مستحقاً لعذاب غير محدود. فلئن كان القتل الذي يحدث في دقيقة واحدة يذيق القاتل خمس عشرة سنة من العذاب (ما يقارب ثمانية ملايين دقيقة) ويعتبر ذلك موافقاً للعدالة البشرية، وعدّته

موافقاً للمصلحة العامة وحقوقها، فلا جرم أن دقيقة واحدة من الكفر المطلق – على اعتبار الكفر ألف قتل – تقابل إذن بعذاب يقرب من ثمانية مليارات من الدقائق، على وفق تلك العدالة الإنسانية فالذي يقضي سنة كاملة من عمره في الكفر إذن يستحق عذاب ترليونين وثمانمائة وثمانين ملياراً من الدقائق، أي يكون أهلاً لـ: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ (النساء: ١٦٩).

هذا وان الأسلوب المعجز للقرآن الكريم في بيانه الجنة والنار وما في «رسائل النور» – التي هي فيض منه وتفسيره – من حجج حول وجودهما، لم يتركا مجالاً لأي إيضاح آخر. فآيات كثيرة جدا أمثال: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(آل عمران: ١٩١)

﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ (الفرقان: ٦٥، ٦٦). وأغلب ما كان يردده الرسول الأكرم (صلى الله عليه وسلم) في أدعيته في كل وقت، والأنبياء عليهم السلام وأهل الحقيقة من:(أجرنا من النار)..(نجنا من النار).. (خلصنا من النار)... الذي حاز عندهم قطعية تامة بناءً على الوحي المشهود..كل ذلك يبين لنا أن أعظم قضية للبشرية على الأرض إنما هي النجاة من النار، وان أعظم حقيقة وأدهشها من حقائق الكائنات، بل أكثرها أهمية إنما هي «جهنم» التي يشهدها قسم من أولئك المحققين وأهل الشهود والكشف، ويرى آخرون ألسنة لهيبها وظلمة سوادها، ويسمع بعضهم أزيز تضرمها وفورانها فيصرخون

من هولها «أجرنا من النار».

نعم ! إن تقابل الخير والشر في هذا الكون، واللذة والألم، والنور والظلام، والحرارة والبرودة، والجمال والقبح، والهداية والضلالة، وتداخل بعضها ببعض، إنما هي لحكمة كبرى، لأنه ما لم يكن هناك الشر فلا يفهم الخير، وما لم يكن هناك الألم فلا تُعرف اللذة، والضياء من دون ظلام إزاءه لا يبين جماله، ودرجات الحرارة تتحقق بوجود البرودة، وتصبح حقيقة واحدة من الجمال ألفاً من الحقائق بوجود القبح، بل يكتسب آلافا من أنواع الجمال ومراتب الحسن. ويختفي الكثير من لذائذ الجنة بعدم وجود جهنم. فقياساً على هذا يمكن أن يعرف كل شيء من جهة بضده، وبوجود الضد يمكن أن تثمر حقيقة واحدة حقائق عدة.

فما دامت هذه الموجودات المختلطة تسيل سيلاً من دار الفناء إلى دار البقاء. فلابد أن الخير واللذة والنور والجمال والإيمان وأمثالها تسيل إلى الجنة، ويتساقط الشر والألم والظلام والقبح والكفر وأمثالها من الأمور المضرة إلى جهنم. فتسيل سيول هذه الكائنات المتلاطمة دائما إلى ذينك الحوضين وتهدأ ساكنة عندهما نهاية المطاف. **(الشعاعات، الشعاع/١١، المسألة/٨ ، رسالة الثمرة)**

من رياحين العبادة

*شوقاً الى الصلاة

*حكمة أوقات الصلاة

* حكمة الأعداد غير المتناهية في الأذكار

* الدعاء مفتاح خزينة الرحمة

شوقاً الى الصلاة

﴿ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ (النساء: ١٠٣)

قال لي أحدهم يوماً وهو كبير سناً وجسماً ورتبة: "إنَّ أداء الصلاة حسنٌ وجميل، ولكن تكرارها كل يوم، وفي خمسة أوقات كثير جداً فكثرتها هذه تجعلها مملّة!.."

وبعد مرور فترة طويلة على هذا القول، أصغيت إلى نفسي فإذا هي أيضاً تردد الكلام نفسه!! فتأملت فيها مليّاً، وإذا بها قد أخذت بطريق الكسل الدرسَ نفسَه من الشيطان، فعلمتُ عندئذ أنّ ذلك الرجل كأنه قد نطقَ بتلك الكلمات بلسان جميع النفوس الأمارة بالسوء، أو أُنطق هكذا. فقلت ما دامت نفسي التي بين جنبيّ أمّارة بالسوء فلابد أنْ أبدأ بها أولاً لأنَّ مَنْ عجز عن إصلاح نفسه فهو عن غيرها أعجزُ، فخاطبتها:

يا نفسي!.. اسمعيها مني "خمس تنبيهات" مقابل ما تفوهتِ به وأنتِ منغمسة في الجهل المركب سادرة في نوم الغفلة على فراش الكسل.

❖ **التنبيه الأول:**

يا نفسي الشقية!.. هل أنَّ عمركِ أبدي؟ وهل عندك عهد قطعي بالبقاء إلى السنة المقبلة بل إلى الغد؟ فالذي جعلكِ تملّين وتسأمين من تكرار الصلاة هو توهمكِ الأبدية والخلود، فتظهرين الدلال وكأنك بترفك مخلّدة في هذه الدنيا.

فإنْ كنت تفهمين أنَّ عمركِ قصير، وأنَّه يمضي هباء دون فائدة، فلا ريب أنَّ

صرف جزء من أربعةٍ وعشرين منه في أداء خدمة جميلة ووظيفة مريحة لطيفة، وهي رحمة لك ووسيلة لحياة سعيدة خالدة، لا يكون مدعاة إلى الملل والسأم، بل وسيلة مثيرة لشوق خالص ولذوقٍ رائع رفيع.

❖ التنبيه الثاني:

يا نفسي الشرهة!.. إنكِ يومياً تأكلين الخبز، وتشربين الماء، وتتنفسين الهواء، أمَا يورث هذا التكرار مللاً وضجراً؟ كلا دون شك، لأنَّ تكرارَ الحاجة لا يجلب الملل بل يجدّد اللذة. لهذا فالصلاة التي تجلب الغذاء لقلبي، وماء الحياة لروحي، ونسيم الهواء لِلّطيفةِ الربانية الكامنة في جسمي، لابد أنّها لا تجعلك تملّين ولا تسأمين أبداً.

نعم! إنَّ القلب المتعرض لأحزانٍ وآلام لا حدّ لها، المفتون بآمال ولذائذ لا نهاية لها، لا يمكنه أنْ يكسب قوةً ولا غذاء إلاّ بطرقِ باب الرحيم الكريم، القادر على كل شيء بكل تضرع وتوسل.

وإنَّ الروح المتعلقة بأغلب الموجودات الآتية والراحلة سريعاً في هذه الدنيا الفانية، لا تشرب ماء الحياة إلاّ بالتوجه بالصلاة إلى ينبوع رحمة المعبود الباقي والمحبوب السرمدي.

وإن السر الإنساني الشاعر الرقيق اللطيف، وهو اللطيفة الربانية النورانية، والمخلوق للخلود، والمشتاق له فطرةً والمرآة العاكسة لتجليات الذات الجليلة، لابد أنَّه محتاج أشدَّ الحاجة إلى التنفس، في زحمة وقساوة وضغوط هذه الأحوال الدنيوية الساحقة الخانقة العابرة المظلمة، وليس له ذلك إلاّ بالإستنشاق من نافذة الصلاة.

❖ **التنبيه الثالث:**

يا نفسي الجزعة!.. إنَّكِ تضطربين اليوم من تذكر عناء العبادات التي قمت بها في الأيام الماضية، ومن صعوبات الصلاة وزحمة المصائب السابقة، ثم تتفكرين في واجبات العبادات في الأيام المقبلة وخدمات أداء الصلوات، وآلام المصائب، فتظهرين الجزع، وقلة الصبر ونفاده. هل هذا أمرٌ يصدر ممَّن له مِسْكة من عقل؟

إنَّ مثلكِ في عدم الصبر هذا مثلُ ذلك القائد الأحمق الذي وجَّه قوةً عظيمة من جيشه إلى الجناح الأيمن للعدو، في الوقت الذي التحق ذلك الجناح من صفوف العدو إلى صفّه، فأصبح له ظهيراً. ووجّه قوته الباقية إلى الجناح الأيسر للعدو، في الوقت الذي لم يكن هناك أحدٌ من الجنود. فأدرك العدو نقطة ضعفه فسدد هجومَه إلى القلب فدمّره هو وجيشَه تدميراً كاملاً.

نعم إنكِ تشبهين هذا القائد الطائش، لأنَّ صعوباتِ الأيام الماضية وأتعابها قد ولّت، فذهبت آلامُها وظلت لذّتها وانقلبت مشقتها ثواباً، لذا لا تولّد مللاً بل شوقاً جديداً وذوقاً نديّاً وسعياً جاداً دائماً للمضيّ والإقدام. أمَّا الأيام المقبلة، فلأنها لم تأتِ بعدُ، فإنَّ صرف التفكير فيها من الآن نوعٌ من الحماقة والبلهِ، إذ يشبه ذلك، البكاء والصراخ من الآن، لما قد يحتمل أنْ يكون من العطش والجوع في المستقبل!..

فما دام الأمر هكذا، فإنْ كان لك شيء من العقل، ففكري من حيث العبادة في هذا اليوم بالذات. قولي سأصرف ساعة منه في واجبٍ مهم لذيذ جميل، وفي خدمةٍ سامية رفيعة ذات أجر عظيم وكلفة ضئيلة. وعندها تشعرين أنَّ فتورَك المؤلم

قد تحوّل إلى همة حلوة، ونشاط لذيذ.

فيا نفسي الفارغة من الصبر! إنَّكِ مكلفة بثلاثة أنواع من الصبر.

الأول: الصبر على الطاعة.

الثاني: الصبر عن المعصية.

الثالث: الصبر عند البلاء.

فإنْ كنتِ فطنة فخذي الحقيقة الجلية في مثال القائد – في هذا التنبيه – عبرةً ودليلاً، وقولي بكل همة ورجولة "يا صبور!" ثم خذي على عاتقك الأنواع الثلاثة من الصبر. واستندي إلى قوة الصبر المودعة فيك وتجمّلي بها، فإنّها تكفي للمشقات كلها، وللمصائب جميعها ما لم تبعثريها خطأً في أمور جانبية.

❖ التنبيه الرابع:

يا نفسي الطائشة!.. يا تُرى هل أنَّ أداء هذه العبودية دون نتيجة وجدوى؟! وهل أنَّ أجرتها قليلة ضئيلة حتى تجعلك تسأمين منها؟ مع أنَّ أحدنا يعمل إلى المساء ويكدّ دون فتور إنْ رغّبه أحدٌ في مالٍ أو أرهبَهُ.

إنَّ الصلاة التي هي قوتٌ لقلبك العاجز الفقير وسكينةٌ له في هذا المضيف الموقت وهو الدنيا. وهي غذاءٌ وضياء لمنزلك الذي لابد أنَّكِ صائرة إليه، وهو القبر. وهي عهدٌ وبراءةٌ في محكمتك التي لا شك أنكِ تحشرين إليها. وهي التي ستكون نوراً وبُراقاً على الصراط المستقيم الذي لابد أنَّكِ سائرة عليه... فصلاة هذه نتائجها هل هي بلا نتيجة وجدوى؟ أمْ أنها زهيدة الأجرة؟!

وإذا وَعَدَكِ أحدٌ بهدية مقدارها مائة ليرة، فسوف يستخدمك مائة يوم وأنتِ تسعَين وتعملين معتمدة على وعده دون ملل وفتور، رغم أنّه قد يخلف الوعد. فكيف بمن وعدك وهو لا يخلف الوعد مطلقاً؟؟ فخُلف الوعد عنده محال! وعدك أجرةً وثمناً هي الجنة، وهدية عظيمة هي السعادة الخالدة، لتؤدي له واجباً ووظيفة لطيفة مريحة وفي فترة قصيرة جداً. ألا تفكرين في أنكِ إنْ لم تؤدِّ تلك الوظيفة والخدمة الضئيلة، أو قمتِ بها دون رغبة أو بشكلٍ متقطع، فإنكِ إذن تستخفّين بهديته، وتتهمينه في وعده! ألا تستحقين إذن تأديباً شديداً وتعذيباً أليماً؟ ألا يثير همتك لتؤدي تلك الوظيفة التي هي في غاية اليسر واللطف خوفَ السجن الأبدي وهو جهنم. علماً أنَّكِ تقومين بأعمال مرهقة وصعبة دون فتور خوفاً من سجن الدنيا، وأين هذا من سجن جهنم الأبدي؟!

❖ **التنبيه الخامس:**

يا نفسي المغرمة بالدنيا!.. هل أنّ فتورك في العبادة وتقصيرك في الصلاة ناشئان من كثرة مشاغلك الدنيوية؟ أمْ أنَّك لا تجدين الفرصة لغلبة هموم العيش؟!

فيا عجباً هل أنتِ مخلوقة للدنيا فحسب، حتى تبذلي كل وقتك لها؟ تأملي!! إنَّك لا تبلغين أصغرَ عصفور من حيث القدرة على تدارك لوازم الحياة الدنيا رغم أنَّكِ أرْقى من جميع الحيوانات فطرةً. لِمَ لا تفهمين من هذا أنَّ وظيفتكِ الأصلية ليس الإنهماك بالحياة الدنيا والإهتمام بها كالحيوانات، وإنّما السعيُ والدأبُ لحياة خالدة كالإنسان الحقيقي. مع هذا فإنَّ أغلبَ ما تذكرينه من المشاغل الدنيوية، هي مشاغل ما لا يعنيك من الأمور، وهي التي تتدخلين فيها بفضول، فتهدرين

وقتك الثمين جداً فيما لا قيمة له ولا ضرورة ولا فائدة منه، كتعلّم عدد الدجاج في أمريكا!! أو نوع الحلقات حول زحل. وكأنَّكِ تكسبين بهذا شيئاً من الفَلك والإحصاء!! فتَدَعين الضروري والأهم والألزم من الأمور كأنكِ ستعمّرين آلاف السنين؟!

فإن قلت: إنّ الذي يصرفني ويفترني عن الصلاة والعبادة ليس مثل هذه الأمور التافهة، وإنّما هي أمور ضرورية لمطالب العيش. إذن فاسمعي مني هذا المثل:

إنْ كانت الأجرة اليومية لشخصٍ مائة قرش وقال له أحدهم "تعال واحفرْ لعشر دقائق هذا المكان، فإنّك ستجد حجراً كريماً كالزمرد قيمتُه مائة ليرة" كم يكون عذراً تافهاً بل جنوناً إنْ رفض ذلك بقوله "لا، لا أعملُ، لأن أجرتي اليومية ستنقص!.."

وكذلك حالك، فإن تركت الصلاة المفروضة، فإنَّ جميع ثمار سعيك وعملك في هذا البستان ستنحصر في نفقةٍ دنيوية تافهة دون أنْ تجنى فائدتها وبركتها. بينما لو صرفت وقت راحتك بين فترات العمل في أداء الصلاة، التي هي وسيلةٌ لراحة الروح، ولتنفس القلب، يضاف عندئذٍ إلى نفقتك الأخروية وزاد آخرتك مع نفقتك الدنيوية المباركة، ما تجدينه من منبع عظيم لكنزَين معنويين دائمين وهما:

الكنز الأول: ستأخذ [11] حظك ونصيبك من "تسبيحات" كل ما هيأته بنيّة خالصة، من أزهار وثمار ونباتات في بستانك.

---

[11] هذا المقام درس لأحد العاملين في بستان. (المؤلف).

الكنز الثاني: إنَّ كل مَن يأكل من محاصيل بستانك - سواءً أكان حيواناً أمْ إنساناً شارياً أو سارقاً - يكون بحكم "صدقةٍ جارية" لك، فيما إذا نظرت إلى نفسك كأنّك وكيلٌ وموظف لتوزيع مال الله سبحانه وتعالى على مخلوقاته، أي تتصرف باسم الرزاق الحقيقي وضمن مرضاته.

والآن تأملْ في الذي ترك الصلاة، كم هو خاسرٌ خسراناً عظيماً؟! وكم هو فاقد من تلك الثروة الهائلة؟! وكيف أنَّهُ سيبقى محروماً ومفلساً من ذينك الكنزين الدائمين اللذين يمدان الإنسان بقوة معنوية للعمل ويشوّقانه للسعي والنشاط؟! حتى إذا بلغ أرذلَ عمره، فإنّه سوف يملّ ويضجر مخاطباً نفسه: "وما عليّ؟! لِمَ أتعِبُ نفسي؟ لأجلِ مَنْ أعمَلُ؟ فإنَّني راحل من هذه الدنيا غداً!.." فيلقي نفسه في أحضان الكسل.

بينما الرجل الأول يقول: "سأسْعى سعياً حثيثاً في العمل الحلال بجانب عبادتي المتزايدة كيما أرسل إلى قبري ضياءاً أكثر وادّخر لآخرتي ذخيرة أزيد".

والخلاصة: إعلمي أيتها النفس! إنّ الأمس قد فاتكِ. أمّا الغد فلم يأتِ بَعْدُ، وليس لديك عهد أنّك ستملكينه، لهذا فاحسبي عمرك الحقيقي هو هذا اليوم. وأقلّ القليل أنْ تلقي ساعة منه في صندوق الإدّخار الأخروي، وهو المسجد أو السَّجادة لتضمني المستقبل الحقيقي الخالد.

واعلمي كذلك أن كل يوم جديد هو بابٌ ينفتح لعالم جديد -لك ولغيرك- فإن لم تؤدي فيه الصلاة فإن عالم ذلك اليوم يرحل إلى عالم الغيب مُظلماً شاكياً محزوناً، وسيشهد عليك.

وإنّ لكلٍّ منا عالمه الخاص من ذلك العالم، وأنَّ نوعيته تتبع عملنا وقلبنا. مَثلُه في ذلك مثلُ المرآة، تظهر فيها الصورة تبعاً للونها ونوعيتها. فإنْ كانت مسودّة فستظهر الصورة مسودّة، وإنْ كانت صقيلة فستظهر الصورة واضحة، وإلا فستظهر مشوهة تضخم أتفه شئ وأصغره. كذلك أنت، فبقلبك وبعقلك وبعملك يمكنك أنْ تغيري صورَ عالمكِ، وباختيارك وطوع إرادتك يمكنك أنْ تجعلي ذلك العالم يشهد لك أو عليك.

وهكذا إنْ أدّيتَ الصلاة وتوجهت بصلاتك إلى خالق ذلك العالم ذي الجلال، فسيتنور ذلك العالم المتوجه إليك حالاً، وكأنّك قد فتحت بنيّة الصلاة مفتاح النور فأضاءَه مصباح صلاتك، وبدّد الظلمات فيه. وعندها تتحول وتتبدل جميع الإضطرابات والأحزان التي حولك في الدنيا فتراها نظاماً حكيماً، وكتابة ذات معنى بقلم القدرة الربانية، فينساب نورٌ من أنوار ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى قلبك، فيتنور عالم يومك ذاك، وسيشهد بنورانيته لك عند اللّٰه.

فيا أخي! حذارِ أنْ تقول "أين صلاتي من حقيقة تلك الصلاة؟" إذ كما تحمل نواةُ التمر في طياتها صفات النخلة الباسقة، الفرق فقط في التفاصيل والإجمال. كذلك صلاة العوام – من هم أمثالي وأمثالُك – فيها حظٌ من ذلك النور وسرٌ من أسرار تلك الحقيقة، كما هي في صلاة ولي من أولياء اللّٰه الصالحين ولو لم يتعلق بذلك شعوره. أمَّا تَنوُّرها فهي بدرجات متفاوتة، كتفاوت المراتب الكثيرة التي بين نواة التمر إلى النخلة. ورغم أنَّ الصلاة فيها مراتب أكثر فإنَّ جميع تلك المراتب فيها أساس من تلك الحقيقة النورانية.

اللّهم صل وسلم على من قال : (الصلاة عماد الدين) [١٢]وعلى آله وصحبه اجمعين.

(الكلمات، الكلمة/٢١، المقام الاول)

---

[١٢] قال في المقاصد: رواه البيهقي في الشعب بسند ضعيف . وأقول عزاه في الجامع الصغير للبيهقي عن ابن عمر.. وأورده الغزالي في الإحياء، ورواه أبو نعيم عن بلال بن يحيى قال: جاء رجل إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) يسأله عن الصلاة فقال: الصلاة عمود الدين. وهو مرسل ورجاله ثقات. (باختصار عن كشف الخفاء). المترجم.

حكمة أوقات الصلاة

بسم الله الرحمن الرحيم

{ فَسُبْحانَ الله حينَ تُمسونَ وحين تُصبِحُون * وَلَه الحَمدُ في السَموات والارضِ وَعَشِيّا وحين تُظهِرون} (الروم: ١٧ ـ ١٨)

أيها الأخ! تسألني عن حكمة تخصيص الصلاة في هذه الاوقات الخمسة المعينة، فسنشير الى حكمة واحدة فقط من بين حِكمها الوفيرة.

نعم، كما ان وقت كل صلاة، بداية انقلابٍ زمني عظيم ومهم، فهو كذلك مرآة لتصرف إلهي عظيم، تعكس الآلاء الإلهية الكلية في ذلك الوقت. لهذا فقد أُمر في تلك الاوقات بالصلاة ، أي الزيادة من التسبيح والتعظيم للقدير ذي الجلال، والاكثار من الحمد والشكر لنعمه التي لا تحصى والتي تجمعت بين الوقتين. ولأجل فهم بعضٍ من هذا المعنى العميق الدقيق، ينبغي الاصغاء ـ مع نفسي ـ الى خمس نكات.

ـ النكتة الاولى:

ان معنى الصلاة هو التسبيح والتعظيم والشكر لله تعالى. اي تقديسُه جل وعلا تجاه جلاله قولاً وفعلاً بقول: سبحان الله.. وتعظيمه تجاه كماله لفظاً وعملاً بقول: الله اكبر.. وشكره تجاه جماله قلباً ولساناً وجسماً بقول: الحمد لله.

اي أن التسبيح والتكبير والتحميد هو بمثابة نوى الصلاة وبذورها، فوُجِدت هذه الثلاثة في جميع حركات الصلاة واذكارها. ولهذا ايضاً تُكرّر هذه الكلمات الطيبة الثلاث ثلاثاً وثلاثين مرة عقب الصلاة، وذلك للتأكيد على معنى الصلاة وترسيخه، اذ بهذه الكلمات الموجزة المجملة يؤكد معنى الصلاة ومغزاها.

ـ النكتة الثانية:

ان معنى العبادة هو سجودُ العبد بمحبة خالصة وبتقدير واعجاب في الحضرة الإلهية وامام كمال الربوبية والقدرة الصمدانية والرحمة الإلهية مشاهداً في نفسه تقصيرَه وعجزَه وفقرَه.

نعم، كما ان سلطنة الربوبية تتطلب العبودية والطاعة، فان قدسيتَها ونزاهتها تتطلب ايضاً أن يُعلن العبدُ ـ مع استغفاره برؤية تقصيره ـ أن ربّه منزّهٌ عن اي نقص، وانه مُتعالٍ على جميع أفكار أهل الضلالة الباطلة، وانه مقدّس من جميع تقصيرات الكائنات ونقائصها. اي يعلن ذلك كله بتسبيحه، بقوله: سبحان الله.

وكذا قدرة الربوبية الكاملة تطلب من العبد ايضاً أن يلتجىء اليها، ويتوكل عليها لرؤيته ضعفَ نفسه الشديد وعجزَ المخلوقات قائلاً: الله اكبر باعجاب وتقدير واستحسان تجاه عظمة آثار القدرة الصمدانية، ماضياً الى الركوع بكل خضوع وخشوع.

وكذا رحمة الربوبية الواسعة تتطلب ايضاً ان يُظهر العبدُ حاجاته الخاصة وحاجات جميع المخلوقات وفقرها بلسان السؤال والدعاء، وان يعلن احسان ربه وألاءه العميمة بالشكر والثناء والحمد بقوله: الحمد لله.

أي أن افعال واقوال الصلاة تتضمن هذه المعاني. ولأجل هذه المعاني فُرضت الصلاة من لدنه سبحانه وتعالى.

–النكتة الثالثة:

كما أن الانسان هو مثالٌ مصغّر لهذا العالم الكبير، وان سورة الفاتحة مثالٌ منوّر للقرآن العظيم، فالصلاة كذلك فهرس نوراني شامل لجميع العبادات، وخريطة سامية تشير الى أنماط عبادات المخلوقات جميعاً.

–النكتة الرابعة:

ان عقارب الساعة التي تعد الثواني والدقائق والساعات والايام، كلٌ منها يناظر الآخر، ويمثّل الآخر، ويأخذ كلٌ منها حكم الآخر.

كذلك في عالم الدنيا الذي هو ساعة إلهية كبرى، فان دوران الليل والنهار الذي هو بحكم الثواني للساعة، والسنوات التي تعدّ الدقائق، وطبقات عمر الانسان التي تعد الساعات، وأدوار عمر العالم التي تعد الأيام، كل منها يناظر الآخر، ويتشابه معه، ويماثله، ويذكّر كل منها الآخر، ويأخذ حكمه.

فمثلاً:

وقت الفجر الى طلوع الشمس: يشبه ويذكّر ببداية الربيع وأوله، وبأوان سقوط الانسان في رحم الأم، وباليوم الأول من الأيام الستة في خلق السموات والارض، فينبّه الانسان الى ما في تلك الاوقات من الشؤون الإلهية العظيمة.

اما وقت الظهر: فهو يشبه ويشير الى منتصف الصيف، والى عنفوان الشباب، والى فترة خلق الانسان في عمر الدنيا، ويذكّر ما في ذلك كله من تجليات الرحمة وفيوضات النعمة.

أما وقت العصر: فهو يشبه موسم الخريف، وزمن الشيخوخة، وعصر السعادة الذي هو عصر خاتم الرسل محمد عليه الصلاة والسلام، ويذكّر ما في ذلك كله من الشؤون الإلهية والآلاء الرحمانية.

أما وقت المغرب: فأنه يذكّر بغروب أغلب المخلوقات وأُفولها نهاية الخريف، ويذكّر أيضاً بوفاة الانسان، وبدمار الدنيا عند قيام الساعة، ومع ذلك فهو يعلّم التجليات الجلالية، ويوقظ الانسان من نوم الغفلة وينبهه.

أما وقت العشاء: فيذكّر بغشيان عالم الظلام وستره آثار عالم النهار بكفنه الاسود، ويذكّر ايضاً بتغطية الكفن الابيض للشتاء وجه الارض الميتة، وبوفاة حتى

آثار الانسان المتوفى ودخولها تحت ستار النسيان، وبانسداد أبواب دار امتحان الدنيا نهائياً، ويعلن في ذلك كله تصرفات جلالية للقهار ذي الجلال.

اما وقت الليل: فانه يذكّر بالشتاء، وبالقبر، وبعالم البرزخ، فضلاً عن انه يذكّر روح الانسان بمدى حاجتها الى رحمة الرحمن.

أما التهجد في الليل: فانه يذكّر بضرورته ضياء لليل القبر، ولظلمات عالم البرزخ، وينبّه ويذكّر بنعم غير متناهية للمنعم الحقيقي عبر هذه الانقلابات، ويعلن ايضاً عن مدى أهلية المنعم الحقيقي للحمد والثناء.

أما الصباح الثاني: فانه يذكّر بصباح الحشر. نعم، كما ان مجئ الصبح لهذا الليل، ومجئ الربيع لهذا الشتاء معقول وضروري وحتمي، فان مجئ صباح الحشر وربيع البرزخ هما بالقطعية والثبوت نفسيهما.

فكل وقت اذن ـ من هذه الاوقات الخمسة ـ بداية انقلاب عظيم، ويذكّر بانقلابات اخرى عظيمة، فهو يذكّر ايضاً بمعجزات القدرة الصمدانية وهدايا الرحمة الإلهية سواء منها السنوية أو العصرية أو الدهرية، باشارات تصرفاتها اليومية العظيمة.

أي ان الصلاة المفروضة التي هي وظيفة الفطرة واساس العبودية والدَّين المفروض، لائقة جداً ومناسبة جداً في ان تكون في هذه الاوقات حقاً.

– النكتة الخامسة:

ان الانسان بفطرته ضعيف جداً، ومع ذلك فما اكثر المنغصات التي تورثه الحزن والألم، وهو في الوقت نفسه عاجز جداً، مع ان اعداءه ومصائبه كثيرة جداً، وهو فقير جداً مع ان حاجاته كثيرة وشديدة، وهو كسول وبلا اقتدار مع ان تكاليف الحياة ثقيلة عليه، وانسانيته جعلته يرتبط بالكون جميعاً مع ان فراقَ ما

يحبه وزوال ما يستأنس به يؤلمانه، وعقله يريه مقاصد سامية وثماراً باقية، مع ان يده قصيرة، وعمره قصير، وقدرته محدودة وصبره محدود.

فروح الانسان في هذه الحالة (في وقت الفجر) احوج ما تكون الى أن تطرق . بالدعاء والصلاة . باب القدير ذي الجلال، وباب الرحيم ذي الجمال، عارضةً حالها أمامه، سائلة التوفيق والعون منه سبحانه، وما اشد افتقار تلك الروح الى نقطة استناد كي تتحمل ما سيأتي امامها من اعمال، وما ستحمل على كاهلها من وظائف في عالم النهار الذي يعقبه. الا يُفهم ذلك بداهةً؟

(وعند وقت الظهر) ذلك الوقت الذي هو ذروة كمال النهار وميلانه الى الزوال، وهو أوان تكامل الاعمال اليومية، وفترة استراحة موقتة من عناء المشاغل، وهو وقت حاجة الروح الى التنفس والاسترواح مما تعطيه هذه الدنيا الفانية والاشغال المرهقة الموقتة من غفلةٍ وحيرةٍ واضطراب فضلاً عن انه أوان تظاهر الآلاء الإلهية.

فخلاصُ روح الانسان من تلك المضايقات، وانسلالها من تلك الغفلة والحيرة، وخروجها من تلك الأمور التافهة الزائلة، لا يكون إلاّ بالالتجاء الى باب القيوم الباقي . وهو المنعم الحقيقي . بالتضرع والتوسل امامه مكتوف اليدين شاكراً حامداً لمحصّلة نِعَمه المتجمعة، مستعيناً به وحده، مع اظهار العجز امام جلاله وعظمته بالركوع، واعلان الذل والخضوع . باعجاب وتعظيم وهيام . بالسجود امام كماله الذي لا يزول، وأمام جماله الذي لا يحول.. وهذا هو اداء صلاة الظهر، فما اجملها، وما ألذَّها، وما أجدرها، وما أعظم ضرورتها!. ومن ثم فلا يحسبنّ الانسان نفسه انساناً إن كان لا يفهم هذا.

(وعند وقت العصر): الذي يذكّر بالموسم الحزين للخريف، وبالحالة المحزنة للشيخوخة، وبالايام الأليمة لآخر الزمان، وبوقت ظهور نتائج الاعمال اليومية.

فهو فترة حصول المجموع الكلي الهائل للنعم الإلهية، أمثال التمتع بالصحة والتنعم بالعافية، والقيام بخدمات طيبة. وهو كذلك وقت الاعلان بان الانسان ضيف مأمور، وبأن كل شئ يزول وهو بلا ثبات ولا قرار، وذلك بما يشير اليه انحناء الشمس الضخمة الى الأُفول.(**الكلمات، الكلمة التاسعة**)

حكمة الأعداد غير المتناهية في الأذكار

يا نفس: إن وظائف العبودية وتكاليفها ليست مقدمة لثواب لاحق، بل هي نتيجة لنعمة سابقة.

نعم؛ نحن قد أخذنا أجرتنا من قبل، وأصبحنا بحسب تلك الأجرة المقدمة لنا مكلفين بالخدمة والعبودية؛ ذلك:

لان الخالق ذا الجلال والإكرام الذي ألبسك - أيتها النفس - الوجود وهو الخير المحض قد أعطاك باسمه »الرزاق« معدة تتذوّقين وتتلذذين بجميع ما فرشه أمامك على مائدة النعمة من مأكولات. ثم انه وهب لك حياة حساسة، فهي كالمعدة تطلب رزقا لها، فوضع أمام حواسك من عين وأذن وهي كالأيدي مائدة نعمة واسعة سعة سطح الأرض. ثم وهب لك إنسانية تطلب بدورها أرزاقاً معنوية كثيرة، ففتح أمام معدة الإنسانية آفاق الملك والملكوت بمقدار ما يصل إليه العقل.

وبما وهب لك من الإسلام والإيمان الذي هو »الإنسانية الكبرى« والذي يطلب نعماً لا نهاية لها، ويتغذى على ثمار الرحمة التي لا تنفد، فتح لك مائدة النعمة والسعادة واللذة الشاملة للأسماء الحسنى، والصفات الربانية المقدسة، ضمن دائرة الممكنات. ثم أعطاك المحبة التي هي نور من أنوار الإيمان، فأحسن إليك بمائدة نعمة وسعادة ولذة لا تنتهي أبداً.

بمعنى انك قد أصبحت -بإحسانه سبحانه وتعالى - بحسب جسمك الصغير

المحدود المقيد الذليل العاجز الضعيف من جزء إلى كلّي، والى كلّ نوراني، إذ قد رفعك من الجزئية إلى نوع من الكلية، بما أعطاك »الحياة« ، ثم إلى الكلية الحقيقية، بما وهب لك »الإنسانية«، ثم إلى الكلية النورانية السامية بما أحسن إليك »الإيمان« ومنها رفعك إلى النور المحيط الشامل بما أنعم عليك من »المعرفة والمحبة«.

فيا نفس!

لقد قبضت مقدماً كل هذه الأجور والأثمان؛ ثم كلّفت بالعبودية وهي خدمة لذيذة وطاعة طيبة بل مريحة خفيفة؛ أفبعد هذا تتكاسلين عن أداء هذه الخدمة العظيمة المشرفة؟ وتقولين بدلال: لِمَ لا يقبل دعائي. حتى إذا ما قمت بالخدمة بشكل مهلهل تطالبين بأجرة عظيمة أخرى، وكأنك لم تكتفي بالأجرة السابقة؟

نعم؛ انه ليس من حقك الدلال أبداً، وإنما من واجبك التضرع والدعاء، فالله سبحانه وتعالى يمنحك الجنة والسعادة الأبدية بمحض فضله وكرمه، لذا فالتجئي إلى رحمته، واعتمدي عليها، ورددى هذا النداء العلوي الرباني:

(قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خيرٌ مما يجمعون) (يونس:٥٨)

وإذا قلت: كيف يمكنني أن أقابل تلك النعم الكلية التي لا تحد بشكري المحدود الجزئي؟

فالجواب: بالنية الكلية، وبالاعتقاد الجازم الذي لا حدّ له.

فمثلاً: إن رجلا يدخل إلى ديوان السلطان بهدية زهيدة متواضعة بقيمة خمسة فلوس، ويشاهد هناك هدايا مرصوصة تقدر أثمانها بالملايين أرسلت إلى السلطان

من قبل ذوات مرموقين. فعندها يناجي نفسه: ماذا أعمل؟ إن هديتي زهيدة ولا شيء! إلاّ انه يستدرك ويقول فجأة :

- يا سيدي؛ إنني اقدم لك جميع هذه الهدايا باسمي، فانك أهل لها، ويا سيدي العظيم، لو كان باستطاعتي أن اقدّم لك أمثال هذه الهدايا الثمينة لما ترددت.

وهكذا فالسلطان الذي لا حاجة له إلى أحد والذي يقبل هدايا رعاياه رمزاً يشير إلى مدى إخلاصهم وتعظيمهم له، يقبل تلك الهدية المتواضعة جداً من ذلك الرجل المسكين كأنها أعظم هدية، وذلك بسبب تلك النية الخالصة منه، والرغبة الصادقة، واليقين الجازم الجميل السامي.

وهكذا، فالعبد العاجز عندما يقول في الصلاة: (التحيات لله) ينوى بها:

إنني ارفع إليك يا إلهي باسمي هدايا العبودية لجميع المخلوقات - التي هي حياتها - فلو كنت أستطيع أن اقدم التحيات إليك يا ربي بعددهم لما أحجمت ولا ترددت، فانك أهلٌ لذاك، بل اكثر.

فهذه النية الصادقة والاعتقاد الجازم، هي الشكر الكلي الواسع.

ولنأخذ مثلاً من النباتات حيث النوى والبذور فيها بمثابة نيّاتها. فالبطيخ مثلاً يقول بما ينوى من آلاف النوى التي في جوفه: يا خالقي إنني على شوق ورغبة أن أعلن نقوش أسمائك الحسنى في أرجاء الأرض كلها.

وحيث إن الله سبحانه وتعالى يعلم ما يحدث وكيف يحدث، فانه يقبل النية الصادقة كأنها عبادة فعلية، أي كأنها حدثت. ومن هنا تعلم كيف أن نية المؤمن

خير من عمله، وتفهم كذلك حكمة التسبيح بأعداد غير نهائية في مثل:

(سبحانك وبحمدك عدد خلقك ورضاء نفسك وزنة عرشك ومداد كلماتك)[١٣] ونسبحك بجميع تسبيحات أنبيائك وأوليائك وملائكتك.

فكما أن الضابط المسؤول عن الجنود يقدم أعمالهم وإنجازاتهم إلى السلطان باسمه، كذلك هذا الإنسان الذي هو ضابط على المخلوقات، وقائد للنباتات والحيوانات، ومؤهل ليكون خليفة على موجودات الأرض، ويعدّ نفسه مسؤولاً ووكيلاً عمّا يحدث في عالمه الخاص.. يقول بلسان الجميع: إياك نعبد وإياك نستعين فيقدّم إلى المعبود ذي الجلال جميع عبادات الخلق واستعاناتهم.. ويجعل الموجودات قاطبة كذلك تتكلم باسمه وذلك عند قوله:

سبحانك بجميع تسبيحات جميع مخلوقاتك، وبألسنة جميع مصنوعاتك.

ثم إنه يصلي على النبي (صلى الله عليه وسلم) باسم جميع الأشياء على الأرض:

اللّهم صلّ على محمد بعدد ذرات الكائنات ومركباتها.. إذ ان كل شيء في الوجود له علاقة مع النور المحمدي عليه الصلاة والسلام.

وهكذا افهم حكمة الأعداد غير النهائية في التسبيحات والصلوات.

الثمرة الثالثة:

فيا نفس! إن كنت حقاً تريدين أن تنالي عملاً أخروياً خالداً في عمر قصير؟

---

[١٣] حديث صحيح أخرجه احمد في المسند ٦/ ٣٢٥ و ٤٢٩ - ٤٣٠ ومسلم برقم ٢٧٢٦ والترمذي ٣٦٢٦ تحفة. وقال: هذا حديث حسن صحيح وأبو داود ٢٥٠٣ والنسائي ٧٧/٤ وابن ماجه - المترجم.

وان كنت حقاً تريدين أن تري فائدة في كل دقيقة من دقائق عمرك كالعمر الطويل؟ وان كنت حقاً تريدين أن تحوّلي العادة إلى عبادة وتبدلي غفلتك إلى طمأنينة وسكينة. فاتبعي السنّة النبوية الشريفة.. ذلك: لأن تطبيق السنّة والشرع في معاملةٍ ما ، يورث الطمأنينة والسكينة، ويصبح نوعاً من العبادة، بما يثمر من ثمرات أخروية كثيرة.

فمثلاً: إذا ابتعت شيئاً، ففي اللحظة التي تطبق الأمر الشرعي - الإيجاب والقبول - فان جميع هذا البيع والشراء يأخذ حكم العبادة حيث تذكرك بالحكم الشرعي، مما يعطي تصوّراً روحياً، وهذا التصور يذكرك بالشارع الجليل سبحانه، أي يعطي توجهاً إلهياً. وهذا هو الذي يسكب السكينة والطمأنينة في القلب.

أي إن إنجاز الأعمال وفق السنة الشريفة يجعل العمل الفاني القصير مداراً للحياة الأبدية، ذات ثمار خالدة. لذا فانصتي جيداً إلى قوله تعالى:

(فآمنوا باللّه ورسوله النبي الأمّي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون) (الأعراف:١٥٨) واسعي أن تكوني مظهراً جامعاً شاملاً لفيض تجلٍ لكل اسم من تجليات الأسماء الحسنى المنتشرة في أحكام السنة الشريفة والشرع.

(الكلمات، الكلمة/٢٤، الثمرة الثانية والثالثة)

* * *

لقد قلت لأحد إخواننا الذي اظهر تكاسلا وفتوراً في قراءة الأذكار بعد الصلاة:

أن تلك الأذكار والأوراد عقب الصلاة هي سنة نبوية مطهرة وطريقة محمدية

شريفة، وهي أوراد الولاية الأحمدية، فأصبحت أهميتها من هذه الزاوية عظيمة.

ثم وضحت حقيقة هذا القول بهذا الشكل:

مثلما إن الولاية الأحمدية التي انقلبت إلى الرسالة هي فوق جميع الولايات قاطبة، فان طريقة تلك الولاية الكبرى وأذكارها عقب الصلاة هي فوق سائر الطرق والأوراد بالدرجة نفسها. ثم انكشف هذا السر كما يأتي:

كما أن كل ذاكر في حلقة الذكر، أو في ختمة الذكر في المسجد. يشعر برابطة روحية، تربطه بمن حوله، فيحسون جميعا بحالة روحية نورانية، فان ذا القلب اليقظ يحس إحساساً روحيا كلما سبّح بـ »سبحان الله.. سبحان الله .. سبحان الله..« بعد الصلاة، انه في حلقة ذكر مع مائة مليون من المسبّحين الذاكرين، كأنهم بين يدي الرسول (صلى الله عليه وسلم)، الذي يترأس تلك الحلقة الذاكرة المترامية الأطراف.

فبهذه الأحاسيس الشاعرة بالعظمة والهيبة والرفعة والعلو يكرر المؤمن: »سبحان الله.. سبحان الله«.

ثم انه عندما يردد »الحمد لله.. الحمد لله..« بأمر معنوي صادر من ذلك السيد الكريم (صلى الله عليه وسلم) فانه يتأمل ويفكر في عظمة تلك الكلمة »الحمد لله« المنطلقة من صدور مائة مليون من المرددين في تلك الحلقة الواسعة الشاسعة، فيشترك معهم بقوله: »الحمد لله.. الحمد لله.. الحمد لله..«

وهكذا، مع كلمة »الله اكبر.. الله اكبر..« ومع »لا اله إلا الله .. لا اله إلا الله« ثلاثاً وثلاثين مرة، حيث يختم الذكر..

وبعد إتمام هذه الأذكار اللطيفة بتلك المعاني والتأمل الأخوي يتوجه إلى سيد الحلقة الذاكرة وهو الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) حاملا معه تلك المعاني المذكورة مع إخوانه في حلقة الذكر قائلا:

ألف ألف صلاة وألف ألف سلام عليك يا رسول الله.

أجل، هكذا أحسست، وهكذا فهمت، بل هكذا رأيت خيالا، لذلك أقول:

إن الأذكار عقب الصلاة، لها أهمية كبرى. (**الملاحق، ملحق قسطموني)**

وإليك يا أخي هذه الخاطرة الجميلة

حينما كنت اقرأ جملة «ألف ألف صلاة وألف ألف سلام عليك يا رسول الله» عقب الصلاة، تراءت لي من بعيد خاطرة لطيفة إنكشفت من تلك الصلوات، إلا أنني لم أتمكن من إقتناصها كاملة، ولكن سأشير إلى بعض جملها:

رأيت أن عالم الليل شبيه بمنزل جديد يفتح لدار الدنيا.. دخلت ذلك العالم في صلاة العشاء، ومن إنبساط فوق العادة للخيال وبحكم إرتباط ماهية الإنسان مع الدنيا قاطبة رأيت أنَّ هذه الدنيا العظيمة قد أصبحت في ذلك الليل منزلا صغيراً جداً حتى لا يكاد يرى ما فيه من بشر وذوي حياة. ورأيت خيالاً أن ليس هناك من ينور ذلك المنزل إلا الشخصية المعنوية للرسول (صلى الله عليه وسلم)حتى امتلأت أرجاؤه بهجة وأنساً وسروراً.

وكما يبدأ الشخص بالسلام عند دخوله المنزل، كذلك وجدت في نفسي شوقاً هائلاً ورغبة جياشة إلى القول: ألف ألف سلام عليك يا رسول الله ..

[١٤] ومن هنا وجدت نفسي كأنني أُسلم عليه بعدد الإنس والجن واعبر بسلامي هذا عن تجديد البيعة له والرضى برسالته وقبولها منه وإطاعة القوانين التي أتى بها، والتسليم لأوامره وسلامته من بلايانا. أي كأنني اقدم هذا السلام - ناطقاً تلك المعاني - باسم كل فرد من أفراد عالمي وهم ذوو الشعور من جن وانس، وجميع المخلوقات.

وكذا فان ما جاء به من النور العظيم والهدية الغالية ينور عالمي الخاص هذا كما ينور العالم الخاص لكل أحد في هذه الدنيا، فيحوّل عالمنا إلى عالم زاخر بالنعم. فقلت تجاه هذه النعمة الهائلة: «اللهم أنزل ألف صلاة عليه» علّها تكون شكراناً وعرفانا للجميل على ذلك النور الحبيب والهدية الغالية، إذ إننا لا نستطيع أن نرد جميله وإحسانه إلينا أبداً، فأظهرنا تضرعنا إلى الله جل وعلا بالدعاء والتوسل كي ينزل من خزائن رحمته رحمة عليه بعدد أهل السماوات جميعاً.. هكذا أحسست خيالاً.

فهو (صلى الله عليه وسلم) يطلب صلاة بمعنى «الرحمة» من حيث هو

---

[١٤] ذلك لان الرحمة النازلة على الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم)هي متوجهة لحاجة الأمة قاطبة في زمن ابدي، لذا فالصلاة غير المتناهية التي تهدى إليه منسجمة جداً.

فلو دخل شخص بيتاً خالياً مظلماً موحشاً -كالدنيا المظلمة الموحشة بالغفلة- كم سيأخذه الرعب والدهشة والاضطراب؟ ولكن كم يسرّه ويؤنسه ويفرحه وينوره لو رأى أن شخصاً قد تصدر ذلك البيت يعرّفه بجميع ما فيه؟ فما بالك لو كان هذا الشخص هو الحبيب المحبوب والأنيس المأنوس وهو الرسول العظيم (صلى الله عليه وسلم)، متصدر بيت العالم، يعرف لنا المالكَ الرحيمَ الكريمَ بما فيه من أشياء.

قس هكذا لكي تقدر بنفسك قيمة الصلوات عليه ولذتها. - المؤلف.

«عبد» ومتوجه من الخلق إلى الحق سبحانه. ويستحق «السلام» من حيث أنه «رسول» من الحق سبحانه إلى الخلق.

وكما أننا نرفع إليه سلاماً بعدد الإنس والجن، ونجدد له البيعة العامة بعددها أيضاً، فانه (صلى الله عليه وسلم) يستحق أيضاً صلاة من خزائن الرحمة الإلهية بعدد أهل السماوات، وباسم كل واحد منهم؛ ذلك لان النور الذي جاء به هو الذي يظهر كمال كل شئ في الوجود، ويُبرز قيمة كل موجود، وتُشاهد به الوظيفة الربانية لكل مخلوق، وتتجلى به المقاصد الإلهية من كل مصنوع. لذلك لو كان لكل شيء لسان لكان يردد قولاً كما يردد حالاً: الصلاة والسلام عليك يا رسول الله.. فنحن بدورنا نقول بدلاً عن المخلوقات كافة:

– ألف ألف صلاة وألفُ ألف سلام عليك يا رسول الله بعدد الإنس والجن وبعدد الملك والنجوم.

فيكفيك أن الله صلى بنفسه وأملاكه صلت عليه وسلمت

(اللمعات، اللمعة/٢٨)

الدعاء مفتاح خزينة الرحمة

إنَّ الإيمان يجعل الإنسان إنساناً حقاً، بل يجعله سلطاناً؛ لذا كانت وظيفتُه الأساس؛ الإيمانُ بالله تعالى والدعاء إليه. بينما الكفرُ يجعل الإنسانَ حيواناً مفترساً في غاية العجز.

وسنورد هنا دليلاً واضحاً وبرهاناً قاطعاً من بين آلاف الدلائل على هذه المسألة، وهو: التفاوتُ والفروقُ بين مجيء الحيوان والإنسان إلى دار الدنيا.

نعم، إن التفاوتَ بين مجيء الحيوان والإنسان إلى هذه الدنيا يدل على أن اكتمالَ الإنسانيةِ وارتقاءها إلى الإنسانية الحقة إنما هو بالإيمان وحدَه؛ وذلك لأن الحيوانَ حينما يأتي إلى الدنيا يأتي إليها كأنه قد أكتملَ في عالمٍ آخرٍ، فيرُسَلُ إليها متكاملاً حسب استعداده. فيتعلم في ظرف ساعتين أو يومين أو شهرين جميعَ شرائط حياته وعلاقاته بالكائنات الأخرى وقوانينَ حياته، فتحصلُ لديه مَلَكةٌ؛ فيتعلّم العصفورُ أو النحلةُ -مثلاً- القدرةَ الحياتية والسلوكَ العملي عن طريق الإلهامِ الرباني وهدايتِه سبحانه. ويحصلُ في عشرين يوماً على ما لا يتعلّمه الإنسان إلاّ في عشرين سنة. إذن الوظيفةُ الأساس للحيوان ليست التكمّل والإكتمال بالتعلّم، ولا الترقي بكسب العلم والمعرفة، ولا الاستعانة والدعاء بإظهار العجز. وإنما وظيفتُه الأصلية: العملُ حسب استعداده، أي العبودية الفعلية.

أما الإنسان فعلى العكس من ذلك تماماً، فهو عندما يَقْدِم إلى الدنيا يقدِمُها وهو محتاجٌ إلى تعلّم كل شيء وإدراكه؛ إذ هو جاهلٌ بقوانين الحياة كافةً جهلاً مطبقاً، حتى أنه قد لا يستوعب شرائطَ حياته خلال عشرين سنة. بل قد يبقى محتاجاً إلى التعلم والتفهّم مدى عمره. فضلاً عن أنه يُبعَث إلى الحياة وهو في غاية الضَعف والعَجز حتى أنه لا يتمكن من القيام منتصباً إلاّ بعد سنتين من عمره، ولا يكاد يميّز النفعَ من الضرّ إلاّ بعد خمس عشرة سنة، ولا يمكنه أن يحقّق لنفسه منافع حياته ومصالحَها ولا دفعَ الضرر عنها

إلاّ بالتعاون والإنخراط في الحياة الاجتماعية البشرية.

يتضح من هذا أن وظيفة الإنسان الفطرية إنما هي التكمّل "بالتعلم" أي الترقي عن طريق كسب العلم والمعرفة، والعبودية "بالدعاء". أي أن يدرك في نفسه ويستفسر: "برحمةِ مَنْ وشَفقته أُدارى بهذه الرعاية الحكيمة؟! وبمَكْرَمةِ مَنْ وسخائِه أُربّى هذه التربية المفعمةَ بالشفقة والرحمة؟ وبألطافِ مَنْ وجُودِه أُغذّى بهذه الصورة الرازقة الرقيقة؟!". فيرى أنّ وظيفتَه حقاً هو الدعاءُ والتضرعُ والتوسلُ والرجاءُ بلسان الفقر والعجز إلى قاضي الحاجات ليقضي له طلباته وحاجاته التي لا تصل يدُه إلى واحدةٍ من الألفِ منها. وهذا يعني أن وظيفته الأساس هي التحليق والارتفاع بجناحَي "العجز والفقر" إلى مقام العبودية السامي.

إذن فلقد جيء بهذا الإنسان إلى هذا العالم لأجل أن يتكاملَ بالمعرفة والدعاء؛ لأن كل شيء فيه موجَّهٌ إلى العلم ومتعلقٌ بالمعرفة حسبَ الماهية والإستعداد. فأساسُ كلِّ العلوم الحقيقية ومعدنُها ونورُها وروحُها هو "معرفة الله تعالى" كما أن أُسَّ هذا الأساس هو "الإيمانُ بالله جل وعلا".

وحيث إن الإنسان متعرضٌ لما لا يُحصى من أنواع البلايا والمصائب ومهاجمة الأعداء لما يحمل من عجزٍ مطلقٍ. وله مطالبٌ كثيرةٌ وحاجاتٌ عديدة مع أنه في فقرٍ مدقع لا نهاية له؛ لذا تكون وظيفتُه الفطريةُ الأساس "الدعاءَ" بعد الإيمان، وهو أساسُ العبادة ومخُّها. فكما يلجأ الطفلُ العاجزُ عن تحقيق مرامه أو تنفيذ رغبته بما لا تصل إليه يدُه، إلى البكاء والعويل أو يطلب مأمولَه، أي يدعو بلسان عجزه إما قولاً أو فعلاً فيوفَّق إلى مقصوده ذاك، كذلك الإنسان الذي هو ألطفُ أنواع الأحياء وأعجزُها وأفقرُها وهو بمنزلة صبيٍّ ضعيفٍ لطيفٍ، فلابدّ له من أنْ يأوي إلى كنفِ الرحمن الرحيم والإنطراحَ بين يديه إما باكياً معبراً عن ضعفه وعجزه، أو داعياً بفقره واحتياجه، حتى تُلَبّى حاجتُه وتُنفَّذ رغبتُهُ. وعندئذٍ يكون قد أدّى شكرَ تلك الإغاثات والتلبيات والتسخيرات. وإلاّ إذا قال بغرورٍ كالطفل الأحمق: "أنا

أتمكن أن أُسخّرَ جميع هذه الأشياء واستحوذَ عليها بأفكاري وتدبيري" وهي التي تفوق ألوف المرات قوتَه وطاقتَه! فليس ذلك إلاّ كفرانٌ بنِعَم الله تعالى، ومعصيةٌ كبيرة تُنافي الفطرةَ الإنسانية وتناقضُها، وسببٌ لجعل نفسه مستحقّاً لعذابٍ أليمٍ.

كما أن الإيمان يقتضي "الدعاء" ويتّخذُه وسيلةً قاطعةً ووساطةً بين المؤمن وربّه، وكما أن الفطرةَ الإنسانية تتلهف إليه بشدةٍ وشوق، فإن الله سبحانه وتعالى أيضاً يدعو الإنسان إلى الأمر نفسه بقوله: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾(الفرقان: ٧٧) وبقوله تعالى: ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾(غافر: ٦٠).

ولعلك تقول: "إننا كثيراً ما ندعو الله فلا يُستجابُ لنا رغم أن الآيةَ عامةٌ تُصرّح بأنّ كل دعاءٍ مستجابٌ".

الجواب:

إنَّ استجابةَ الدعاء شيءٌ، وقبولَه شيءٌ آخر. فكلُّ دعاءٍ مستجابٌ، إلاّ أن قبولَه وتنفيذَ المطلوب نفسه منوطٌ بحكمةِ الله سبحانه.

فمثلاً: يستصرخ طفلٌ عليل الطبيبَ قائلاً: أيها الطبيب انظرْ إليّ واكشِفْ عني.

فيقول الطبيب: أمرُك يا صغيري. فيقول الطفل:

اعطني هذا الدواء. فالطبيبُ حينذاك إمّا أنه يُعطيه الدواء نفسَه، أو يعطيه دواءً أكثر نفعاً وأفضل له، أو يمنع عنه العلاجَ نهائياً. وذلك حسبما تقتضيه الحكمةُ والمصلحةُ.

وكذلك الحق تبارك وتعالى (وله المثل الأعلى) فلأنه حكيمٌ مطلقٌ ورقيبٌ حسيبٌ في كل آن، فهو سبحانه يستجيب دعاءَ العبد، وباستجابته يُزيل وحشَته القاتمةَ وغربتَه الرهيبة، مُبدلاً إياها أملاً وأُنساً واطمئناناً. وهو سبحانه

إما أنه يَقبل مَطلبَ العبد ويستجيب لدعائه نفسه مباشرة، أو يمنحه أفضلَ منه، أو يردّه، وذلك حسب اقتضاء الحكمة الربانية، لا حسبَ أهواء العبد المتحكمة وأمانيّه الفاسدة.

وكذا، فالدعاء هو ضربٌ من العبودية، وثمارُ العبادة وفوائدُها أخرويةٌ. أما المقاصدُ الدنيوية فهي "أوقاتُ" ذلك النوع من الدعاء والعبادة، وليست غاياتها.

فمثلاً: صلاةُ الإستسقاء نوعٌ من العبادة، وانقطاع المطر هو وقتُ تلك العبادة. فليست تلك العبادةُ وذلك الدعاء لأجل نزولِ المطر. فلو أُدّيَتْ تلك العبادةُ لأجل هذه النية وحدَها إذن لكانت غير حريّة بالقبول، حيث لم تكن خالصةً لوجه الله تعالى..

وكذا وقتُ غروبِ الشمس هو إعلانٌ عن صلاة المغرب، ووقتُ كسوف الشمس وخسوف القمر هو وقتُ صلاةِ الكسوف والخسوف. أي أن الله سبحانه يدعو عبادَه إلى نوعٍ من العبادة لمناسبة انكساف آية النهار وانخساف آية الليل اللتين تومئان وتُعلنان عظمتَهُ سبحانه. وإلاّ فليست هذه العبادة لانجلاء الشمس والقمر الذي هو معلومٌ عند الفلكي..

فكما أن الأمر في هذا هكذا فكذلك وقتُ انحباس المطر هو وقتُ صلاةِ الاستسقاء، وتهافتُ البلايا وتسلطُ الشرور والأشياء المضرة هو وقتُ بعض الأدعية الخاصة، حيث يدرك الإنسانُ حينئذٍ عجزَه وفقرَه فيلوذ بالدعاء والتضرع إلى باب القدير المطلق. وإذا لم يدفع اللهُ سبحانه تلك البلايا والمصائبَ والشرور مع الدعاء الملحّ، فلا يُقالُ: إن الدعاءَ لم يُستجبْ، بل يقال: إنّ وقت الدعاء لم ينقضِ بعدُ. وإذا ما رفع سبحانه بفضله وكرمه تلك البلايا وكشفَ الغمةَ فقد انتهى وقتُ الدعاء إذن وانقضى.

وبهذا فالدعاء سرٌ من أسرار العبودية. والعبودية لابد أن تكون خالصةً لوجه الله، بأن يأوي الإنسانُ إلى ربّه بالدعاء مُظهراً عجزَه، مع عدم التدخل في إجراءات ربوبيته، أو الاعتراض عليها، وتسليمُ الأمر والتدبير كلّه إليه

وحدَه، مع الإعتماد على حكمته من دون اتهامٍ لرحمته ولا القنوط منها.

نعم! لقد ثبت بالآيات البيّنات أن الموجودات في وضعٍ تسبيحٍ لله تعالى؛ كلٌ بتسبيحٍ خاصٍ، في عبادة خاصة، في سجود خاص، فتتمخض عن هذه الأوضاع العبادية التي لا تعدّ ولا تحصى سبُلُ الدعاء المؤدية إلى كنف ربٍّ عظيم.

إما عن طريق **لسان الإستعداد والقابلية؛** كدعاء جميع النباتات والحيوانات قاطبة، حيث يبتغي كلُّ واحدٍ منهما من الفيّاض المطلق صورةً معينةً له فيها معانٍ لأسمائه الحسنى.

أو عن طريق **لسان الحاجة الفطرية** كأدعية جميع أنواع الأحياء للحصول على حاجاتها الضرورية التي هي خارجةٌ عن قدرتها، فيطلب كلُّ حيٍ من الجواد المطلق؛ بلسان حاجته الفطرية عناصرَ استمرار وجوده التي هي بمثابة رزقها.

أو عن طريق **لسان الإضطرار**، كدعاء المضطرّ الذي يتضرع تضرعاً كاملاً إلى مولاه المغيب، بل لا يتوجّه إلاّ إلى ربّه الرحيم الذي يلّبي حاجته ويقبل التجاءَه.

فهذه الأنواع الثلاثة من الدعاء مقبولةٌ إن لم يطرأ عليها ما يجعلُها غير مقبولة.

والنوع **الرابع** من الدعاء، هو دعاؤنا المعروف، فهو أيضاً نوعان:

أحدهما: دعاءٌ فعلي وحالي.

وثانيهما: دعاءٌ قلبي وقولي.

فمثلاً: الأخذُ بالأسباب هو دعاء فعلي، علماً أنَّ اجتماع الأسباب ليس المرادُ منه إيجاد المسبَّب. وإنما هو لاتخاذ وضعِ ملائمٍ ومُرضٍ لله سبحانه لِطَلَب المسبَّب منه بلسان الحال. حتى أن الحراثةَ بمنزلةِ طَرْقِ بابِ خزينةِ الرحمةِ الإلهية. ونظراً لكون هذا النوع من الدعاء الفعلي موجّهٌ نحو اسم "الجواد"

المطلق وإلى عنوانه فهو مقبولٌ لا يُردُّ في أكثر الأحيان.

أما القسم الثاني: فهو الدعاءُ باللسان والقلب. أي طلبُ الحصولِ على المطالب غير القابلة للتحقيق والحاجات التي لا تصلُ إليها اليدُ. فأهمُّ جهةٍ لهذا الدعاء وألطفُ غاياته وألذُّ ثمراته هو أن الداعي يُدرك أن هناك مَن يسمع خواطرَ قلبه، وتصل يدُه إلى كل شيء، ومَن هو القادرُ على تلبية جميع رغباته وآمالِه، ومَن يرحم عجزَه ويُواسي فقرَه.

فيا أيها الإنسان العاجز الفقير! إياك أن تتخلّى عن مفتاح خزينةِ رحمةٍ واسعةٍ ومصدر قوةٍ متينة، ألاَ وهو الدعاءُ. فتشبَّثْ به لترتقيَ إلى أعلى عليي الإنسانية، واجعل دعاءَ الكائنات جزءاً من دعائك. ومن نفسك عبداً كلياً ووكيلاً عاماً بقولك (إياكَ نَسْتَعينُ) وكن أحسنَ تقويمٍ لهذا الكون.(**الكلمات، الكلمة/٢٣، المبحث الأول، النقطة الرابعة والخامسة**)

في خبايا النفس البشرية

*تعديل الشفقة المفرطة

*كيف السبيل الى حب الله

*من دسائس الشيطان

* الوسوسة وعلاجها

* ما يسوق الى الرياء

تعديل الشفقة المفرطة

(حقيقة تعيد الصواب للمنساقين الى مسالك البدع والضلالة بشفقتهم المفرطة)

لما كانت شفقة الانسان تجلٍ من تجليات الرحمة الربانية، لا ينبغى تجاوز درجة الرحمة الالهية والمغالاة اكثر من رحمة من هو رحمة للعالمين صلى الله عليه وسلم، فلو تجاوزها وغالى بها فانها ليست رحمة ولا رأفة قط، بل هي مرض روحي وسقم قلبي يفضي الى الضلالة والالحاد.

فمثلاً: ان الإنسياق الى تأويل عذاب الكفار والمنافقين في جهنم، وما يترتب على الجهاد وامثالها من الحوادث - من جراء ضيق شفقة المرء عن استيعابه وعدم تحملها له - إنكار لقسم عظيم من القرآن الكريم والاديان السماوية وتكذيب له، وهو ظلم عظيم وعدم رحمة في منتهى الجور في الوقت نفسه؛ لان حماية الوحوش الكاسرة والعطف عليها، وهي التي تمزق الحيوانات البريئة، غدر عظيم تجاه تلك الحيوانات البريئة، ووحشية بالغة نابعة من فقدان الوجدان والضمير.

فالتعاطف اذن وموالاة اولئك الذين يبيدون حياة ألوف المسلمين الابدية ويمحونها، ويسوقون مئات المؤمنين الى سوء العاقبة بدفعهم الى ارتكاب الذنوب والخطايا، والدعاء لاولئك الكفار والمنافقين، رحمةً بهم وعطفاً عليهم لينجوا من العقاب الشديد، لاشك انه ظلم عظيم وغدر شنيع تجاه اولئك المؤمنين المظلومين.

وقد اثبتت رسائل النور اثباتاً قاطعاً: ان الكفر والضلالة تحقير عظيم للكائنات وظلم شنيع للموجودات، ووسيلة لرفع الرحمة الالهية ونزول المصائب والبلايا، حتى وردت روايات من ان الاسماك التي في قعر البحر تشكو الى الله ظلم الجناة، لسلبهم راحتها.

ولهذا فالذى يرأف ويعطف على تجرع الكافر صنوف العذاب في النار، يعني أنه لا يرأف ولا يعطف على أبرياء لا يحصيهم العد ممن هم أليق بالرأفة وأجدر بالعطف بل ولا يشفق عليهم، بل يظلمهم ظلماً فاضحاً.

ولكن هناك أمر آخر وهو:

ان البلاء عندما ينزل بالمستحقين له، يُبتلى به الابرياء ايضاً. وعندها لا يمكن عدم الرأفة بهم. الاّ ان هناك رحمة خفية لاولئك الابرياء المظلومين الذين تضرروا من ذلك البلاء النازل بالجناة.

ولقد كنت – في وقت ما في الحرب العالمية الاولى – أتألم كثيراً من المظالم والقتل الذي يرتكبه الاعداء تجاه المسلمين ولاسيما تجاه اطفالهم وعوائلهم، وكنت أتعذّب عذاباً يفوق طاقتي – لما فيّ من شفقة مفرطة ورأفة متزايدة – وحينها ورد على القلب فجأة الآتي:

ان اولئك الابرياء المقتولين يُستشهدون ويصبحون أولياء صالحين، وان حياتهم الفانية تُبدل الى حياة باقية، وان اموالهم الضائعة تصبح بحكم الصدقة فتبدل الى اموال باقية. بل حتى لو كان اولئك المظلومون كفاراً فان لهم من خزينة الرحمة الالهية مكافآت بالنسبة لهم كثيرة – مقابل ما عانوا من البلاء في الدنيا – بحيث لو رفع ستار الغيب فان ما ينالونه من رحمة ظاهرة يدفعهم الى ان يلهجوا بـ: الشكر لله والحمد لله.

عرفت هذا، واقتنعت به قناعة تامة، ونجوت بفضل الله من الألم الشديد الناشئ من الشفقة المفرطة.

(الملاحق ،ملحق قسطموني، ص:١٢٤-١٢٥)

كيف السبيل الى حب الله

سؤال مهم

تقولون:

ان المحبة ليست اختيارية، لا تقع تحت ارادتنا، فانا بمقتضى حاجتي الفطرية احب الاطعمة اللذيذة والفواكه الطيبة، وأحب والديّ وأولادي وزوجتي التي هي رفيقة حياتي، وأحب الأنبياء المكرمين والأولياء الصالحين، وأحب شبابي وحياتي وأحب الربيع وكل شئ جميل، وبعبارة أوجز أنا احب الدنيا، ولِمَ لا احب كل هذه؟.. ولكن كيف استطيع ان اقدّم جميع هذه الانواع من المحبة للّه، واجعل محبتي لأسمائه الحسنى ولصفاته الجليلة ولذاته المقدسة سبحانه؟ ماذا يعني هذا؟.

الجواب: عليك ان تستمع الى النكات الاربع الآتية:

- النكتة الاولى:

ان المحبة وان لم تكن اختيارية، الاّ انها يمكن ان يُحوَّل وجهُها بالارادة من محبوب الى آخر؛ كأن يظهرَ قبحُ المحبوب وحقيقته مثلاً، أو يُعرَف انه حجابٌ وستار لمحبوب حقيقي يستحق المحبة، أو مرآة عاكسة لجمال ذلك المحبوب الحقيقي، فعندها يمكن ان يُصرَف وجهُ المحبة من المحبوب المجازي الى المحبوب الحقيقي.

- النكتة الثانية:

نحن لا نقول لك: لا تحمل ودّاً ولا حباً لكل ما ذكرتَه آنفاً. وانما نقول اجعل محبتك لما ذكرته في سبيل الله ولوجهه الكريم:

فالتلذذ بالاطعمة الشهية وتذوق الفواكه الطيبة مع التذكر بأنها احسانٌ من الله سبحانه وإنعام من الرحمن الرحيم، يعني المحبة لإسم (الرحمن) واسم (المنعم)

من الاسماء الحسنى، علاوة على انه شكر معنوي. والذي يدلنا على ان هذه المحبة لم تكن للنفس والهوى بل لإسم (الرحمن) هو كسب الرزق الحلال مع القناعة التامة ضمن الدائرة المشروعة، وتناوله بالتفكر في انه نعمة من الله مع الشكر له.

ثم ان محبتك للوالدين واحترامهما، انما يعودان الى محبتك لله سبحانه؛ اذ هو الذي غرس فيهما الرحمة والشفقة حتى قاما برعايتك وتربيتك بكل رحمة وحكمة. وعلامة كونهما محبة لوجه الله تعالى، هي المبالغة في محبتهما واحترامهما عندما يبلغان الكبر، ولا يبقى لك فيهما من مطمع. فتُكثر من الشفقة عليهما والرحمة لهما رغم ما يشغلانك بالمشاكل ويثقلان كاهلك بالمشقة. فالآية الكريمة: { إمّا يَبْلُغَنّ عِندَكَ الكِبَرَ أحدُهما أو كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍ وَلاَ تَنْهَرهُما وَقُلْ لَهُما قَولاً كَرِيماً * وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِن الرَحمةِ وَقُلْ رَبِّ اِرحَمْهُما كَما رَبياني صَغيراً}(الاسراء:٢٣ .٢٤). تدعو الأولاد الى رعاية حقوق الوالدين في خمس مراتب، وتبين مدى اهمية برّهما وشناعة عقوقهما..

وحيث ان الوالد لا يقبل ان يتقدمه احد سوى إبنه اذ لا يحمل في فطرته حسداً إليه مما يسد على الولد طريق مطالبة حقه من الوالد؛ لأن الخصام إما ينشأ من الحسد والمنافسة بين اثنين او ينشأ من غمط الحق، فالوالد سليم معافى منهما فطرة، لذا لا يحق للولد إقامة الدعوى على والده، بل حتى لو رأى منه بغياً فليس له ان يعصيه ويعقّه. بمعنى ان من يعقّ والديه ويؤذيهما ما هو الاّ انسان ممسوخ حيواناً مفترساً.

أما محبة الاولاد فهي كذلك محبةٌ لله تعالى وتعود اليه، وذلك بالقيام برعايتهم بكمال الشفقة والرحمة بكونهم هبة من الرحيم الكريم. أما العلامة الدالة على كون تلك المحبة لله وفي سبيله فهي الصبر مع الشكر عند البلاء، ولا سيّما عند الموت والترفع عن اليأس والقنوط وهدر الدعاء بل يجب التسليم بالحمد عند القضاء.

كأن يقول: ان هذا المخلوق محبوب لدى الخالق الكريم، ومملوك له، وقد أمنَّني عليه لفترة من الزمن، فالآن اقتضت حكمته سبحانه أن يأخذه مني الى مكان آمن وأفضل. فان تك لي حصة واحدة ظاهرية فيه، فله سبحانه الف حصة حقيقية فيه. فلا مناص اذن من التسليم بحكم الله.

أما محبة الاصدقاء وودّهم، فان كانوا من اصحاب الايمان والتقوى فان محبتهم هي في سبيل الله وتعود اليه سبحانه بمقتضى (الحب في الله).

ثم ان محبة الزوجة وهي رفيقة حياتك، فعليك بمحبتها على أنها هدية أنيسة لطيفة من هدايا الرحمة الإلهية. واياك ان تربط محبتك لها برباط الجمال الظاهري السريع الزوال، بل اوثقها بالجمال الذي لا يزول ويزداد تألقاً يوماً بعد يوم، وهو جمال الاخلاق والسيرة الطيبة المنغرزة في انوثتها ورقّتها. وان احلى ما فيها من جمال واسماه هو في شفقتها الخالصة النورانية. فجمال الشفقة هذا، وحُسن السيرة يدومان ويزدادان الى نهاية العمر. وبمحبتهما تُصان حقوق هذه المخلوقة اللطيفة الضعيفة، والاّ تفقد حقوقها في وقت هي احوج ما تكون اليها، بزوال الجمال الظاهري.

أما محبة الانبياء عليهم السلام والأولياء الصالحين فهي ايضاً لوجه الله وفي سبيله من حيث انهم عباد الله المخلصون المقبولون لديه جل وعلا. فمن هذه الزاوية تصبح تلك المحبة للّه.

والحياة ايضاً التي وهبها الله سبحانه وتعالى لك وللأنسان، هي رأس مال عظيم تستطيع أن تكسب به الحياة الأُخروية الباقية. وهي كنز عظيم يحوي اجهزة وكمالات خالدة.. من هنا فالمحافظة عليها ومحبتها من هذه الزواية، وتسخيرها في سبيل المولى عزوجل تعود الى الله سبحانه ايضاً.

ثم ان محبة الشباب وجماله ولطافته، وتقديره من حيث انه نعمة ربانية جميلة، ثم العمل على حسن استخدامه، هي محبة مشروعة، بل مشكورة.

ثم محبة الربيع والشوق اليه تكون في سبيل الله ومتوجهة الى اسمائه الحسنى، من حيث كونه اجمل صحيفة لظهور نقوش الاسماء الحسنى النورانية واعظم معرض لعرض دقائق الصنعة الربانية البديعة.. فالتفكر في الربيع من هذه الزاوية محبة متوجهة الى الاسماء الحسنى.

وحتى حب الدنيا والشغف بها ينقلب الى محبة لوجه الله تعالى فيما اذا كان النظر اليها من زاوية كونها مزرعة الآخرة، ومرآة الاسماء الحسنى، ورسائل ربانية الى الوجود، ودار ضيافة موقتة (وعلى شرط عدم تدخل النفس الامارة في تلك المحبة). ومجمل القول:

اجعل حبك للدنيا وما فيها من مخلوقات بالمعنى (الحرفي) وليس بالمعنى (الاسمي) اي لمعنى ما فيها وليس لذاتها. ولا تقل لشئ: (ما اجمل هذا) بل قل: (ما اجمله خلقاً) أو (ما اجمل خلقه)! واياك ان تترك ثغرة يدخل منها حبٌ لغير الله في باطن قلبك، فان باطنه مرآة الصمد، وخاص به سبحانه وتعالى. وقل: اللّهم ارزقنا حبك وحب ما يقرّبنا اليك.

وهكذا فان جميع ما ذكرناه من انواع المحبة، إن وجهت الوجهة الصائبة على الصورة المذكورة آنفاً، اي عندما تكون لله وفي سبيله، فانها تورث لذة حقيقية بلا ألم. وتكون وصالاً حقاً بلا زوال، بل تزيد محبة الله سبحانه وتعالى، فضلاً عن انها محبة مشروعة وشكر لله في اللذة نفسها، وفكر في آلائه في المحبة عينها.

مثال للتوضيح:

اذا اهدى اليك سلطان عظيم تفاحة – مثلاً – فانك ستكّن لها نوعين من المحبة، وستلتذ بها بشكلين من اللذة:

الاولى:

المحبة التي تعود الى التفاحة، من حيث انها فاكهة طيبة فيها لذة بقدر ما فيها من خصائص، هذه المحبة لا تعود الى السلطان. بل مَن يأكلها بشراهة امامه يبدي محبته للتفاحة وليس للسلطان، وقد لا يعجب السلطان ذلك التصرف منه، وينفر من تلك المحبة الشديدة للنفس. علاوة على أن لذة التفاحة جزئية وهي في زوال. اذ بمجرد الانتهاء من اكلها تزول اللذة وتورث الاسف.

أما المحبة الثانية:

فهي للتكرمة السلطانية والتفاتته اللطيفة التي ظهرت بالتفاحة.. فكأن تلك التفاحة نموذج للتوجه السلطاني، او هي ثناء مجسّم منه. فالذي يتسلم هدية السلطان حباً وكرامةً يبدي محبته للسلطان وليس للتفاحة. علماً ان في تلك التفاحة التي صارت مظهراً للتكرمة لذة تفوق وتسمو على الف تفاحة اخرى. فهذه اللذة هي الشكران بعينه، وهذه المحبة هي محبة ذات احترام وتوقير يليق بالسلطان.

وهكذا فاذا ما وجّه الانسان محبته الى النعم والفواكه بالذات وتلذذ عن غفلة بلذاتها المادية وحدها، فتلك محبة نفسانية تعود الى هوى النفس، وتلك اللذات زائلة مؤلمة. أما اذا كانت المحبة متوجهة الى جهة التكرمة الربانية ونحو ألطاف رحمته سبحانه وثمرات احسانه، مقدّراً درجات الاحسان واللطف ومتلذذاً بها بشهية كاملة، فهي شكر معنوي، وهي لذة لا تورث ألماً.

– النكتة الثالثة:

ان المحبة المتوجهة الى الاسماء الحسنى لها طبقات: فقد تتوجه بالمحبة الى الاسماء الحسنى بمحبة الآثار الإلهية المبثوثة في الكون – كما بيناه سابقاً – وقد تتوجه بالمحبة الى الاسماء الحسنى لكونها عناوين كمالات إلهية سامية، وقد يكون الانسان

مشتاقاً الى الاسماء الحسنى لحاجته الماسة اليها، وذلك لجامعية ماهيته وعمومها وحاجاته غير المحدودة، اي يحب تلك الاسماء بدافع الحاجة اليها.

ولنوضح ذلك بمثال:

تصور وانت تستشعر عجزك وحاجتك الشديدة الى مَن يساعدك ويعينك لإنقاذ مَن تحن عليهم وتشفق على اوضاعهم من الاقارب والفقراء، وحتى المخلوقات الضعيفة المحتاجة، اذا بأحدهم يبرز في الميدان، ويُحسن لأولئك ويتفضل عليهم ويسبغ عليهم نِعَمه بما تريده وترغبه.. فكم تطيب نفسك وكم ترتاح الى إسمه (المنعم) و (الكريم).. وكم تنبسط أساريرك وتنشرح من هذين الاسمين، بل كم يأخذ ذلك الشخص من اعجابك وتقديرك، وكم تتوجه اليه بالحب بذينك الاسمين والعنوانين!.

ففي ضوء هذا المثال تدبّر في اسمين فقط من الاسماء الحسنى وهما: (الرحمن) و (الرحيم) تجد أن جميع المؤمنين من الآباء والاجداد السالفين وجميع الاحبة والاقارب والاصدقاء، هؤلاء الذين تحبهم وتحن اليهم وتشفق عليهم، يُنعَمون في الدنيا بانواع من النعم اللذيذة، ثم يُسعَدون في الآخرة بما لذّ وطاب من النعم، بل يزيدهم سبحانه وهو الرحمن الرحيم سعادة ونعيماً بلقاء بعضهم بعضاً وبرؤية الجمال السرمدي هناك.. فكم يكون اسم (الرحمن) و (الرحيم) جديرين اذن بالمحبة؟ وكم تكون روح الانسان تواقة اليهما؟ قس بنفسك ذلك لتدرك مدى صواب قولنا؛ الحمد لله على رحمانيته ورحيميته.

ثم انك تتعلق بالموجودات المبثوثة على الارض وتتألم بشقائها، حتى لكأن الارض برمتها مسكنك الجميل وبيتك المأنوس؛ فاذا ما انعمت النظر تجد في روحك شوقاً عارماً وحاجة شديدة الى اسم (الحكيم) وعنوان (المربي) للذي ينظم هذه المخلوقات كافة بحكمة تامة وتنظيم دقيق وتدبير فائق وتربية رحيمة.

ثم اذا انعمت النظر في البشرية جمعاء تجدك تتعلق بهم وتتألم لحالهم البائسة وتتألم أشد الألم بزوالهم وموتهم، واذا بروحك تشتاق الى اسم (الوارث الباعث) وتحتاج الى عنوان (الباقي، الكريم، المحيي، المحسن) للخالق الكريم الذي ينقذهم من ظلمات العدم ويسكنهم في مسكن اجمل من الدنيا وافضل منها.

وهكذا فلأن ماهية الانسان عالية وفطرته جامعة فهو محتاج بألف حاجة وحاجة الى ألف اسم واسم من الاسماء الحسنى والى كثير جداً من مراتب كل اسم. فالحاجة المضاعفة هي الشوق، والشوق المضاعف هو المحبة والمحبة المضاعفة كذلك هي العشق، فحسب تكمّل روح الانسان تنكشف مراتبُ المحبة وفق مراتب الاسماء. ومحبة جميع الاسماء ايضاً تتحول الى محبة ذاته الجليلة سبحانه، اذ إن تلك الاسماء عناوين وتجليات ذاته جلّ وعلا.

والآن سنبين من بين ألف اسم واسم من الاسماء الحسنى مرتبة واحدة فقط وعلى سبيل المثال من بين الف مرتبة ومرتبة لإسم العدل والحكم والحق والرحيم على النحو الآتي:

ان شئت أن تشاهد ما في نطاق الحكمة والعدل من اسم (الرحمن الرحيم، الحق) ضمن دائرة واسعة عظمى فتأمل في هذا المثال:

جيش يضم اربعمائة طائفة متنوعة من الجنود، كل منها تختلف عن الاخرى فيما يعجبها من ملابس، وتتابين فيما تشتهيه من اطعمة وتتغاير فيما تستعمله بيُسر من اسلحة، وتتنوع فيما تتناوله من علاجات تناسبها.. فعلى الرغم من هذا التباين والاختلاف في كل شئ، فان تلك الطوائف الاربعمائة لا تتميز الى فرق وافواج، بل يتشابك بعضها في بعض من دون تمييز.. فاذا ما وُجد سلطانٌ واحد يعطي لكل طائفة ما يليق بها من ملابس، وما يلائمها من ارزاق، وما يناسبها من علاج، وما يوافقها من سلاح، بلا نسيانٍ لأحد ولا التباس ولا

اختلاط، ومن دون أن يكون له مساعد ومعين، بل يوزعها كلها عليهم بذاته، بما يتصف به من رحمة ورأفة وقدرة وعلم معجز واحاطة تامة بالامور كلها، مع عدالة فائقة وحكمة تامة.. نعم، اذا ما وُجد سلطان كهذا الذي لا نظير له، وشاهدتَ بنفسك اعماله المعجزة الباهرة، تدرك عندئذٍ مدى قدرته ورأفته وعدله. ذلك لأن تجهيز كتيبة واحدة تضم عشرة اقوام مختلفين باعتدة متباينة وألبسة متنوعة أمر عسير جداً، حتى يُلجأ الى تجهيز الجيش بطراز معين ثابت من الالبسة والاعتدة مهما اختلفت الاجناس والاقوام.

فاذا شئت – في ضوء هذا المثال – أن ترى تجلي اسم الله (الحق) و (الرحمن الرحيم) ضمن نطاق العدل والحكمة، فسرّح نَظَرَك في الربيع الى تلك الخيام المنصوبة على بساط الأرض لأربعمائة الفٍ من الامم المتنوعة، الذين يمثلون جيش النباتات والحيوانات، أنعم النظر فيها تجد ان جميع تلك الامم والطوائف، مع انها متداخلة، وألبستهم مختلفة وارزاقهم متفاوتة واسلحتهم متنوعة وطرق معيشتهم متباينة وتدريبهم وتعليماتهم متغايرة، وتسريحاتهم واجازاتهم متميزة.. وهم لا يملكون ألسنة يطالَبون بها تأمين حاجاتهم وتلبية رغابتهم.. مع كل هذا فان كلاً منها تدار وتربى وتراعى باسم (الحق والرحمن والرزاق والرحيم والكريم) دون التباس ولا نسيان ضمن نطاق الحكمة والعدل بميزان دقيق وانتظام فائق.. فشَاهِد هذا التجلي وتأمّل فيه؛ فهل يمكن أن يتدخل أحد غير الله سبحانه وتعالى في هذا العمل الذي يُدار بمثل هذا النظام البديع والميزان الدقيق؟ وهل يمكن لأي سبب مهما كان أن يمدّ يده ليتدخل في هذه الصنعة الباهرة والتدبير الحكيم والربوبية الرحيمة والادارة الشاملة غير الواحد الأحد الحكيم القدير على كل شئ؟..

– النكتة الرابعة:

تقول انني احمل انواعاً متباينة من المحبة في نفسي، تتعلق بالاطعمة اللذيذة، وبنفسي وزوجتي وبأولادي ووالديّ وبأحبابي وأصدقائي، وبالأولياء الصالحين والأنبياء المكرمين، بل يتعلق حبي بكل ما هو جميل، وبالربيع الزاهي خاصة وبالدنيا عامة.. فلو سارت هذه الأنواع المختلفة من المحبة وفق ما يأمر به القرآن الكريم، فما تكون نتائجها وما فوائدها؟.

الجواب: ان بيان تلك النتائج وتوضيح تلك الفوائد كلها يحتاج الى تأليف كتاب ضخم في هذا الشأن، لذا سنشير هنا الى نتيجة واحدة او نتيجتين منها اشارة مجملة. وسنبين اولاً النتائج التي تحصل في الدنيا، ثم بعد ذلك نبين النتائج التي ستظهر في الآخرة. وهي كالآتي:

لقد ذكرنا سابقاً: ان انواع المحبة التي لدى ارباب الغفلة والدنيا والتي لا تنبعث الاّ لإشباع رغبات النفس، لها نتائج أليمة وعواقب وخيمة من بلايا ومشقات، مع ما فيها من نشوة ضئيلة وراحة قليلة.

فمثلاً: الشفقة تصبح بلاءً مؤلماً بسبب العجز، والحب يغدو حُرقة مفجعة بسبب الفراق، واللذة تكون شراباً مسموماً بسبب الزوال.. أما في الآخرة فستبقى دون جدوى ولا نفع، لأنها لم تكن في سبيل الله تعالى، او تكون عذاباً أليماً ان ساقت الى الوقوع في الحرام.

سؤال: كيف يظل حب الانبياء الكرام والأولياء الصالحين دون نفع أو فائدة؟

الجواب: مثلما لا ينتفع النصارى المعتقدون بالتثليث من حبهم لسيدنا عيسى عليه السلام، وكذا الروافض من حبهم لسيدنا علي رضى الله عنه!

أما ما ذكرته من انواع المحبة فان كانت وفق ارشاد القرآن الكريم وفي سبيل الله سبحانه وتعالى ومحبة الرحمن الرحيم، فان نتائج جميلة تثمر في الدنيا، فضلاً عن نتائجها الطيبة الخالدة في الآخرة.

اما نتائجها في الدنيا:

فان محبتك للاطعمة اللذيذة والفواكه الطيبة فهي نعمة إلهية لا يشوبها ألم، ولذة لطيفة في الشكر بعينه.

أما محبتك لنفسك أي إشفاقك عليها، والجهد في تربيتها وتزكيتها، ومنعها عن الاهواء الرذيلة، تجعلها منقادة اليك، فلا تسيرّك ولاتقيدك باهوائها بل تسوقها انت الى حيث الهدى دون الهوى.

أما محبتك لزوجتك وهي رفيقة حياتك، فلأنها قد أسست على حُسن سيرتها وطيب شفقتها، وكونها هبة من الرحمة الإلهية، فستولها حباً خالصاً ورأفة جادة، وهي بدورها تبادلك هذه المحبة مع الاحترام والتوقير، وهذه الحالة تزداد بينكما كلما تقدمتما في العمر، فتقضيان حياة سعيدة هنيئة باذن الله.. ولكن لو كان ذلك الحب مبنياً على جمال الصورة الذي تهواه النفس، فانه سرعان ما يخبو ويذبل، وتفسد الحياة الزوجية ايضاً.

أما محبتك للوالد والوالدة، فهي عبادة تُثاب عليها ما دامت في سبيل الله، ولا شك انك ستزيد الحب والاحترام لهما عندما يبلغان الكبر، وتكسب لذة روحية خالصة وراحة قلبية تامة لدى القيام بخدمتهما وتقبيل ايديهما وتبجيلهما باخلاص، فتتوجه الى المولى القدير، وانت تشعر هذا الشعور السامي والهمة الجادة، بأن يطيل عمرهما لتحصل على مزيد من الثواب.. ولكن لو كان ذلك الحب والاحترام لأجل كسب حطام الدنيا ونابعاً من هوى النفس، فانه يولد ألماً روحياً قاتماً ينبعث من شعور سافل منحط واحساس دنئ وضيع هو النفور من

ذينك الموقرَين اللذين كانا السبب لحياتكَ انت، واستثقالهما وقد بلغا الكبر وباتا عبئاً عليك، ثم الأدهى من ذلك تمني موتهما وترقّب زوالهما!

أما محبتك لأولادك، اي حبك لمن استودعك الله اياهم أمانةً، لتقوم بتربيتهم ورعايتهم.. فحب اولئك المؤنسين المحبوبين من خلق الله، انما هو حب مكلل بالسعادة والبهجة، وهو نعمة إلهية في الوقت نفسه، فاذا شعرت بهذا فلا يَنْتَبك الحزن على مصابهم ولا تصرخ متحسراً على وفاتهم. اذ – كما ذكرنا سابقاً – ان خالقهم رحيم بهم حكيم في تدبير امورهم وعند ذلك تقول ان الموت بحق هؤلاء لهو سعادة لهم. فتنجو بهذا من ألم الفراق وتتفكر ان تستدر رحمته تعالى عليك.

أما محبتك للأصدقاء والأقرباء، فلانها لوجه الله تعالى، فلا يُحول فراقهم ولا موتهم عن دوام الصحبة معهم، ودوام اخوتكم ومحبتكم ومَوانستكم؛ اذ تدوم تلك الرابطة الروحية والحب المعنوي الخالص، فتدوم بدورهما لذة اللقاء ومتعة الوصال.. ولكن ان لم يكن ذلك الحب لأجله تعالى ولا في سبيله، فان لذة لقاء يوم واحد يورث آلام الفراق لمائة يوم.

أما محبتك للأنبياء عليهم السلام والأولياء الصالحين، فان عالم البرزخ الذي هو عالم مظلم موحش في نظر ارباب الضلالة والغفلة تراه منازل من نور تنورت باولئك المنورين، وعندها لا تستوحش من اللحاق بهم، ولا تجفل من عالم البرزخ، بل تشتاق اليه، وتحن اليه من دون أن يعكر ذلك تمتعك بالحياة الدنيا.. ولكن لو كان حبهم شبيهاً بحب ارباب المدنية لمشاهير الانسانية، فان مجرد التفكر في فناء اولئك الأولياء الكاملين، وترمم عظامهم في مقبرة الماضي الكبرى، يزيد ألماً على آلام الحياة، ويدفع المرء الى تصور موته وزواله حيث يقول سأدخل يوماً هذه المقبرة التي ترمم عظام العظماء! يقوله بكل مرارة وحسرة وقلق.. بينما في المنظور

الأول يراهم يقيمون براحة وهناء في عالم البرزخ الذي هو قاعة المستقبل ورواقه، بعد ان تركوا ملابسهم الجسدية في الماضي.. فينظر الى المقبرة نظرة شوق وأنس.

ثم أن محبتك للأشياء الجميلة والامور الطيبة، لما كانت محبة في سبيل الله، وفي سبيل معرفة صانعها الجليل بحيث يجعلك تقول: ما اجمل خلقه!. فان هذه المحبة في حد ذاتها تفكر ذو لذة ومتعة، فضلاً عن انها تفتح السبيل امام اذواق حب الجمال والشوق الى الحسن لتتطلع الى مراتب اذواق اسمى وارفع ، وتريه هناك كنوز تلك الخزائن النفيسة فيتملاها المرء في نشوة سامية عالية؛ ذلك لان هذه المحبة تفتح آفاقاً امام القلب ليحوّل نظره من آثار الصانع الجليل الى جمال افعاله البديعة، ومن جمال الافعال الى جمال اسمائه الحسنى، ومن جمال الاسماء الحسنى الى جمال صفاته الجليلة، ومن جمال الصفات الجليلة الى جمال ذاته المقدسة.. فهذه المحبة وبهذا السبيل انما هي عبادة لذيذة وتفكر رفيع ممتع في الوقت نفسه.

أما محبتك للشباب، فلأنك قد احببت عهد شبابك لكونه نعمة جميلة لله سبحانه، فلا شك انك ستصرفه في عبادته تعالى ولا تقتله غرقاً في السفه وتمادياً في الغي؛ اذ العبادات التي تكسبها في عهد الشباب انما هي ثمرات يانعة باقية خالدة أثمرها ذلك العهد الفاني، فكلما جاوزت ذلك العهد وطعنت في السن حصلت على مزيد من ثمراته الباقية، ونجوت تدريجياً من آفات النفس الأمارة بالسوء وسيئات طيش الشباب. فترجو من المولى القدير ان يوفقك الى كسب المزيد من العبادة في الشيخوخة، لتكون أهلاً لرحمته الواسعة. وتربأ بنفسك ان تكون مثل اولئك الغافلين الذين يقضون خمسين سنة من عمر شيخوختهم وشيبهم أسفاً وندماً على ما فقدوه من متاع الشباب في خمس او عشر سنوات. حتى عبّر أحد الشعراء عن ذلك الندم والأسف بقوله:

ألا لَيتَ الشَبابَ يعودُ يوماً   فأُخبره بِمَا فَعَلَ المشِيبُ

أما محبتك للمناظر البهيجة ولا سيّما مناظر الربيع، فحيث انها مشاهدة لبدائع صنع الله واطلاع عليها، فذهاب ذلك الربيع لا يزيل لذة المشاهدة ومتعة التفرج، اذ يترك وراءه معانيه الجميلة، حيث الربيع اشبه ما يكون برسالة ربانية زاهية تفتح للمخلوقات. فخيالك والزمن شبيهان بالشريط السينمائي يديمان لك لذة المشاهدة هذه، ويجددان دوماً تلك المعاني التي تحملها رسالة الربيع. فلا يكون حبك اذن مؤقتاً ولا مغموراً بالأسف والأسى، بل صافياً خالصاً لذيذاً ممتعاً.

أما حبك للدنيا، فلانه حب لله ولأجله سبحانه، فان موجوداتها المثيرة للرعب والدهشة تصبح لك اصدقاء مؤنسين، ولأنك تتوجه اليها بالحب من حيث كونها مزرعة الآخرة، تستطيع ان تجني من كل شئ فيهاما يمكن ان يكون ثمرة من ثمار الآخرة، أو تغنم منها ما يمكن أن يكون رأس مال للآخرة. فمصائبها اذن لا تخيفك وزوالها وفناؤها لا يضايقك. وهكذا تقضي مدة أقامتك فيها، وانت ضيف مكرم.. ولكن لو كان حبك لها كحب ارباب الغفلة، فقد قلنا لك مراراً: ستغرق نفسك وتفنى بحبٍ ساحقٍ، خانق، زائل، لا طائل وراءه ولا نفع!.

وهكذا فقد حاولنا ان نُري لطيفة واحدة من مئات اللطائف التي تعود لكلٍ مما ذكرتَه، عندما يكون حبك له وفق ارشاد القرآن الكريم، واشرنا في الوقت نفسه الى واحد من مئات اضرار ذلك الحب إن لم يكن وفق ما يأمر به القرآن الكريم. (**الكلمات، الكلمة الثانية والثلاثون، الموقف الثالث**).

من دسائس الشيطان

النقطة الاولى:

ان اعظم كيدٍ للشيطان هو خداعه لضيّقي الصدر، وقاصدي الفكر من الناس، من جهة عظمة الحقائق الإيمانية بقوله: كيف يمكن تصديق ما يقال: أن واحداً أحداً هو الذي يدبّر ضمن ربوبيته شؤون جميع الذرات والنجوم والسيارات وسائر الموجودات ويدير أمورها بأحوالها كافة؟ فكيف تُصدّق وتَقرُّ في القلب هذه المسألة العجيبة العظيمة؟ وكيف يقنع بها الفكر؟.. مثيراً بذلك حسّاً إنكارياً من نقطة عجز الانسان وضعفه.

الجواب: ((الله اكبر)) هو الجواب الحقيقي الملجم لهذه الدسيسة الشيطانية وهو المسكت لها.

نعم، ان كثرة تكرار ((الله اكبر)) واعادتها في جميع الشعائر الإسلامية، مُزيلةٌ لهذا الكيد الشيطاني، لأن الانسان بقوته العاجزة وقدرته الضعيفة وفكره المحدود يرى تلك الحقائق الإيمانية غير المحدودة ويصدّقُها بنور ((الله اكبر)) ويحمل تلك الحقائق بقوة ((الله اكبر)) وتستقر عنده ضمن دائرة ((الله اكبر)) فيخاطب قلبه المبتلى بالوسوسة قائلاً: ان تدبير شؤون هذه الكائنات وادارتها بهذا النظام الرائع الذي يراه كل ذي بصر لاتُفسّر الاّ بطريقتين:

الاولى: وهي الممكنة، ولكنها معجزةٌ خارقة. لأن أثراً كهذا الأثر المعجز لاشك أنه ناتج من عملٍ خارق وبطريقةٍ معجزة ايضاً. وهذه الطريقة هي ان الموجودات قاطبة لم تخلق الاّ بربوبية الأحد الصَّمد وبأرادته وقدرته، وهي شاهدة على وجوده سبحانه بعدد ذراتها.

الثانية: وهي طريق الكفر والشرك، الممتنعة والصعبة من جميع النواحي، وغير المعقولة الى درجة الاستحالة؛ لأنه يلزم أن يكون لكل موجود في الكون، بل في كل ذرّة فيه، ألوهيةٌ مطلقة وعلم محيط واسعٌ، وقدرةٌ شاملة غير متناهية كي تظهر الى الوجود نقوشُ الصنعة البديعة المتكاملة بهذا النظام والاتقان الرائعين المشاهدين، وبهذا التقدير والتميّز الدقيقين..

والخلاصة:

لو لم تكن ربوبية ذات عظمة وكبرياء لائقة لتدبير الشؤون لَوجبَ حينئذٍ سلوك طريق ممتنع وغير معقول من جميع الجهات. فحتى الشيطان نفسه لن يكلّف أحداً الدخول في هذا المجال الممتنع بترك تلك العظمة والكبرياء اللائقة المستحقة الضرورية.

النقطة الثانية:

ان دسيسة مهمة للشيطان هي: دفع الانسان الى عدم الاعتراف بتقصيره. كي يسدّ عليه طريق الاستغفار والاستعاذة، مثيراً فيه أنانية النفس لتدافع كالمحامي عن ذاتها، وتنزّهها عن كل نقص.

نعم، إن نفساً تصغي الى الشيطان لا ترغب في أن تنظر الى تقصيرها وعيوبها، حتى اذا رأتها فانها تؤوّلها بتأويلات عديدة. فتنظر الى ذاتها واعمالها بعين الرضا، كما قال الشاعر: ((وعينُ الرضا عن كل عيبٍ كليلةٌ)) فلا ترى عيباً، لذا لا تعترف بتقصيرها، ومن ثم فلا تستغفر الله ولا تستعيذ به فتكون اضحوكة للشيطان. وكيف يوثق بهذه النفس الامارة بالسوء ويعتمد عليها، وقد ذكرها القرآن الكريم بلسان نبيّ عظيم، يوسف عليه السلام: { وَمَا أُبَرِّيءُ نَفسي إنَ النفسَ لأمارةٌ بالسوءِ إلاّ ما رحم رَبّي } (يوسف:٥٣). فَمن يَتّهم نفسه يرى عيوبها وتقصيرها، ومَن اعترفَ بتقصير نفسه يستغفر ربَّه، ومن يستغفر ربَهُ يستَعذْ

به من الشيطان الرجيم وعندها ينجو من شروره.. وانه لتقصير اكبر ألاّ يرى الانسانُ تقصيره، وانه لنقصٌ اعظم كذلك الاّ يعترف بنقصه. ومن يرى عيبه وتقصيره فقد اِنتفى عنه العيب، حتى اذا ما اعترف يصبح مستحقاً للعفو.

النقطة الثالثة:

ان ما يُفسد الحياة الاجتماعية للانسان هي الدسيسة الشيطانية الآتية:

انه يحجب بسيئةٍ واحدة للمؤمن جميع حسناته. فالذين يلقون السمع الى هذا الكيد الشيطاني من غير المنصفين يعادون المؤمن. بينما الله سبحانه وتعالى عندما يزن اعمال المكلّفين بميزانه الأكبر وبعدالته المطلقة يوم الحشر فانه يحكم من حيث رجحان الحسنات او السيئات. وقد يمحو بحسنة واحدة ويُذهب ذنوباً كثيرة حيث ان ارتكاب السيئات والآثام سهل ويسير ووسائها كثيرة.. فينبغي اذاً التعامل في هذه الدنيا والقياس بمثل ميزان العدل الإلهي، فان كانت حسناتُ شخصٍ اكثر من سيئاته كميةً او نوعيةً فانه يستحق المحبة والاحترام. وربما يُنظر الى كثير من سيئاته بعين العفو والمغفرة والتجاوز لحسنة واحدة ذات نوعية خاصة.

غير ان الانسان ينسى، بتلقين من الشيطان، وبما يكمن من الظلم في جبلّته، مئاتٍ من حسنات أخيه المؤمن لأجل سيئة واحدة بدرت منه فيبدأ بمعاداته، ويدخل في الآثام. فكما ان وضع جناح بعوضة أمام العين مباشرة يحجب رؤية جبل شاهق، فالحقد كذلك يجعل السيئة – التي هي بحجم جناح بعوضة – تحجب رؤية حسناتٍ كالجبل الشامخ، فينسى الانسانُ حينذاك ذكر الحسنات ويبدأ بعداء اخيه المؤمن، ويصبح عضواً فاسداً وآلة تدمير في حياة المؤمنين الاجتماعية.

وهناك دسيسة اخرى مشابهة لهذه ومماثلة لها في افساد سلامة تفكير المؤمن والاخلال باستقامتها وبصحة النظرة الى الحقائق الإيمانية وهي انه يحاول ابطال حكم مئات الدلائل الثبوتية – حول حقيقة إيمانية – بشبهة تدل على نفيها. علماً ان القاعدة هي: ان دليلاً واحداً ثبوتياً يرجّح على كثير من النفي، وان حكماً لشاهدٍ ثبوتي واحد لدعوى، يؤخذ به ويُرجّح على مائة من المنكرين النافين.

ولنوضح هذه الحقيقة في ضوء هذا المثال:

بناية عظيمة لها مئات من الابواب المقفلة، يمكن الدخول فيها بفتح باب واحد منها، وعندها تفتح بقية الأبواب، ولا يمنع بقاء قسم من الابواب مقفلة من الدخول في البناية. فالحقائق الإيمانية هي كتلك البناية العظيمة، وكل دليل ثبوتي هو مفتاح يفتح باباً معيناً، فلا يمكن انكار تلك الحقيقة الإيمانية او العدول عنها بمجرد بقاء باب واحد مسدود من بين تلك المئات من الابواب المفتوحة. ولكن الشيطان يقنع جماعة من الناس – بناءً على اسباب كالجهل او الغفلة – بقوله لهم: لا يمكن الدخول الى هذه البناية مشيراً الى أحد تلك الأبواب المسدودة ليُسقط من الاعتبار جميع الادلة الثبوتية، فيغريهم بقوله: ان هذا القصر لا يمكن الدخول فيه ابداً، فانت تحسبه قصراً وهو ليس بقصر، وليس فيه شيء!.

فيا أيها الانسان المسكين!. المبتلى بدسائس الشيطان وكيده!. ان كنت ترجو سلامة حياتك الدينية وحياتك الشخصية وحياتك الاجتماعية وتطلب صحة الفكر واستقامة الرؤية وسلامة القلب، فَزِنْ أعمالك وخواطرك بموازين القرآن المحكمة والسنّة المحمدية الشريفة، واجعل رائدك القرآن الكريم ومرشدك السنّة النبوية الشريفة. وتَضَرّع الى الله العلي القدير بقولك: ((أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)).(اللمعات، اللمعة الثالثة عشرة، الاشارة/١٣)

الوسوسة وعلاجها

{وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ* وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ}
(**المؤمنون: ٩٧ – ٩٨**)

[يتضمن خمسة مراهم لخمسة جروح قلبية]

أيُّها الأخ المبتلى بداء الوسوسة! ليت شعري هل تعلم بماذا تشبه وسوستك؟. إنها أشبه بالمصيبة؛ تبدأ صغيرة ثم تكبر شيئاً فشيئاً على مدى اهتمامك بها، وبقدر إهمالك إياها تزول وتفنى، فهي تعظم إذا استعظمتَها وتصغر إذا استصغرتَها. وإذا ما خفتَ منها داستك ودوّختك بالعلل، وإنْ لم تَخَفْ هانَتْ وخَنَستْ وتوارت. وإنْ لم تعرف حقيقتها استمرت واستقرت، بينما إذا عرفت حقيقتها وسَبَرتَ غورها تلاشت واضمحلت. فما دام الأمر هكذا فسأشرح لك خمسة وجوه، من وجوهها التي تحدث كثيراً. عسى أنْ يكون بيانها – بعون الله – شفاءً لصدورنا نحن كلينا. ذلك لأنَّ الجهل مجلبةٌ للوساوس، بينما العلم على نقيضه دافع لشرها. فلو جهلتها أقبلت ودنتْ وإذا ما عرفتها ولّت وأدبرت.

الوجه الأول – الجرح الأول:

إنَّ الشيطان يلقى أولاً بشبهته في القلب، ثم يراقب صداها في الأعماق، فإذا أنكرها القلب انقلب من الشبهة إلى الشتم والسبّ، فيصوّر أمام الخيال ما يشبه الشتم من قبيح الخواطر السيئة والهواجس المنافية للآداب، مما يجعل ذلك القلب المسكين يئن تحت وطأة اليأس ويصرخ: واحسرتاه!. وامصيبتاه!.. فيظن الموسوس

أنَّ قلبه آثم، وانه قد اقترف السيئات حيال ربه الكريم، ويشعر باضطراب وانفعال وقلق، فينفلت من عقال السكينة والطمأنينة، ويحاول الإنغماس في أغوار الغفلة.

أمَّا ضِماد هذا الجرحِ فهو:

أيها المبتلى المسكين! لا تخف ولا تضطرب! لأنَّ ما مرّ أمام مرآة ذهنك ليس شتماً ولا سبّاً، وإنّما هو مجرد صورٍ وخيالاتٍ تمر مروراً أمام مرآة ذهنك، وحيث إنَّ تخيّلَ الكفر ليس كفراً، فانَّ تخيُّل الشتم أيضاً ليس شتماً، إذ من المعلوم في البديهية المنطقية: إنَّ التخيُّل ليس بحكم بينما الشتم حُكمٌ. فضلاً عن هذا فإنَّ تلك الكلمات غير اللائقة لم تكن قد صدرت من ذات قلبك، حيث إنَّ قلبك يتحسر منها ويتألم. ولعلها آتية من لمة شيطانية قريبة من القلب. لذا فان ضرر الوسوسة إنما هو في توهم الضرر، أيْ أنَّ ضرره على القلب هو ما نتوهمه نحن من أضرارها. لأنَّ المرء يتوهم تخيلاً – لا أساس له – كأنّه حقيقة، ثم ينسب إليه من أعمال الشيطان ما هو برئ منه، فيظن أنَّ همزات الشيطان هي من خواطر قلبه هو، ويتصور أضرارها فيقع فيها. وهذا هو ما يريده الشيطان منه بالذات.

الوجه الثاني:

عندما تنطلق المعاني من القلب تنفذ في الخيال مجردةً من الصور، وتكتسي الأشكال والصور هناك. والخيال هو الذي ينسج دائماً ولأسباب معينة، نوعاً من الصور، ويعرض ما يهتم به من الصور على الطريق، فأيّما معنىً يرد فالخيال إمّا يُلبسه ذلك النسيج أو يعلقه عليه أو يلطخه به، أو يستره به فإنْ كانت المعاني

منزهةً ونقيةً، والصور والأنسجة ملوثةً دنيئةً فلا إلباسَ ولا إكساءَ، وإنما مجرد مسٍّ فقط، فمن هنا يلتبس على الموسوس أمرَ التماس فيظنه تلبساً وتلبيساً، فيقول في نفسه: «يا ويلتاه! لقد تردى قلبي في المهاوي، وستجعلني هذه الدناءة والخساسة النفسية من المطرودين من رحمة الله» فيستغل الشيطان هذا الوتر الحساس منه إستغلالاً فظيعاً.

ومرهم هذا الجرح العميق هو:

كما لا يؤثر في صلاتك ولا يفسدها ما في جوفك من نجاسة، بل يكفي لها طهارة حسية وبدنية، كذلك لا تضر مجاورة الصور الملوثة بالمعاني المنزهة والمقدسة. مثال ذلك:

قد تكون متدبراً في آية من آيات الله، وإذا بأمرٍ مُهيِّجٍ من مرضٍ يفاجئك، أو من تدافع الأخبثين، يلحّ على خيالك بشدة، فلاشك أنَّ خيالك سينساق إلى حيث الدواء، أو قضاء الحاجة ناسجاً ما يقتضيه من صور دنيئة. فتمر المعاني الواردة في تدبرك من بين الصور الخيالية السافلة. دعها تمر، فليس ثمة ضرر ولا لوثة ولا خطورة. إنّما الخطورة فقط هي في تركيز الفكر فيها، وتوهم الضرر منها.

الوجه الثالث:

هناك بعض علاقات خفية تسود بين الأشياء، وربما توجد خيوط من الصلة حتى بين ما لا نتوقعه من الأشياء، هذه الخيوط إمّا أنها قائمة بذاتها، أيْ أنها حقيقية، أو أنّها من نتاجات خيالك الذي صنع هذه الخيوط - حسب ما

ينشغل به من عمل – وهذا هو السر في توارد خيالات سيئة أحياناً عند النظر في ما يخص أموراً مقدسة، إذ «التناقض الذي يكون سبباً للابتعاد في الخارج يكون مدعاة للقرب والتجاور في الصور والخيال» كما هو معلوم في علم البيان. أيْ أنَّ ما يجمع بين صورتي الشيئين المتناقضين ليس إلاّ الخيال. ويُطلق على هذه الخواطر الناتجة بهذه الوسيلة: تداعى الأفكار. مثال ذلك:

بينما أنت تناجي ربك في الصلاة بخشوع وتضرع وحضور قلب مستقبلاً الكعبة المعظمة، إذا بتداعي الأفكار هذا يسوقك إلى أمور مشينة مخجلة لا تعنيك بشيء. فإذا كنت يا أخي مُبتلىً بتداعي الأفكار، فإيَّاك إيَّاك أنْ تقلق أو تجزع، بل عُد إلى حالتك الفطرية حالما تنتبه لها. ولا تشغل بالك قائلاً: لقد قصّرت كثيراً.. ثم تبدأ بالتحري عن السبب.. بل مر عليها مرّ الكرام لئلا تقوى تلك العلاقات الواهية العابرة بتركيزك عليها، إذ كلما أظهرت الأسى والأسف وزاد اهتمامك بها انقلب ذلك التخطر إلى عادة تتأصّل تدريجياً حتى تتحول إلى مرض خيالي. ولكن لا.. لا تخشَ أبداً، إنه ليس بمرض قلبي، لأنَّ هذه الهواجس النفسية والتخطر الخيالي هي في أغلب الحالات تتكون رغماً عن إرادة الإنسان وهي غالباً ما تكون لدى مرهفي الحس والأمزجة الحادة. والشيطان يتغلغل عميقاً مع هذه الوساوس.

أما علاج هذا الداء فهو:

إعلم إنَّه لا مسؤولية في تداعي الأفكار، لأنّها لا إرادية غالباً، إذ لا اختلاط

ولا تماس فيها، وإنما هي مجرد مجاورة ولا شيء بعد ذلك، لذا فلا تسري طبيعة الأفكار بعضها ببعض. ومن ثم فلا يضر بعضها بعضاً. إذ كما أن مجاورة ملائكة الإلهام للشيطان حول القلب لا بأس فيها، ومجاورة الأبرار للفجار وقرابتهم ووجودهم في مسكن واحد لا ضرر فيه، كذلك إذا تداخلت خواطر سيئة غير مقصودة بين أفكار طاهرة نزيهة لا تضرّ في شيء إلاّ إذا كانت مقصودة، أو أن تشغل بها نفسك كثيراً، متوهماً ضررها بك. وقد يكون القلب أحياناً مرهقاً فينشغل الفكر بشيء ما - كيفما اتفق - دون جدوى، فينتهز الشيطان هذه الفرصة ويقدّم الأخيلة الخبيثة وينشرها هنا وهناك.

الوجه الرابع:

هو نوع من الوسوسة الناشئة من التشدد المفرط لدى التحري عن الأكمل الأتم من الأعمال. فكلما زاد المرء في التشدد هذا - باسم التقوى والورع - إزداد الأمر سوءاً وتعقيداً، حتى ليوشك أنْ يقع في الحرام في الوقت الذي يبتغي الوجه الأولى والأكمل في الأعمال الصالحة. وقد يترك «واجباً» بسبب من تحرّيه عن «سنّة» حيث يسأل نفسَه دائماً عن مدى صحة عمله وقبوله، فتراه يعيده ويكرره، قائلاً: «ترى هل صحّ عملي؟» حتى يطول به الأمر فييأس، ويستغل الشيطان وضعه هذا فيرميه بسهامه ويجرحه من الأعماق.

ولهذا الجرح دواءان اثنان:

الدواء الأول: إعلم أن أمثال هذه الوساوس لا تليق إلاّ بالمعتزلة الذين

يقولون: «إن أفعال المكلفين من حيث الجزاء الأخروي حسنة أو قبيحة في ذات نفسها، ثم يأتي الشرع فيقرر أنَّ هذا حسن وهذا قبيح. أي أنَّ الحسن والقبح أمران ذاتيان موجودان في طبيعة الأشياء – حسب الجزاء الأخروي – أمَّا الأوامر والنواهي فهي تابعة لذلك ولإقرارها». ولذلك فان طبيعة هذا المذهب تؤدي بالإنسان إلى أن يستفسر دائماً عن أعماله: «ترى هل تمَّ عملي على الوجه الأكمل المرضي كما هو في ذاته أم لا؟».. أمَّا أصحاب الحق وهم أهل السنة والجماعة فيقولون: «إنَّ الله سبحانه وتعالى يأمر بشيء فيكون حسناً وينهى عن شيء فيكون قبيحاً» فبالأمر والنهي يتحقق الحُسن والقبح. أي أن الحسن والقبح يتقرران من وجهة نظر المكلّف، ويتعلقان بحسب خواتيمهما في الآخرة دون النظر إليها في الدنيا، مثال ذلك:

لو توضأت أو صليت، وكان هناك شيء ما خفي عليك يفسد صلاتك أو وضوءك، ولم تطلع عليه. فصلاتك ووضوءك في هذه الحالة صحيحان وحسنان في آن واحد. وعند المعتزلة: إنهما قبيحان وفاسدان حقيقةً ولكنهما مقبولان منك لجهلك، إذ الجهل عذر.

وهكذا أيها الأخ المبتلى، فأخذاً بمذهب أهل السنة والجماعة يكون عملك صحيحاً لا غبار عليه، نظراً لموافقته ظاهر الشرع. وإيّاك أن توسوس في صحة عملك، ولكن إياك أن تغتر به أيضاً، لأنك لا تعلم علم اليقين، أهو مقبول عند الله أم لا؟.

الدواء الثاني: إعلم أنَّ الإسلام دين الله الحق، دين يسر لا حرج فيه، وانَّ المذاهب الأربعة كلها على الحق. فإن أدرك المرء تقصيره تلافاه بالإستغفار الذي هو أثقل ميزاناً من الغرور الناشئ من إعجابه بالأعمال الصالحة. لذا فان يرى مثل هذا الموسوس نفسه مقصراً في عمله ويستغفر ربه خيرٌ له ألف مرة من أن يغتر إعجاباً بعمله. فما دام الأمر هكذا، فاطرح الوساوس واصرخ في وجه الشيطان: إن هذا الحال حرجٌ، وان الإطلاع على حقيقة الأحوال أمرٌ صعب جداً، بل ينافي اليُسر في الدين، ويخالف قاعدة :«لا حَرجَ في الدين» و «الدين يُسر». ولابد أن عملي هذا يوافق مذهباً من المذاهب الإسلامية الحقة، وهذا يكفيني. حيث يكون وسيلة لأن ألقي بنفسي بين يدي خالقي ومولاي ساجداً متضرعاً أطلب المغفرة، واعترف بتقصيري في العمل، وهو السميع المجيب.

الوجه الخامس:

وهو الوساوس التي تتقمص أشكال الشبهات في قضايا الإيمان:

فكثيراً ما يلتبس على الموسوس المحتار خلجات الخيال، فيظن أنها من بنات عقله، أي يتوهم أن الشبهات التي تنتاب خياله كأنها مقبولة لدى عقله، أي أنها من شبهات عقله، فيظن أنّ اعتقاده قد مسّه الخلل.. وقد يظن الموسوس أحياناً أخرى أن الشبهة التي يتوهمها إنما هي شك يضرّ بإيمانه.. وقد يظن تارة أخرى أن ما يتصوره من رؤى الشبهات كأن عقله قد صدّقه.. وربما يحسب أن كل تفكير في قضايا الكفر كفراً، أي أنه يحسب أن كل تحرٍ وتمحيص، وكل متابعة فكرية

ومحاكمة عقليه محايدة لمعرفة أسباب الضلالة انه خلاف الإيمان. فأمام هذه التلقينات الشيطانية الماكرة يرتعش ويرتجف، ويقول: «ويلاه! لقد ضاع قلبي وفسد اعتقادي واختل». وبما أنه لا يستطيع أن يصلح تلك الأحوال بإرادته الجزئية وهي غير إرادية على الأغلب، يتردى إلى هاوية اليأس القاتل.

أما علاج هذا الجرح فهو:

إنَّ تَوهم الكفر ليس كُفراً كما أن تخيل الكفر ليس كفراً ،وانّ تصور الضلالة ليس ضلالة ،مثلما أن التفكير في الضلالة ليس ضلالة، ذلك لأن التخيل والتوهم والتصور والتفكر.. كل أولئك متباين ومتغاير كلياً عن التصديق العقلي والإذعان القلبي. إذ التخيل والتوهم والتصور والتفكر أمور حرة طليقة إلى حدٍ ما، لذلك فهي لا تحفل بالجزء الإختياري المنبثق من إرادة الإنسان، ولا ترضخ كثيراً تحت التبعات الدينية. بينما التصديق والإذعان ليسا كذلك، فهما خاضعان لميزان، ولأن كلاً من التخيل والتوهم والتصور والتفكر ليس بتصديق وإذعان فلا يعدّ شبهةً ولا تردداً. لكن إذا تكررت هذه الحالة - دون مبرر - وبلغت حالة من الإستقرار في النفس فقد يتمخض عنها لون من الشبهات الحقيقية، ثم قد ينزلق الموسوس، بالتزامه الطرف المخالف بإسم المحاكمات العقلية الحيادية أو بإسم الإنصاف، إلى حالة يلتزم المخالف دون إختيار منه، وعندها يتنصل من الإلتزامات الواجبة عليه تجاه الحق، فيهلك؛ إذ تتقرر في ذهنه حالة أشبه ما يكون بالمفوّض والمخوّل من قبل الطرف المخالف اي الخصم أو الشيطان.

ولعل أهم نوع من هذه الوسوسة الخطيرة هو:

إن الموسوس يلتبس عليه «الإمكان الذاتي» و «الإمكان الذهني» أي أنه يتوهم بذهنه ويشك بعقله ما يراه ممكناً في ذاته، علماً بأن هنالك قاعدة كلامية في «علم المنطق» تنص على: «إن الإمكان الذاتي لا ينافي اليقين العلمي، ومن ثم فلا تعارض ولا تضاد بينه وبين الضرورات الذهنية وبديهياتها» ولتوضيح ذلك نسوق هذا المثال:

من الممكن أن يغور البحر الأسود الآن، فهذا شيء محتمل الوقوع بالإمكان الذاتي، إلاّ أننا نحكم يقيناً بوجود البحر المذكور في موقعه الحالي، ولا نشك في ذلك قطعاً. فهذا الإحتمال الإمكاني والإمكان الذاتي لا يولدان شبهة ولا شكاً، بل لا يخلان بيقيننا أبداً.

ومثال آخر: من الممكن ألاّ تغيب الشمس اليوم، ومن الممكن ألاّ تشرق غدا، إلاّ أن هذا الإمكان والاحتمال لا يخل بيقيننا بأي حال من الأحوال، ولا يطرأ اصغر شبهة عليه. وهكذا على غرار هذين المثالين فالأوهام التي ترد من الإمكان الذاتي على غروب الحياة الدنيا وشروق الآخرة التي هي من حقائق الغيب الإيمانية لا تولد خللاً في يقيننا الإيماني قطعاً. ولهذا فالقاعدة المشهورة في أصول الدين وأصول الفقه: «لا عِبرةَ للإحتمال غير الناشئ عن الدَّليل».

وإذا قلت: «تُرى ما الحكمة من ابتلاء المؤمنين بهذه الوساوس المزعجة للنفس المؤلمة للقلب؟».

الجواب: إننا إذا ما نحّينا الإفراط والغلبة جانباً فان الوسوسة تكون حافزة للتيقظ، وداعية للتحري، ووسيلة للجدية، وطاردة لعدم المبالاة، ودافعة للتهاون.. ولأجل هذا كله جعل العليم الحكيم الوسوسة نوعاً من سوط تشويق وأعطاه بيد الشيطان كي يحث به الإنسان في دار الامتحان وميدان السباق إلى تلك الحِكَم. وإذا ما افرط في الأذى، فررنا إلى العليم الحكيم وحده مستصرخين:أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

ولرب سائل يسأل ترى ما الحكمة من ابتلاء المؤمنين بالوساوس المزعجة للنفس المؤلمة للقلب؟.

الجواب: اننا اذا ما نحّينا الافراط والغلبة جانباً فان الوسوسة تكون حافزة للتيقظ، وداعية للتحري، ووسيلة للجدية، وطاردة لعدم المبالاة، ودافعة للتهاون.. ولأجل هذا كله جعل العليم الحكيم الوسوسة نوعاً من سوط تشويق واعطاه بيد الشيطان كي يحث به الانسان في دار الامتحان وميدان السباق الى تلك الحِكَم. واذا ما افرط في الأذى، فررنا الى العليم الحكيم وحده مستصرخين:أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.(**الكلمات، الكلمة الحادية والعشرون، المقام الثاني**))

س / ما علاج الوساوس ؟.

ج / كما ان صورة الحيّة في المرآة لاتلدغ، وإنعكاس النار فيها لايحرق، وظل النَجَس فيها لا ينجّس، كذلك ما ينعكس على مرآةِ الخيال او الفكر من صورِ الكفر والشرك، وظلال الضلالة، وخيالات الكلمات النابية والشتم، لاتفسد

العقيدة واليقين ولاتغير الايمان، ولاتثلم أدب التوقير والاحترام. ذلك لانه من القواعد المقررة: تخيّل الشتم ليس شتماً، وتخيل الكفر ليس كفراً، وتصوّرَ الضلالة ليس ضلالةً .

أما مسألة الشك في الايمان، فان الاحتمالات الناشئة من الامكان الذاتي لاينافي اليقين ولايخلّ به. اذ من القواعد المقررة في علم اصول الدين : أن الامكان الذاتي لاينافي اليقين العلمي.

فمثلاً: نحن على يقين من أن بحيرة بارلا مملوءة بالماء ومستقرةٌ في مكانها،الاّ انه يمكن أن تخسف في هذه اللحظة. فهذا اِمكان ذاتي واحتمالٌ، وهو من الممكنات. ولكن لأنه لم ينشأ من أمارة، او دليل، فلا يكون اِمكاناً ذهنياً حتى يوجب الشك. لأن القاعدة المقررة في علم اصول الدين أنه: لاعبرة للاحتمال غير الناشئ عن دليل بمعنى: لايكون الاحتمال الذاتي الذي لم ينشأ عن أمارة اِمكاناً ذهنياً، فلا أهمية له كي يوجب الشك. فبمثل هذه الامكانات والاحتمالات الذاتية يظن المسكين المبتلى انه قد فقد يقينَه بالحقائق الايمانية. فيخطر بباله مثلاً خواطر كثيرة من الامكان الذاتي من جهة بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم، ولاشك أنها لا تخلّ بيقينه وجزمه الايماني، ولكن ظنه أن هذا يضرّ هو الذي يسبب له الضرر .

واحياناً اخرى تُلقي لمِةُ الشيطان – التي هي على القلب – كلاماً لا يليق بجلال الله سبحانه وتعالى. فيظن صاحبه أن قلبه هو الذي فَسَد فصدر عنه هذا

الكلام، فيضطرب ويتألم. والحال أن اضطرابه وخوفه وعدم رضاه دليلٌ على أن تلك الكلمات لم تكن صادرةً من قلبه، وانما هي من اللمّة الشيطانية، او أن الشيطان يخيّلها اليه ويذكّره بها.

وكذلك فان من بين اللطائف الانسانية - وهي بضع لطائف لم استطع تشخيصها - ما لا ترضخ للارادة والاختيار، ولا تدخل تحت وطأة المسؤولية - فتتحكم احياناً وتسيطر دون أن تنصت لنداء الحق، وتلج في أمور خاطئة، وعندئذ يُلقي الشيطان في رَوع هذا الانسان المبتلى: اِن فطرتَك فاسدة لا تنسجم مع الايمان والحق، ألا ترى أنها تلج بلا اِرادة في مثل هذه الامور الباطلة؟ اذن فقد حكم عليك قَدَرك بالتعاسة وقضى عليك بالشقاء!!. فيهلك ذلك المسكين في هذا اليأس المدمّر.

وهكذا فان حصن المؤمن الحصين من الدسائس الشيطانية المتقدّمة هي المحكمات القرآنية والحقائق الايمانية المرسومةُ حدودُها بدساتير العلماء المحققين والاصفياء الصالحين. أما الدسائس الاخيرة فانها تُردّ بالاستعاذة بالله سبحانه وتعالى وباهمالها، لأن من طبيعة الوساوس أنها تكبر وتتضخم كلما زاد الاهتمام بها. فالسُنّة المحمدية للمؤمن هي البلسم الشافي لمثل هذه الجراحات الروحية .(**اللمعات: ١١٦- ١١٧**).

ما يسوق الى الرياء وما يمنع منه

ستكتب ثلاث نقاط تخص الرياء:

اولاها:

ان الرياء لا يدنو من الفرض والواجب والشعائر الاسلامية واتباع السنة النبوية الشريفة واجتناب الحرام. فاظهار هذه الامور ليس من الرياء قطعاً، الاّ اذا كان الشخص قد جُبل على الرياء مع ضعف شديد في الايمان. بل إن اظهار العبادات التي تمس الشعائر الاسلامية اجزل ثواباً من اخفائها بكثير، كما بيّنها حجة الاسلام الامام الغزالي رضى الله عنه.

وعلى الرغم من ان اخفاء سائر النوافل له اثوبة كثيرة فان النوافل المتعلقة بالشعائر الاسلامية ولاسيما في مثل هذه الاوقات التي راجت فيها البدع، وكذا اظهار التقوى التي هي ترك الحرام ضمن هذه الكبائر المنتشرة، لها أثوبة عظيمة اكثر من اخفائها، ناهيك ان يتقرب منها الرياء.

النقطة الثانية:

هناك اسباب عديدة تسوق الانسان الى الرياء. منها:

السبب الاول: ضعف الايمان: ان الذي لا يفكر بالله يعبد الاسباب ويتخذ وضع الرياء بحبه اظهار نفسه للناس. فطلاب رسائل النور لا يعيرون اهمية ولاقيمة للاسباب ولا للناس من حيث العبودية كي يقعوا في الرياء في عبوديتهم باظهارها لهم. وذلك لانهم يتلقون درساً ايمانياً تحقيقياً قوياً من رسائل النور.

السبب الثاني: ان الحرص والطمع يسوقان الانسان – من زاوية الفقر والضعف الانساني – الى جلب توجه الناس وتلبّس أوضاع متكلفة للرياء والظهور.

ولما كان طلاب النور يحصلون على عزة الايمان باسترشادهم بدروس (رسائل النور) كالاقتصاد والقناعة والتوكل على الله والرضى بقسمته، فانها باذن الله تمنعهم عن الرياء والعجب والتنازل لمنافع الدنيا.

السبب الثالث: ان حرص الانسان على الشهرة، وحب الجاه، وطلب نيل المقامات، والتفوق على الاقران وامثالها من الاحاسيس والمشاعر، وكذا التظاهر بمظهر حسن رفيع وتقمص طور اشخاص عظام لا يليق به، وجلب انظار الناس واعجابهم نحوه بما هو فوق حدّه وطاقته، وما شابهها من أنواع التصنع والتكلف في الاعمال.. كلها تسوق الى الرياء.. ولكن لما كان طلاب رسائل النور قد حوّلوا "انا" الى "نحن" أي تركوا الانانية ودخلوا ضمن دائرة الشخصية المعنوية للجماعة ويسعون في اعمالهم باسم تلك الشخصية، أي يقولون "نحن" بدلاً من "أنا".. وكما قد نجا أهل الطرق من الرياء بوسائل قتل النفس الأمارة والأخذ بقاعدة: "الفناء في الشيخ" و"الفناء في الرسول".. فان احدى تلك الوسائل هي "الفناء في الاخوان"، أي اذابة الشخصية الفردية في حوض الشخصية المعنوية لاخوانه وبناء أعماله على وفق ذلك، أقول: انه كما قد نجا أهل الحقيقة بتلك الوسائل من ورطة الرياء ينجو باذن الله طلاب النور بهذا السر أيضاً.

النقطة الثالثة:

انه لا تعد من الرياء والعجب قط تلك الأطوار والاوضاع الرفيعة التي يقتضيها مقام اداء الواجب الديني، وجعل الناس يتقبلونه قبولاً حسناً. اللّهم الاّ اذا كان الشخص يسخّر تلك الوظيفة الدينية طوع انانيته ويستغلها لأغراضه الشخصية.

فإمام الجامع، يجهر بالاذكار، كجزء من واجبه في اقامة الصلاة واداء الاذكار، ويُسمِعها الآخرين، وهذا لا رياء فيه قط، ولكن اسماعها الناس خارج نطاق واجبه، ربما يداخله الرياء، فان اخفاءها اكثر ثواباً من الجهر بها.

لذا فان طلاب النور الحقيقيين، اثناء ادائهم لواجب نشر الوعي الديني، واثناء قيامهم بعباداتهم اتباعاً للسنة النبوية، واثناء التزامهم بالتقوى التي هي اجتناب الكبائر.. انما يُعدّون مكلفين مأمورين في سبيل خدمة القرآن. فنسأل الله تعالى الاّ يداخل أعمالهم تلك، الرياءُ. الاّ من دخل ضمن دائرة رسائل النور لغرض آخر غير خدمة القرآن.

(الملاحق ، ملحق قسطموني، ص: ١٩٤–١٩٥)

سر الوجود وحقيقة الدنيا

* سر الوجود
* حقيقة الدنيا
* الدنيا بين نظرة المؤمن ونظرة الكافر

سر الوجود

ايها الأخ ! ان شئت أن تفهم شيئاً من اسرار حكمة العالم وطلسمه، ولغز خلق الانسان، ورموز حقيقة الصلاة، فتأمل معي في هذه الحكاية التمثيلية القصيرة.

كان في زمان ما سلطان له ثروات طائلة وخزائن هائلة تحوي جميع أنواع الجواهر والألماس والزمرد، مع كنوز خفية اخرى عجيبة جداً. وكان صاحب علمٍ واسع جداً، واحاطة تامة، واطلاع شامل على العلوم البديعة التي لاتحد، مع مهارات فائقة وبدائع الصنعة.

وحيث ان كل ذي جمال وكمالٍ يحب أن يشهَد ويُشاهِد جمالَه وكمالَه، كذلك هذا السلطان العظيم، أراد أن يفتح معرضاً هائلاً لعرض مصنوعاته الدقيقة كي يُلفت أنظار رعيته الى أبهة سلطنته، وعظمة ثروته ويُظهِر لهم من خوارق صنعته الدقيقة وعجائب معرفته وغرائبها، ليشاهِد جمالَه وكمالَه المعنويين على وجهين:

الاول: أن يرى بالذات معروضاته بنظره البصير الثاقب الدقيق.

والثاني: ان يراها بنظر غيره.

ولأجل هذه الحكمة بدأ هذا السلطان بتشييد قصر فخم شامخ جداً، وقسّمه بشكل بارع الى منازل ودوائر مزيّناً كلَّ قسمٍ بمرصعات خزائنه المتنوعة، وجمّله بما عملت يداه من ألطف آثار ابداعه وأجملها، ونظّمه ونسقه بأدق دقائق فنون علمه وحكمته، فجهزه وحسّنه بالآثار المعجزة لخوارق علمه.

وبعد أن أتمه وكمله، أقام في القصر موائد فاخرة بهيجة تضم جميع أنواع أطعمته اللذيذة، وأفضل نِعَمه الثمينة، مخصصاً لكل طائفة ما يليق بها ويوافقها من الموائد، فأعدّ بذلك ضيافة فاخرة عامة، مبيناً سخاءاً وابداعاً وكرماً لم يشهد

له مثيل، حتى كأن كل مائدة من تلك الموائد قد امتلأت بمئات من لطائف الصنعة الدقيقة وآثارها، بما مَدّ عليها من نِعمٍ غالية لا تحصى.

ثم دعا أهالي أقطار مملكته ورعاياه، للمشاهدة والتنزه والضيافة، وعلّم كبير رُسُل القصر المكرّمين ما في هذا القصر العظيم من حكمٍ رائعة، وما في جوانبه ومشتملاته من معان دقيقة، مخصصاً اياه معلماً رائداً واستاذاً بارعاً على رعيته، ليعلّم الناس عظمة باني القصر وصانع ما فيه من نقوش بديعة موزونة ، ومعرّفاً لكل الداخلين رموزَه وما تعنيه هذه المرصعات المنتظمة والاشارات الدقيقة التي فيه، ومدى دلالتها على عظمة صاحب القصر وكماله الفائق ومهارته الدقيقة. مبيناً لهم أيضاً تعليمات مراسيم التشريفات بما في ذلك آداب الدخول والتجول، وأصول السير وفق ما يرضي السلطان الذي لا يُرى إلاّ من وراء حجاب.

وكان هذا المعلم الخبير يتوسط تلامذته في أوسع دائرة من دوائر القصر الضخم وكان مساعدوه منتشرين في كلٍ من الدوائر الاخرى للقصر.

بدأ المعلم هذا بالقاء توجيهاته الى المشاهدين كافة قائلاً:

((ايها الناس ان سيدنا مليك هذا القصر الواسع البديع، يريد ببنائه هذا وباظهار ما ترونه أمام اعينكم من مظاهر، أن يعرّف نفسه اليكم، فاعرفوه واسعوا لحسن معرفته.

وانه يريد بهذه التزيينات الجمالية، أن يحبب نفسه اليكم، فحببوا أنفسكم اليه، باستحسانكم أعماله وتقديركم لصنعته.

وأنه يتودد اليكم ويريكم محبته بما يسبغه عليكم من آلائه ونعمه وأفضاله فأحبوه بحسن اصغائكم لأوامره وبطاعتكم اياه.

وانه يظهر لكم شفقته ورحمته بهذا الاكرام والاغداق من النعم فعظّموه أنتم بالشكر.

وانه يريد أن يظهر لكم جماله المعنوي بآثار كماله في هذه المصنوعات الجميلة الكاملة فأظهروا أنتم شوقكم ولهفتكم للقائه ورؤيته، ونيل رضاه.

وانه يريد منكم أن تعرفوا أنه السلطان المتفرد بالحاكمية والاستقلال، بما ترون من شعاره الخاص، وخاتمه المخصص، وطرته التي لاتقلد على جميع المصنوعات.. فكل شئ له، وخاص به، صدر من يد قدرته. فعليكم أن تدركوا جيداً، ان لا سلطان ولا حاكم إلاّ هو.فهو السلطان الواحد الأحد الذي لا نظير له ولا مثيل..)).

كان هذا المعلم الكبير يخاطب الداخلين للقصر والمتفرجين، بامثال هذا الكلام الذي يناسب مقام السلطان وعظمته واحسانه.

ثم انقسم الداخلون الى فريقين:

الفريق الاول:

وهم ذوو العقول النيرة، والقلوب الصافية المطمئنة، المدركون قدر أنفسهم، فحيثما يتجولون ـ في آفاق هذا القصر العظيم – ويسرحون بنظرهم الى عجائبه يقولون: لابد أن في هذا شأناً عظيماً !! ولابد أن وراءه غاية سامية!.. فعلِموا أن ليس هناك عبث، وليس هو بلعب، ولا بلهو صبياني.. ومن حيرتهم بدأوا يقولون:

يا تُرى أين يكمن حل لغز القصر، وما الحكمة في ما شاهدناه ونشاهده؟!

وبينما هم يتأملون ويتحاورون في الامر، اذا بهم يسمعون صوت خطبة الاستاذ العارف وبياناته الرائعة، فعرفوا ان لديه مفاتيح جميع الاسرار وحل جميع الالغاز، فأقبلوا اليه مسرعين:

– السلام عليكم أيها الاستاذ.. ان مثل هذا القصر الباذخ ينبغي أن يكون له عرّيفاً صادقاً مدققاً اميناً مثلك، فالرجاء أن تعلّمنا مما علّمك سيدُنا العظيم.

فذكَّرهم الاستاذ بخطبته المذكورة آنفاً، فاستمعوا اليه خاشعين، وتقبّلوا كلامه بكل رضى واطمئنان، فغنموا أيمّا غنيمة، اذ عملوا ضمن مرضاة سلطانهم، فرضي عنهم السلطان بما أبدوا من رضى وسرور لأوامره. فدعاهم الى قصر أعظم وأرقى لايكاد يوصف، وأكرمهم بسعادة دائمة، بما يليق بالمالك الجواد الكريم، وتلائم هؤلاء الضيوف الكرام المتأدبين، وحريّ بهؤلاء المطيعين المنقادين للاوامر.

أما الفريق الآخر:

وهم الذين قد فسدت عقولهم، وانطفأت جذوة قلوبهم، فما أن دخلوا القصر، حتى غلبتْ عليهم شهواتُهم، فلم يعودوا يلتفتون إلا لما تشتهيه أنفسُهم من الاطعمة اللذيذة، صارفين أبصارهم عن جميع تلك المحاسن، سادّين آذانهم عن جميع تلك الارشادات الصادرة من ذلك المعلم العظيم، وتوجيهات تلاميذه.. فأقبلوا على المأكولات بشراهة ونهم، كالحيوانات، فأطبقت عليهم الغفلة والنوم وغشيهم السُكرُ، حتى فقدوا أنفسهم لكثرة ما أفرطوا في شرب ما لم يؤذن لهم به فازعجوا الضيوف الآخرين بجنونهم وعربدتهم. فأساءوا الادب مع قوانين السلطان المعظم وانظمته، لذا أخذهم جنوده وساقوهم الى سجن رهيب لينالوا عقابهم الحق، جزاءً وفاقاً على ما عملوا من سوء الخُلق.

فيا من ينصت معي الى هذه الحكاية؛ لابد انك قد فهمت ان ذلك السلطان قد بنى هذا القصر الشامخ لأجل تلك المقاصد المذكورة، فحصول تلك المقاصد يتوقف على أمرين:

احدهما:

وجود ذلك المعلم الاستاذ الذي شاهدناه وسمعنا خطابه، اذ لولاه لذهبت تلك المقاصد هباءاً منثوراً، كالكتاب المبهم الذي لا يُفهم معناه، ولا يبينه استاذ، فيظل مجرد أوراق لا معنى لها!..

ثانيهما:

إصغاء الناس الى كلام ذلك المعلم، وتقبّلهم له.

بمعنى ان وجود الاستاذ مدعاة لوجود القصر. واستماع الناس اليه سبب لبقاء القصر، لذا يصح القول: لم يكن السلطان العظيم ليبني هذا القصر لولا هذا الاستاذ. وكذا يصح القول: حينما يصبح الناس لا يصغون اليه ولا يلقون بالاً الى كلامه، فسيغير السلطان هذا القصر ويبدله.

الى هنا انتهت القصة يا صديقي. فان كنت قد فهمت سر الحكاية، فانظر من خلالها الى وجه الحقيقة:

ان ذلك القصر هو هذا العالم، المسقف بهذه السماء المتلألئة بالنجوم المتبسمة، والمفروش بهذه الارض المزيّنة من الشرق الى الغرب بالازهار المتجددة كل يوم.

وذلك السلطان العظيم، هو الله تعالى سلطان الأزل والابد الملك القدوس ذو الجلال والاكرام الذي { تسبّح له السمواتُ السبعُ والارضُ ومَن فيهن..}حيث أن { كلٌ قد علم صلاتَه وتسبيحَه} (النور: ٤١) وهو القدير{ الذي خلقَ السمواتِ والأرض في ستة ايام ثم استوى على العرش يُغشي الليلَ النهارَ يَطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخّرات بأمره}(الاعراف: ٥٤).

أما منازل ذلك القصر فهي ثمانية عشر الفاً من العوالم التي تزينت كل منها وانتظمت بما يلائمها من مخلوقات.. اما الصنائع الغريبة في ذلك القصر فهي معجزات القدرة الإلهية الظاهرة في عالمنا لكل ذي بصر وبصيرة.. وما تراه من الاطعمة اللذيذة التي فيه، هي علامات الرحمة الالهية من الاثمار والفواكه البديعة التي تشاهد بكل وضوح في جميع مواسم السنة وخاصة في الصيف وبالأخص في بساتين (بارلا).

ومطبخ هذا القصر هو سطح الارض وقلبها الذي يتّقد ناراً.

وما رأيته في الحكاية من الجواهر في تلك الكنوز الخفية، هي في الواقع امثلة لتجليات الاسماء الحسنى المقدسة.

وما رأيناه من النقوش ورموزها، هي هذه المخلوقات المزيِّنة للعالم وهي نقوش موزونة لقلم القدرة الالهية الدالة على اسماء القدير ذي الجلال.

اما ذلك المعلم الاستاذ فهو سيدنا، وسيد الكونين محمد – صلى الله عليه وسلم – ، ومساعدوه هم الانبياء عليهم السلام. وتلاميذه هم الاولياء الصالحون، والعلماء الاصفياء.

أما خدام السلطان العظيم فهم اشارة الى الملائكة عليهم السلام في هذا العالم.

وأما جميع من دُعُوا الى دار ضيافة الدنيا فهم اشارة الى الانس والجن وما يخدم الانسان من حيوانات وأنعام.

أما الفريقان:

فالأول: هم اهل الايمان الذين يتتلمذون على مائدة القرآن الكريم الذي يفسّر آيات كتاب الكون.

والآخر: هم اهل الكفر والطغيان الصمّ البكم الضالون الذين اتبعوا اهواءهم والشيطان، فما عرفوا من الحياة إلاّ ظاهرها، فهم كالأنعام بل هم اضل سبيلاً.

أما الفريق الأول الذين هم الابرار السعداء؛ فقد انصتوا الى المعلم العظيم والاستاذ الجليل ذي الحقيقتين؛ اذ هو عبد، وهو رسول؛ فمن حيث العبودية يعرِّف ربَّه ويوصفه بما يليق به من اوصاف الجلال، فهو اذاً في حكم ممثلٍ عن أمته لدى الحضرة الالهية.. ومن حيث الرسالة يبلّغ احكام ربّه الى الجن والانس كافة بالقرآن العظيم.

فهذه الجماعة السعيدة بعدما اصغوا الى ذلك الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - وانصاعوا لأوامر القرآن الحكيم، اذا بهم يرون أنفسهم قد قُلِّدوا مهمات لطيفة تترقى ضمن مقامات سامية كثيرة، تلك هي الصلاة، فهرس انواع العبادات.

نعم! لقد شاهدوا بوضوح تفاصيل فريضة الصلاة وارتقوا في مقاماتها الرفيعة التي تشير اليها اذكارُها وحركاتُها المتنوعة، على النحو الآتي:

اولاً: بمشاهدتهم الآثار الربانية المبثوثة في الكون، وجدوا انفسهم في مقام المشاهدين محاسن عظمة الربوبية، بمعاملة غيابية، فأدّوا وظيفة التكبير والتسبيح، قائلين: الله اكبر.

ثانياً: وبظهورهم في مقام الدعاة والأدلاّء الى بدائع صنائعه سبحانه وآثاره الساطعة، التي هي جلوات اسمائه الحسنى، أدّوا وظيفة التقديس والتحميد بقولهم: سبحان الله والحمد لله.

ثالثاً: وفي مقام ادراك النعم المدخرة في خزائن الرحمة الالهية وتذوقها بحواسَ ظاهرة وباطنة شرعوا بوظيفة الشكر والحمد.

رابعاً: وفي مقام معرفة جواهر كنوز الاسماء الحسنى وتقديرها حق قدرها بموازين الاجهزة المعنوية المودعة فيهم، بدأوا بوظيفة التنزيه والثناء.

خامساً: وفي مقام مطالعة الرسائل الربانية المسطرّة بقلم قدرته تعالى على صحيفة القَدَر، باشروا بوظيفة التفكر والاعجاب والاستحسان.

سادساً: وفي مقام التنزيه بإمتاع النظر الى دقة اللطف في خلق الاشياء، ورقة الجمال في اتقانها، دخلوا وظيفة المحبة والشوق الى جمال الفاطر الجليل والصانع الجميل.

وهكذا.. بعد أداء هذه الوظائف في المقامات السابقة، والقيام بالعبادة اللازمة

بمعاملة غيابية، لدى مشاهدة المخلوقات، ارتقوا الى درجة النظر الى معاملة الصانع الحكيم وشهودها ومعاملة افعاله معاملةً حضورية، وذلك أنهم:

قابلوا أولاً تعريفَ الخالق الجليل نفسَه لذوي الشعور بمعجزات صنعته، قابلوه بمعرفةٍ ملؤها العَجب والحيرة قائلين: سبحانك ما عرفناك حق معرفتك يا معروف بمعجزات جميع مخلوقاتك.

ثم استجابوا لتحبّب ذلك الرحمن بثمرات رحمته سبحانه، بمحبةٍ وهيام مرددين : إياك نعبد واياك نستعين.

ثم لَبّوا ترحمّ ذلك المنعم الحقيقي بنِعَمه الطيبة واظهار رأفته عليهم، بالشكر والحمد، وبقولهم: سبحانك ما شكرناك حق شكرك يا مشكورُ بألسنة احوالٍ فصيحة تنطق بها جميع احساناتك المبثوثة في الكون، وتعلن الحمدَ والثناء اعلاناتُ نِعَمِك المعدّة في سوق العالم والمنثورة على الارض كافة. فجميع الثمرات المنضّدة لرحمتك الواسعة، وجميع الأغذية الموزونة لنعمك العميمة، توفي شكرها بشهادتها على جُودك وكرمك لدى انظار المخلوقات.

ثم قابلوا اظهار كبرياء جماله وجلاله وكماله سبحانه في مرايا الموجودات المتبدلة على وجه الكون، بقولهم: الله اكبر، وركعوا في عجز مكلّل بالتعظيم، وهَوَوا الى السجود في محبة مفعمة بالذل والفناء لله، وفي غمرة إعجاب وتعظيم وإجلال.

ثم اجابوا اظهار ذلك الغني المطلق سبحانه ثروتَه التي لا تنفد ورحمته التي وسعت كل شئ، بالدعاء الملح والسؤال الجاد، باظهار فقرهم وحاجتهم قائلين: اياك نستعين.

ثم استقبلوا عرضَ ذلك الخالق الجليل للطائف صنائعه وروائع بدائعه ونشره لها في معارضَ أمام انظار الأنام، بالاعجاب والتقدير اللازمين، قائلين: ما شاء الله،

تبارك الله، ما اجمل خلقَ هذا.. شاهدين مستحسنين لها، هاتفين: هلموا لمشاهدة هذه البدائع، حيّ على الفلاح.. اشهدوها وكونوا شهداء عليها.

ثم اجابوا اعلان ذلك السلطان العظيم - سلطان الازل والابد - لربوبية سلطنته في الكون كله، واظهاره وحدانيته للوجود كافة، بقولهم: سمعنا واطعنا.. فَسمعوا، وانقادوا واطاعوا.

ثم استجابوا لإظهار رب العالمين أُلوهيته الجليلة، بخلاصة عبودية تنمّ عن ضعفهم الكامن في عجزهم، وفقرهم المندمج في حاجاتهم.. تلك هي الصلاة.

وهكذا بمثل هذه الوظائف المتنوعة للعبودية، ادّوا فريضة عمرهم ومهمة حياتهم في هذا المسجد الاكبر المسمى بدار الدنيا، حتى اتخذوا صورة أحسن تقويم، واعتلوا مرتبةً تفوق جميع المخلوقات قاطبة، اذ أصبحوا خلفاء أمناء في الارض، بما أُودع فيهم من الايمان والأمانة..

وبعد انتهاء مدة الامتحان والخروج من قبضة الاختبار يدعوهم ربهم الكريم الى السعادة الابدية والنعيم المقيم ثواباً لإيمانهم، ويرزقهم الدخول الى دار السلام جزاء اسلامهم، ويكرمهم - وقد اكرمهم - بنعمٍ لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطرت على قلب بشر، اذ المشاهد المشتاق لجمال سرمدي والعاشق الذي يعكسه كالمرآة، لابد ان يظل باقياً ويمضي الى الابد.

هذه هي عقبى تلاميذ القرآن.. اللّهمّ اجعلنا منهم!.

أما الفريق الآخر وهم الفجار والاشرار فما ان دخلوا بسن البلوغ قصر هذا العالم الاّ وقابلوا بالكفر دلائل الوحدانية كلها، وبالكفران الآلاء التي تُسبغ عليهم، واتهموا الموجودات كلها بالتفاهة وحقّروها بالعبثية ورفضوا تجليات الاسماء الإلهية على الموجودات كلها، فارتكبوا جريمة كبرى في مدة قصيرة، مما استحقوا عذاباً خالداً.

نعم، ان الانسان لم يُوهَب له رأس مال العمر، ولم يودَع فيه أجهزة انسانية راقية إلاّ ليؤهله ذلك على تأدية الوظائف الجليلة المذكورة.

فيا نفسي الحائرة ويا صديقي المغرم بالهوى!

أتحسبون أن ((مهمة حياتكم)) محصورة في تلبية متطلبات النفس الامارة بالسوء ورعايتها بوسائل الحضارة اشباعاً لشهوة البطن والفرج؟ أم تظنون أن الغاية من درج ما أُودع فيكم من لطائف معنوية رقيقة، وآلات وأعضاء حساسة، وجوارح وأجهزة بديعة، ومشاعر وحواس متجسسة، انما هي لمجرد استعمالها لإشباع حاجات سفلية لرغبات النفس الدنيئة في هذه الحياة الفانية؟ حاشَ وكلا!!

بل إن خلق تلك اللطائف والحواس والمشاعر في وجودكم وادراجَها في فطرتكم انما يستند الى أساسين اثنين:

الاول: أن تجعلكم تستشعرون بالشكر تجاه كل نوع من أنواع النعم التي أسبغها عليكم المنعم سبحانه. أي عليكم الشعور بها والقيام بشكره تعالى وعبادته.

الثاني: أن تجعلكم تعرفون أقسام تجليات الاسماء الحسنى التي تعم الوجود كله، معرفتها وتذوقها فرداً فرداً.أي عليكم الايمان بتلك الاسماء ومعرفتها معرفة ذوقية خالصة.

وعلى هذين الاساسين تنمو الكمالات الانسانية، وبهما يغدو الانسان انساناً حقاً.

فانظر الآن – من خلال هذا المثال – لتعرف ان الانسان بخلاف الحيوان لم يزوّد بالاجهزة لكسب هذه الحياة الدنيا فقط:

أعطى سيدٌ خادمَه عشرين ليرة ليشتري بها بدلة لنفسه، من قماش معين. فراح الخادم واشتراها من أجود أنواع الاقمشة ولبسها. ثم أعطى السيد نفسه خادماً آخر ألف ليرة ولكن وضع في جيبه ورقة تعليمات وأرسله للتجارة.

فكل مَن يملك مسكة من العقل يدرك يقيناً أن هذا المبلغ ليس لشراء بدلة، اذ قد اشتراها الخادم الاول بعشرين ليرة!

فلو لم يقرأ هذا الثاني ماكُتب له في الورقة، وأعطى كل ما لديه الى صاحب حانوتٍ واشترى منه بدلة – تقليداً لصديقه الآخر – ومن أردأ أنواع البدلات، ألا يكون قد ارتكب حماقة متناهية، ينبغي تأديبه بعنف وعقابه عقاباً رادعاً؟

فيا صديقي الحميم، ويا نفسي الامارة بالسوء!

استجمعوا عقولكم، ولا تهدروا رأس مال عمركم، ولا تبددوا طاقات حياتكم واستعداداتها لهذه الدنيا الفانية الزائلة، وفي سبيل لذة مادية ومتاع حيواني.. فالعاقبة وخيمة، اذ تُردّون الى دَرَكةٍ أدنى من أخس حيوان، علماً أن رأس مالكم أثمن من أرقى حيوان!

فيا نفسي الغافلة!

ان كنت تريدين أن تفهمي شيئاً من: غاية حياتك، ماهية حياتك، صورة حياتك، سر حقيقة حياتك، كمال سعادة حياتك.. فانظري الى مجمل ((غايات حياتك)) فانها تسعة أمور:

أولها: القيام بالشكر الكلي، ووزن النِعم المدخرة في خزائن الرحمة الإلهية بموازين الحواس المغروزة في جسمك.

ثانيها: فتح الكنوز المخفية للاسماء الالهية الحسنى بمفاتيح الاجهزة المودعة في فطرتك، ومعرفة الله جل وعلا بتلك الاسماء الحسنى.

ثالثها: اعلان ما ركّبت فيك الاسماء الحسنى من لطائف تجلياتها وبدائع صنعتها، واظهار تلك اللطائف البديعة أمام أنظار المخلوقات بعلمٍ وشعور، وبجوانب حياتك كافة في معرض الدنيا هذه.

رابعها: اظهار عبوديتك أمام عظمة ربوبية خالقك، بلسان الحال والمقال.

خامسها: التجمل بمزايا اللطائف الانسانية التي وهبتْها لك تجليات الاسماء، وابرازها أمام نظر الشاهد الازلي جل وعلا.. مثلك في هذا كمثل الجندي الذي يتقلد الشارات المتنوعة التي منحها السلطان في مناسبات رسمية، ويعرضها أمام نظره ليُظهر آثار تكرّمه عليه وعنايته به.

سادسها: شهود مظاهر الحياة لذوي الحياة، شهود علمٍ وبصيرة، اذ هي تحياتُها ودلالاتها بحياتها على بارئها سبحانه.. ورؤية تسبيحاتها لخالقها، رؤيةً بتفكرٍ وعبرة، اذ هي رموز حياتها.. وعرض عبادتها الى واهب الحياة سبحانه والشهادة عليها، اذ هي غايةُ حياتها ونتيجتها.

سابعها: معرفة الصفات المطلقة للخالق الجليل، وشؤونه الحكيمة، ووزنها بما وهب لحياتك من علم جزئي وقدرة جزئية وارادة جزئية، أي بجعلها نماذج مصغرة ووحدة قياسية لمعرفة تلك الصفات المطلقة الجليلة.

فمثلاً: كما انك قد شيدت هذه الدار بنظام كامل، بقدرتك الجزئية وارادتك الجزئية، وعلمك الجزئي، كذلك عليك أن تعلم - بنسبة عظمة بناء قصر العالم ونظامه المتقن - أن بنّاءه قدير، عليم، حكيم، مدبِّر.

ثامنها: فهم الاقوال الصادرة من كل موجود في العالم وادراك كلماته المعنوية - كل حسب لسانه الخاص - فيما يخص وحدانية خالقه وربوبية مبدعه.

تاسعها: ادراك درجات القدرة الإلهية والثروة الربانية المطلقتين، بموازين العجز والضعف والفقر والحاجة المنطوية في نفسك، اذ كما تُدرك أنواع الاطعمة

ودرجاتها ولذاتها، بدرجات الجوع وبمقدار الاحتياج اليها، كذلك عليك فهم درجات القدرة الإلهية وثروتها المطلقتين بعجزك وفقرك غير المتناهيين.

فهذه الامور التسعة وأمثالها هي مجمل ((غايات حياتك)).

أما ((ماهية حياتك الذاتية)) فمجملها هو:

انها فهرس الغرائب التي تخص الاسماء الإلهية الحسنى..

ومقياس مصغر لمعرفة الشؤون الالهية وصفاتها الجليلة..

وميزان للعوالم التي في الكون..

ولائحة لمندرجات هذا العالم الكبير..

وخريطة لهذا الكون الواسع ..

وفذلكة لكتاب الكون الكبير..

ومجموعة مفاتيح تفتح كنوز القدرة الإلهية الخفية..

وأحسن تقويمٍ للكمالات المبثوثة في الموجودات، والمنشورة على الاوقات والازمان..

فهذه وامثالها هي ((ماهية حياتك)).

وإليك الآن ((صورة حياتك)) وطرز وظيفتها، وهي: إن حياتك كلمة حكيمة مكتوبة بقلم القدرة الإلهية .. وهي مقالة بليغة تدل على الاسماء الحسنى المشهودة والمسموعة ..فهذه وامثالها هي صورة حياتك.

أما ((حقيقة حياتك)) وسرّها فهي:

انها مرآة لتجلي الاحدية، وجلوة الصمدية، أي أن حياتك كالمرآة تنعكس عليها تجلي الذات الأحد الصمد تجلياً جامعاً، وكأن حياتك نقطةٌ مركزيةٌ لجمع أنواع تجليات الاسماء الإلهية المتجلية على العالم أجمع.

أما ((كمال سعادة حياتك)) فهو:

الشعور بما يتجلى من أنوار التجليات الإلهية في مرآة حياتك وحبها، واظهار الشوق اليها، وأنت مالكٌ للشعور، ثم الفناء في محبتها، وترسيخ تلك الانوار المنعكسة وتمكينها في بؤبؤ عين قلبك.

ولأجل هذا قيل بالفارسية هذا المعنى للحديث النبوي القدسي الذي رفعك الى اعلى عليين:

من نكنجم درسموات وزمين

أز عجب كنجم بقلب مؤمنين(١)

فيا نفسي!

ان حياتك التي تتوجه الى مثل هذه الغايات المثلى، وهي الجامعة لمثل هذه الخزائن القيّمة.. هل يليق عقلاً وانصافاً ان تُصرف في حظوظ تافهة، تلبية لرغبات النفس الامارة، واستمتاعاً بلذائذ دنيوية فانية، فتهدر وتضيّع بعد ذلك.

فان كنت راغبة في عدم ضياعها سدىً، ففكّري وتدبّري في القَسَم وجواب القَسَم في سورة ((الشمس)) ثم اعملي مع تذكر الحكاية التمثيلية المذكورة في المقدمة، التي ترمز الى تلك السورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

{ والشمس وضُحاها * والقمر اذا تلاها * والنهار اذا جلاها * والليل اذا يغشاها * والسمآء وما بناها * والارض وما طحاها * ونفسٍ وما سوّاها * فألهمها فجورها وتقواها * قد افلح من زكاها * وقد خاب من دساها} .

اللهم صلّ وسلم على شمس سماء الرسالة وقمر برج النبوة، وعلى آله واصحابه نجوم الهداية.

وارحمنا وارحم المؤمنين والمؤمنات.

آمين آمين آمين.

حقيقة الدنيا

يقول داعية اهل الضلال وممثلها:

لقد لُعنت الدنيا في احاديثكم ، وذُكرت انها جيفة، ونرى أن اهل الولاية واهل الحقيقة يحقرون الدنيا ويستهينون بها ويقولون: انها فاسدة، قذرة، بينما تبينها انت: انها مبعث كمالٍ إلهي وحجة له، وتذكرها ذكر عاشق لها.

الجواب : اني نظرت الى ((الدنيا)) التي عشقها اكثر الناس، وابتلوا بها. فرأيت بنور القرآن الكريم ان:

لكل احد في هذه الدنيا دنيا عظيمة خاصة به، فهناك اذن دنىً متداخلة بعدد البشر. غير ان دنيا كل شخص قائمة على حياته الشخصية، فمتى ما ينهار جسم شخص فإن دنياه تتهدم وقيامته تقوم. وحيث ان الغافلين لايدركون انهدام دنياهم الخاصة بهذه السرعة الخاطفة؛ فهم يفتنون بها، ويظنونها كالدنيا العامة المستقرة من حولهم.

فتأملت قائلاً: لاشك أن لي ايضاً دنيا خاصة - كدنيا غيري - تتهدم بسرعة - فما فائدة هذه الدنيا الخاصة اذن في عمري القصير جداً؟!.. فرأيت بنور القرآن الكريم ان هذه الدنيا - بالنسبة لي ولغيري - ما هي الاّ :

متجر مؤقت،

ودار ضيافة تملأ كل يوم وتخلى،

وهي سوق مقامة على الطريق لتجارة الغادين والرائحين،

وهي كتاب مفتوح يتجدد للبارىء المصور، فيمحو فيه ما يشاء ويثبته بحكمة.

وكل ربيع فيها رسالة مرصعة مذهّبة،

وكل صيف فيها قصيدة منظومة رائعة،

وهي مرايا تتجدد مظهرة تجليات الاسماء الحسنى للصانع الجليل،

وهي مزرعة لغراس الآخرة وحديقتها،

وهي مزهرة الرحمة الإلهية،

وهي مصنع موقت لتجهيز اللوحات الربانية الخالدة التي ستظهر في عالم البقاء والخلود.

فشكرتُ الله الخالق الكريم اجزل شكر على خلقه الدنيا بهذه الصورة. (**اللمعات،اللمعة/٢٦،الرجاء/٨**)

ثم ان للدنيا ثلاثة وجوه:

الوجه الاول: ينظر الى اسماء الله الحسنى ويبين آثار تلك الاسماء ونقوشها، وتؤدي الدنيا – بهذا الوجه – وظيفة مرآة لتلك الاسماء بالمعنى الحرفي، فهذا الوجه مكاتيب صمدانية لا تحد. لذا يستحق العشق لا النفور، لأنه في غاية الجمال.

الوجه الثاني: وجه ينظر الى الآخرة، فهو مزرعة الآخرة، مزرعة الجنة، موضع ازهار ازاهير الرحمة الإلهية. وهذا الوجه جميل كالوجه الأول يستحق المحبة لا التحقير.

فابداء المحبة الى وجهي الدنيا المتطلعين الى الاسماء الحسنى والآخرة ليس نقصاً في العبودية، بل هو مناط كمال الانسان وسمو ايمانه، اذ كلما جهد الانسان في محبته لذينك الوجهين كسب مزيداً من العبادة ومزيداً من معرفة الله سبحانه. ومن هنا كانت دنيا الصحابة الكرام متوجهة الى ذينك الوجهين، فعدوها مزرعة الآخرة وزرعوا الحسنات وجنوا الثمرات اليانعة من الثواب الجزيل والاجر العظيم، واعتبروا الدنيا وما فيها كأنها مرايا تعكس انوار تجليات الاسماء الحسنى، فتأملوا فيها وفكروا في جنباتها بلهفة وشوق، فتقربوا الى الله اكثر، وفي الوقت نفسه تركوا

الوجه الثالث من الدنيا وهو وجهها الفاني المتطلع الى شهوات الانسان وهواه.(**الكلمات، الكلمة/٢٧**)

الوجه الثالث: وجه ينظر الى اهواء الانسان، ويكون ستار الغافلين، وموضع لعب اهل الدنيا واهوائهم. هذا الوجه قبيح دميم، لأنه فانٍ، زائلٍ، مؤلم،خداع.

فالتحقير الوارد في الحديث الشريف، والنفور الذي لدى اهل الحقيقة هو من هذا الوجه.

أما ذكر القرآن الكريم للموجودات بأهمية بالغة واعجاب واطراء فهو متوجه الى الوجهين الاولين، وان الدنيا المرغوبة فيها لدى الصحابة الكرام وسائر اولياء الله في الوجهين الاولين. (**الكلمات، الكلمة/٣٢،الموقف الثاني، الرمز الخامس**)

نعم .. انه تعالى يفهّم المنصت للقرآن الكريم ما فيه من علم الحقيقة، ويعلّمه بنور الحقيقة ماهية الدنيا، حتى يغدو عشقها والركون اليها تافهاً لا معنى له.. اي يقول له ويثبت:

ان الدنيا كتاب رباني صمداني مفتوح للانظار، حروفه وكلماته لا تمثل نفسها، بل تدل على ذات بارئها وعلى صفاته الجليلة واسمائه الحسنى، ولهذا، افهم معانيها وخذ بها، ودَع عنك نقوشها وامض الى شانك..

واعلم انها مزرعة للآخرة، فازرع واجنِ ثمراتها واحتفظ بها، واهمل قذاراتها الفانية..

واعلم انها مجاميع مرايا متعاقبة، فتعرّف الى مَن يتجلى فيها، وعاين انواره، وادرك معاني اسمائه المتجلية فيها واحبب مسمّاها، واقطع علاقتك عن تلك القطع الزجاجية القابلة للكسر والزوال..

واعلم انها موضع تجارة سيار، فقم بالبيع والشراء المطلوب منك، دون ان تلهث وراء القوافل التي اهملتك وجاوزتك، فتتعب..

واعلم انها متنزّه مؤقت فاسرح ببصرك فيها للعبرة، ودقق في الوجه الجميل المتستر، المتوجه الى الجميل الباقي، واعرض عن الوجه القبيح الدميم المتوجه الى هوى النفس، ولا تبك كالطفل الغرير عند انسدال الستائر التي تريك تلك المناظر الجميلة..

واعلم انها دار ضيافة، وانت فيها ضيف مكرم، فكل واشرب باذن صاحب الضيافة والكرم، وقدّم له الشكر، ولا تتحرك الاّ وفق اوامره وحدوده، وارحل عنها دون ان تلتفت الى ورائك.. واياك أن تتدخل بفضول بامور لا تعود اليك ولا تفيدك بشئ، فلا تغرق نفسك بشؤونها العابرة التي تفارقك.

وهكذا بمثل هذه الحقائق الظاهرة يخفف سبحانه وتعالى عن الانسان كثيراً من آلام فراق الدنيا، بل قد يحببه الى النابهين اليقظين، بما يظهر سبحانه عليه من اسرارحقيقة الدنيا، وانه اثرٍ من آثار رحمته الواسعة في كل شئ، وفي كل شأن.(**الكلمات، الكلمة/١٧**).

الدنيا بين نظرة المؤمن ونظرة الكافر

بسم الله الرحمن الرحيم

{الذين يُؤمنون بالغَيب}

ان كنت تريد ان تعرف مدى ما في الايمان من سعادة ونعمة، ومدى ما فيه من لذة وراحة، فاستمع الى هذه الحكاية القصيرة:

خرج رجلان في سياحة ذات يوم، من أجل الاستجمام والتجارة. فمضى احدهما وكان انانياً شقياً الى جهة، ومضى الآخر وهو رباني سعيد الى جهة ثانية.

فالاناني المغرور الذي كان متشائماً لقي بلداً في غاية السوء والشؤم في نظره، جزاءاً وفاقاً على تشاؤمه، حتى انه كان يرى - أينما اتجه - عجزةً مساكين يصرخون ويولولون من ضربات ايدي رجال طغاة قساة ومن اعمالهم المدمّرة. فرأى هذه الحالة المؤلمة الحزينة في كل ما يزوره من اماكن، حتى اتخذت المملكة كلها في نظره شكل دار مأتم عام. فلم يجد لنفسه علاجاً لحاله المؤلم المظلم غير السُكر، فرمى نفسه في نشوته لكيلا يشعر بحاله، إذ صار كل واحد من اهل هذه المملكة يتراءى له عدواً يتربص به، واجنبياً يتنكر له، فظل في عذاب وجداني مؤلم لما يرى فيما حوله من جنائز مرعبة ويتامى يبكون بكاءاً يائساً مريراً.

أمّا الآخر الرجل الربّاني العابد لله، والباحث عن الحق، فقد كان ذا أخلاق حسنة بحيث لقي في رحلته مملكة طيّبة هي في نظره في منتهى الروعة والجمال.

فهذا الرجل الصالح يرى في المملكة التي دخلها احتفالات رائعة ومهرجانات بارعة قائمة على قدم وساق. وفي كل طرف سروراً، وفي كل زاوية حبوراً، وفي كل مكان محاريب ذكر. حتى لقد صار يرى كل فرد من أفراد هذه المملكة صديقاً صدوقاً وقريباً حبيباً له. ثم يرى ان المملكة كلها تعلن - في حفل التسريح العام -

هتافات الفرح بصيحة مصحوبة بكلمات الشكر والثناء. ويسمع فيهم أيضاً أصوات الجوقة الموسيقية وهي تقدم ألحانها الحماسية مقترنة بالتكبيرات العالية والتهليلات الحارة بسعادة واعتزاز للذين يساقون الى الخدمة والجندية.

فبينما كان ذلك الرجل الاول المتشائم منشغلاً بألمه وآلام الناس كلهم.. كان الثاني السعيد المتفائل مسروراً مع سرور الناس كلهم فرحاً مع فرحهم. فضلاً عن انه غنم لنفسه تجارة حسنة مباركة فشكر ربه وحمده.

ولدى عودته الى أهله، يلقى ذلك الرجل فيسأل عنه، وعن أخباره، فيعلم كل شئ عن حاله فيقول له:

- ((يا هذا لقد جننتَ! فان ما في باطنك من الشؤم انعكس على ظاهرك بحيث أصبحتَ تتوهم أن كل ابتسامة صراخ ودموع، وأن كل تسريح واجازة نهب وسلب. عُد الى رشدك، وطهّر قلبك.. لعل هذا الغشاء النكد ينزاح عن عينيك. وعسى أن تبصر الحقيقة على وجهها الأبلج. فإن صاحب هذه المملكة ومالكها وهو في منتهى درجات العدل والمرحمة والربوبية والاقتدار والتنظيم المبدع والرفق.. وان مملكة بمثل هذه الدرجة من الرقي والسمو مما تريك من آثار بأم عينيك ... لا يمكن أن تكون بمثل ما تريه أوهامك من صور)).

وبعد ذلك بدأ هذا الشقي يراجع نفسه ويرجع الى صوابه رويداً رويداً، ويفكر بعقله ويقول متندماً:

- نعم لقد اصابني جنون لكثرة تعاطي الخمر.. ليرضَ الله عنك؛ فلقد انقذتني من جحيم الشقاء.

فيا نفسي!

اعلمي ان الرجل الاول هو الكافر أو الفاسق الغافل فهذه الدنيا في نظره بمثابة مأتم عام، وجميع الاحياء ايتام يبكون تألماً من ضربات الزوال وصفعات الفراق..

أما الانسان والحيوان فمخلوقات سائبة بلا راع ولا مالك، تتمزق بمخالب الأجل وتعتصر بمعصرته..

وأما الموجودات الضخام ـ كالجبال والبحار ـ فهي في حكم الجنائز الهامدة والنعوش الرهيبة..

وامثال هذه الأوهام المدهشة المؤلمة الناشئة من كفر الانسان وضلالته تذيق صاحبها عذاباً معنوياً مريراً.

أما الرجل الثاني، فهو المؤمن الذي يعرف خالقه حق المعرفة ويؤمن به، فالدنيا في نظره دار ذكر رحماني، وساحة تعليم وتدريب البشر والحيوان، وميدان ابتلاء واختبار الانس والجان..

أما الوفيات كافة ـ من حيوان وانسان ـ فهي اعفاء من الوظائف، وانهاء من الخدمات، فالذين أنهوا وظائف حياتهم، يودّعون هذه الدار الفانية وهم مسرورون معنوياً، حيث انهم ينقلون الى عالم آخر غير ذي قلق، خال من اوضار المادة واوصاب الزمان والمكان وصروف الدهر وطوارق الحدثان، لينفسح المجال واسعاً لموظفين جدد يأتون للسعي في مهامهم..

اما المواليد كافة ـ من حيوان وانسان ـ فهي سَوقة تجنيد عسكرية، وتسلُّم سلاح، وتسنّم وظائف وواجبات، فكل كائن انما هو موظف وجندي مسرور، ومأمور مستقيم راضٍ قانع.. .

وأما الاصوات المنبعثة والاصداء المرتدة من ارجاء الدنيا فهي إما ذكر وتسبيح لتسنم الوظائف والشروع فيها، أو شكر وتهليل ايذاناً بالانتهاء منها، أو أنغام صادرة من شوق العمل وفرحته..

فالموجودات كلها . في نظر هذا المؤمن . خدام مؤنسون، وموظفون أخلاّء، وكتبٌ حلوة لسيده الكريم ومالكه الرحيم.. وهكذا يتجلى من ايمانه كثير جداً من أمثال هذه الحقائق التي هي في غاية اللطف والسمو واللذة والذوق.

فالايمان اذن يضم حقاً بذرة معنوية منشقة من طوبى الجنة..

اما الكفر فانه يخفي بذرة معنوية قد نفثته زقوم جهنم.

فالسلامة والأمان اذن لا وجود لهما إلاّ في الاسلام والايمان.

فعلينا ان نردد دائماً:

الحمد لله على دين الاسلام وكمال الايمان.. (**الكلمات، الكلمة الثانية**).

باقة من الموازين

* الحق يعلو

* التجارة الرابحة

* نظرة إيمانية الى سِرّ الموت

*رحيل الشباب

*لولا الشيوخ الركع

* لغة العلوم

*مهمة رسائل النور

*ورطة المتدينين

* التقوى والعمل الصالح

الحق يعلو

أيها الصديق! سألني أحدهم ذات يوم:

لما كان «الحق يعلو» أمراً حقاً لا مراء فيه، فلِمَ ينتصر الكافرُ على المسلم، وتغلُب القوة على الحق؟.

قلت: تأمل في النقاط الأربع الآتية، تنحل المعضلة.

النقطة الأولى:

لا يلزم أن تكون كلُّ وسيلةٍ من وسائل كل حقٍّ حقاً، كما لا يلزم أيضاً أن تكون كلُّ وسيلةٍ من وسائل كلِّ باطلٍ باطلاً.

فالنتيجة إذن: إنَّ وسيلةً حقة (ولو كانت في باطل) غالبةٌ على وسيلةٍ باطلة (ولو كانت في الحق).

وعليه يكون: حقٌ مغلوب لباطل، مغلوبٌ بوسيلته الباطلة، أي مغلوبٌ موقتاً، وإلاّ فليس مغلوباً بذاته، وليس دائماً، لأن عاقبة الأمور تصير للحق دوماً.

أما القوة، فلها من الحق نصيبٌ، وفيها سرٌّ للتفوق كامنٌ في خلقتها.

النقطة الثانية:

بينما يجب أن تكون كلُّ صفةٍ من صفات المسلم مسلمةً مثله، إلاّ أن هذا ليس أمراً واقعاً، ولا دائماً!

ومثله، لا يلزم أيضاً أن تكون صفات الكافر جميعها كافرةً ولا نابعةً من كفره.

وكذا الأمر في صفات الفاسق، لا يشترط أن تكون جميعُها فاسقة، ولا ناشئة

من فسقه.

إذن، صفةٌ مسلمةٌ يتصف بها كافرٌ تتغلب على صفةٍ غير مشروعة لدى المسلم. وبهذه الوساطة (والوسيلة الحقة) يكون ذلك الكافر غالباً على ذلك المسلم (الذي يحمل صفة غير مشروعة).

ثم إن حقّ الحياة في الدنيا شامل وعام للجميع. والكفر ليس مانعاً لحق الحياة الذي هو تجلٍ للرحمة العامة والذي ينطوي على سر الحكمة في الخلق.

النقطة الثالثة:

لله سبحانه وتعالى تجليان – يتجلى بهما على المخلوقات – وهما تجليان شرعيان صادران من صفتين من صفات كماله جل وعلا.

أولهما:

الشرع التكويني – أو السنة الكونية – الذي هو المشيئة والتقدير الإلهي الصادر من صفة «الإرادة الإلهية».

والثاني:

الشريعة المعروفة الصادرة من صفة «الكلام الرباني».

فكما أن هناك طاعةً وعصياناً تجاه الأوامر الشرعية المعروفة، كذلك هناك طاعةٌ وعصيانٌ تجاه الأوامر التكوينية.

وغالباً ما يرى الأول – مطيع الشريعة والعاصي لها – جزاءه وثوابه في الدار الآخرة. والثاني – مطيع السنن الكونية والعاصي لها – غالباً ما ينال عقابه وثوابه في الدار الدنيا.

فكما أن ثواب الصبر النصرُ.

وجزاء البطالة والتقاعس الذلُّ والتسفّل.

كذلك ثواب السعي الغنى،

وثواب الثبات التغلب.

مثلما أن نتيجة السمِّ المرضُ.

وعاقبةَ الترياقِ والدواء الشفاء والعافية.

وتجتمع أحياناً أوامر الشريعتين معاً في شيء.. فلكلٍ جهة.

فطاعةُ الأمر التكويني الذي هو حق، هذه الطاعة غالبة - لأنها طاعة لأمر إلهي - على عصيان هذا الأمر بالمقابل، لأن العصيان - لأي أمر تكويني - يندرج في الباطل ويصبح جزءاً منه.

فإذا ما أصبح حقٌ وسيلةً لباطلٍ فسينتصر على باطلٍ اصبح وسيلةً لحق، وتظهر النتيجة:

حقٌ مغلوب أمام باطل! ولكن ليس مغلوباً بذاته، وإنما بوسيلته. إذن فـ«الحق يعلو» يعلو بالذات، والعقبى هي المرادة - فليس العلو قاصراً في الدنيا - إلاّ أن التقيّد والأخذ بحيثيات الحق مقصود ولابد منه.

النقطة الرابعة:

إن ظلَّ حقٌ كامناً في طور القوة - أي لم يخرج إلى طور الفعل المشاهَد - أو كان مشوباً بشيء آخر، أو مغشوشاً، وتطلّب الأمر كشف الحق وتزويده بقوة جديدة، وجعله خالصاً زكياً، يُسلّط عليه مؤقتاً باطلٌ حتى يخلُص الحق - نتيجة

التدافع – من كل درن فيكون طيباً.

ولتظهر مدى قيمة سبيكة الحق الثمينة جداً.

فإذا ما انتصر الباطل في الدنيا – في مكان وزمان معينين – فقد كسب معركة ولم يكسب الحرب كلها، لأن «العاقبة للمتقين» هي المآل الذي يؤول إليه الحق.

وهكذا الباطل مغلوب – حتى في غلبه الظاهر – وفي «الحق يعلو» سرٌّ كامن عميق يدفع الباطل قهراً إلى العقاب في عقبى الدنيا أو الآخرة، فهو يتطلع إلى العقبى. وهكذا الحق غالب مهما ظهر أنه مغلوب!.(**الكلمات، اللوامع)**

التجارة الرابحة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ

{إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفُسَهم وأموالَهم بأنّ لَهم الجنة} (التوبة: ١١١)

اذا أردت أن تعلم ان بيع النفس والمال الى الله تعالى، والعبودية له، والجندية في سبيله أربح تجارة واشرفها! فانصت الى هذه الحكاية التمثيلية القصيرة:

وضع سلطان . ذات يوم . لدى اثنين من رعاياه وديعةً وامانةً، لكل منهما مزرعة واسعة، فيها كل ما تتطلبه من مكائن وآلات وأسلحة وحيوانات وغيرها.. وتوافق ان كان الوقت آنذاك وقت حرب طاحنة، لا يقرّ قرار لشئ؛ فإما ان تبدّله الحرب وتغيّره أو تجعله أثراً بعد عين. فأرسل السلطان رحمةً منه وفضلاً أحدَ رجاله المقربين مصحوباً بأمره الكريم ليقول لهما:

((بيعوا لي ما لديكم من أمانتي لأحفظها لكم، فلا تذهب هباء في هذا الوقت العصيب، وسأردّها لكم حالما تضع الحرب أوزارها.. وسأوفي ثمنها لكم غالياً، كأن تلك الامانة ملككم.. وستُشغل تلك المكائن والآلات التي في حوزتكم الآن في معاملي وبأسمي وعهدتي.. وسترتفع اثمانها من الواحد الى الالف، فضلاً عن أن جميع الارباح ستعود اليكم ايضاً.. وسأتعهد عنكم بجميع تكاليفها ومصاريفها، حيث انكم عاجزون فقراءِ لا تتحملون مصاريف تلك المكائن.. وسأرد لكم جميع ارداتها ومنافعها، علماً اني سأبقيها عندكم لتستفيدوا منها وتتمتعوا بها الى أن يحين وقت أخذها.

فلكم خمس مراتب من الارباح في صفقة واحدة.

وان لم تبيعوها لي فسيزول حتماً كل ما لديكم، حيث ترون أن أحداً لا يستطيع أن يمسك بما عنده.. وستحرمون من تلك الاثمان الغالية.. وستهمل تلك

الآلات الدقيقة النفيسة والموازين الحساسة والمعادن الثمينة، وتفقد قيمتها كلياً، وذلك لعدم استعمالها في اعمال راقية.. وستتحملون وحدكم ادارتها وتكاليفها وسترون جزاء خيانتكم للامانة.. فتلك خمس خسائر في صفقة واحدة. وفوق هذا كله ان هذا البيع يعني ان البائع يصبح جندياً حراً أبياً خاصاً بي، يتصرف باسمي ولا يبقى اسيراً عادياً وشخصاً سائباً..)).

أنصت الرجلان ملياً الى هذا الكلام الجميل والامر السلطاني الكريم. فقال العاقل الرزين منهما:

سمعاً وطاعة لأمر السلطان، رضيت بالبيع بكل فخر وشكر.

أما الآخر المغرور المتفرعن الغافل فقد ظن أن مزرعته لا تبيد أبداً، ولا تصيبها تقلبات الدهر واضطرابات الدنيا، فقال:

((لا!.. ومَن السلطان؟ لا ابيع ملكي ولا أفسد نشوتي!)).

ودارت الايام.. فاصبح الرجل الأول في مقام يغبطه الناس جميعاً، اذ اضحى يعيش في بحبوحة قصر السلطان، يتنعم بألطافه ويتقلب على ارائك افضاله. أما الآخر فقد ابتلي شرّ بلاء حتى رثى لحاله الناس كلهم، رغم انهم قالوا: انه يستحقها! اذ هو الذي ورّط نفسه في مرارة العذاب جزاء ما ارتكب من خطأ، فلا دامت له نشوته ولا دام له ملكه.

فيا نفسي المغرورة!

انظري من خلال منظار هذه الحكاية الى وجه الحقيقة الناصعة. فالسلطان هو سلطان الازل والأبد وهو ربك وخالقك. وتلك المزرعة والمكائن والآلات والموازين هي ما تملكينه في الحياة الدنيا من جسم وروح وقلب، وما فيها من سمع وبصر وعقل وخيال، اي جميع الحواس الظاهرة والباطنة. وأما الرسول الكريم فهو سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – . وأما الأمر السلطاني المحكم فهو القرآن الكريم

الذي يعلن هذا البيع والتجارة الرابحة في هذه الآية الكريمة: {إنَّ الله اشترى من المؤمنينَ أنفُسَهم وأموالَهُم بأنَّ لَهم الجنّةَ} وأما الميدان المضطرب والحرب المدمّرة فهي احوال هذه الدنيا، اذ لا قرار فيها ولا ثبات، كلها تقلبات تلحّ على فكر الانسان بهذا السؤال:

((ان جميع ما نملك لا يستقر ولا يبقى في ايدينا، بل يفنى ويغيب عنّا، أليس هناك من علاج لهذا؟ ألا يمكن ان يحل البقاء بهذا الفناء؟!)).

وبينما الانسان غارق في هذا التفكير، إذا به يسمع صدى القرآن السماوي يدوّي في الآفاق ويقول له بتلك الآية الكريمة: نعم! ان هناك علاجاً لهذا الداء، بل هو علاج لطيف فيه ربح عظيم في خمس مراتب.

سؤال: وما العلاج؟

الجواب: بيعُ الامانة الى مالكها الحقيقي، في هذا البيع خمس درجات من الربح في صفقة واحدة.

الربح الاول: المال الفاني يجد البقاء، لأن العمر الزائل الذي يوهب للحي القيوم الباقي، ويبذل في سبيله سبحانه، ينقلب عمراً ابدياً باقياً. عندئذٍ تثمر دقائق العمر ثماراً يانعة وازاهير سعادة وضاءة في عالم البقاء مثلما تفنى البذور ظاهراً وتنشق عنها الازهار والسنابل.

الربح الثاني: الثمن هو الجنة.

الربح الثالث: يرتفع ثمن كل عضو وحاسة ويغلو من الواحدة الى الألف.

فمثلاً: العقل عضو وآلة، إن لم تبعه ـ يا اخي ـ لله ولم تستعمله في سبيله، بل جعلته في سبيل الهوى والنفس، فانه يتحول الى عضو مشؤوم مزعج وعاجز، اذ يحمّلك آلام الماضي الحزينة وأهوال المستقبل المخيفة، فينحدر عندئذٍ الى درك آلة ضارة مشؤومة، ألا ترى كيف يهرب الفاسق من واقع حياته وينغمس في اللهو أو

السكر انقاذاً لنفسه من ازعاجات عقله؟ ولكن اذا بيع العقل الى الله، وأُستُعمل في سبيله ولأجله، فانه يكون مفتاحاً رائعاً بحيث يفتح ما لا يعد من خزائن الرحمة الإلهية وكنوز الحكمة الربانية فاينما ينظر صاحبه وكيفما يفكر يرى الحكمة الإلهية في كل شئ، وكل موجود، وكل حادثة. ويشاهد الرحمة الإلهية متجلية على الوجود كله، فيرقى العقل بهذا الى مرتبة مرشدٍ رباني يهيئ صاحبه للسعادة الخالدة.

ومثلاً: العين حاسة، تطل الروح منها على هذا العالم، فان لم تستعملها في سبيل الله، واستعملتها لأجل النفس والهوى، فانها بمشاهدتها بعض المناظر الجميلة المؤقتة الزائلة تصبح في درك الخادمة والسمسارة الدنيئة لإثارة شهوات النفس والهوى. ولكن إن بعتها الى خالقها البصير واستعملتها فيما يرضيه، عندئذٍ تكون العين مطالِعة لكتاب الكون الكبير هذا وقارئة له، ومشاهِدة لمعجزات الصنعة الربانية في الوجود، وكأنها نحلة بين ازاهير الرحمة الإلهية في بستان الارض، فتقطّر من شَهْد العبرة والمعرفة والمحبة نور الشهادة الى القلب المؤمن.

ومثلاً: ان لم تبع حاسة الذوق ـ التي في اللسان ـ الى فاطرها الحكيم، واستعملتها لأجل المعدة والنفس، فحينئذٍ تهوي الى درك بوّاب معمل المعدة واصطبلها، فتهبط قيمتها. ولكن ان بعتَها الى الرزاق الكريم، فانها ترقى الى درجة ناظر ماهر لخزائن الرحمة الإلهية، ومفتش شاكر لمطابخ القدرة الصمدانية.

فيا ايها العقل! أفق، اين الآلة المشؤومة من مفتاح كنوز الكائنات؟

ويا ايتها العين! ابصري جيداً، اين السمسرة الدنيئة من الامعان في المكتبة الإلهية؟

-ويا أيها اللسان! ذق بحلاوة اين بواب المعمل والاصطبل من ناظر خزينة الرحمة الإلهية؟.

فان شئت ـ يا اخي ـ فقس بقية الاعضاء والحواس على هذا، وعندها تفهم ان المؤمن يكسب حقاً خاصية تليق بالجنة، كما ان الكافر يكتسب ماهية توافق جهنم. فما جوزي كل منهما بهذا الجزاء العادل إلاّ لأن المؤمن يستعمل بايمانه أمانة خالقه سبحانه بأسمه وضمن دائرة مرضاته، وان الكافر يخون الأمانة فيستعملها لهواه ولنفسه الأمارة بالسوء.

الربح الرابع: ان الانسان ضعيف بينما مصائبه كثيرة، وهو فقير ولكن حاجته في ازدياد، وعاجز إلاّ أن تكاليف عيشه مرهقة، فإن لم يتوكل هذا الانسان على العلي القدير ولم يستند اليه، وان لم يسلّم الأمر اليه ولم يطمئن به، فسيظل يقاسي في وجدانه آلاماً دائمة، وتخنقه حسراته وكدحه العقيم، فإما يحوله الى مجرم قذر أو سكير عابث.

الربح الخامس: انه من المتفق عليه اجماعاً بين أهل الاختصاص والشهود والذوق والكشف أن العبادات والاذكار والتسبيحات التي تقوم بها الاعضاء عندما تعمل ضمن مرضاته سبحانه تتحول الى ثمار طيبة لذيذة من ثمار الجنة، وتقدّم اليك في وقت انت في أمس الحاجة اليها.

وهكذا.. ففي هذه التجارة ربح عظيم فيه خمس مراتب من الارباح، فان لم تقم بها فستحرم من ارباحها جميعها، فضلاً عن خسرانك خمس خسارات اخرى هي:

الخسارة الاولى: ان ما تحبه من مال وأولاد، وما تعشقه من هوى النفس وما تعجب به من حياة وشباب، سيضيع كله ويزول، مخلفاً آثامه وآلامه مثقل بها ظهرك.

الخسارة الثانية: ستنال عقاب من يخون الأمانة. لأنك باستعمالك اثمن الآلات والاعضاء في أخس الاعمال قد ظلمت نفسك.

الخسارة الثالثة: لقد افتريت وجنيت على الحكمة الإلهية، اذ اسقطت جميع تلك الاجهزة الانسانية الراقية الى دركات الأنعام بل أضل.

الخسارة الرابعة: ستدعو بالويل والثبور دائماً، وستئن من صدمة الفراق والزوال ووطأة تكاليف الحياة التي ارهقت بها كاهلك الضعيف مع أن فقرك قائم وعجزك دائم.

الخسارة الخامسة: ان هدايا الرحمن الجميلة ـ كالعقل والقلب والعين وما شابهها ـ ما وُهبت لك إلاّ لتهيئك لفتح ابواب السعادة الابدية، فما اعظمها خسارة أن تتحول تلك الهدايا الى صورة مؤلمة تفتح لك ابواب جهنم!.

والآن.. سننظر الى البيع نفسه. أهو ثقيل متعب حقاً بحيث يهرب منه الكثيرون؟.

ـ كلا، ثم كلا.. فلا تعب فيه ولا ثقل ابداً. لأن دائرة الحلال واسعة فسيحة، تكفي للراحة والسعادة والسرور. فلا داعي للولوج في الحرام.

أما ما افترضهَّ الله علينا فهو كذلك خفيف وضئيل، وان العبودية لله بحد ذاتها شرف عظيم اذ هي جندية في سبيله سبحانه وفيها من اللذة وراحة الوجدان ما لا يوصف.

أما الواجب فهو ان تكون ذلك الجندي، فتبدأ باسم الله، وتعمل باسم الله، وتأخذ وتعطي في سبيله ولأجله، وتتحرك وتسكن ضمن دائرة مرضاته وأوامره، وان كان هناك تقصير فدونك باب الاستغفار، فتضرع اليه وقل:

اللّهم اغفر لنا خطايانا، واقبلنا في عبادك، واجعلنا امناء على ما أمّنته عندنا الى يوم لقائك ... آمين.

نظرة إيمانية الى سِرّ الموت

سؤال : ان الآية الكريمة: { الذي خَلَقَ الموت والحياةَ ليبلوَكُم ايّكُم أحْسَنُ عَمَلاً} (الملك:٢) وامثالها في القران الحكيم، تعد الموت مخلوقاً كالحياة، وتعتبره نعمة إلهية. ولكن الملاحظ ان الموت انحلال وعدم وتفسخ، وانطفاء لنور الحياة، وهادم اللذات... فكيف يكون ((مخلوقاً)) وكيف يكون ((نعمة))؟

الجواب: لقد ذكرنا في ختام الجواب عن السؤال الأول: ان الموت في حقيقته تسريح وانهاء لوظيفة الحياة الدنيا، وهو تبديل مكان وتحويل وجود، وهو دعوة الى الحياة الباقية الخالدة ومقدمة لها؛ اذ كما ان مجئ الحياة الى الدنيا هو بخلق وبتقدير إلهي، كذلك ذهابها من الدنيا هو ايضاً بخلق وتقدير وحكمة وتدبيرإلهي؛ لأن موت ابسط الأحياء – وهو النبات – يُظهر لنا نظاماً دقيقاً وابداعاً للخلق ما هو اعظم من الحياة نفسها وانظم منها، فموت الأثمار والبذور والحبوب الذي يبدو ظاهراً تفسخاً وتحللاً هو في الحقيقة عبارة عن عجن لتفاعلات كيمياوية متسلسلة في غاية الانتظام، وامتزاج لمقادير العناصر في غاية الدقة والميزان، وتركيب وتشكّل للذرات بعضها ببعض في غاية الحكمة والبصيرة، بحيث ان هذا الموت الذي لا يرى، وفيه هذا النظام الحكيم والدقة الرائعة، هو الذي يظهر بشكل حياة نامية للسنبل وللنبات الباسق المثمر. وهذا يعني ان موت البذرة هو مبدأ حياة النبات الجديدة، أزهاراً وأثماراً.. بل هو بمثابة عين حياته الجديدة؛فهذا الموت اذن مخلوق منتظم كالحياة..

وكذلك فان ما يحدث في معدة الانسان من موت لثمرات حية، أو غذاء حيواني، هو في حقيقته بداية ومنشأ لصعود ذلك الغذاء في اجزاء الحياة الانسانية الراقية. فذلك الموت اذن مخلوق اكثر انتظاماً من حياة تلك الاغذية.

فلئن كان موت النبات – وهو في ادنى طبقات الحياة – مخلوقاً منتظماً بحكمة، فكيف بالموت الذي يصيب الانسان وهو في ارقى طبقات الحياة؟ فلا شك ان موته هذا سيثمر حياة دائمة في عالم البرزخ، تماماً كالبذرة الموضوعة تحت التراب والتي تصبح بموتها نباتاً رائع الجمال والحكمة في (عالم الهواء).

اما كيف يكون الموت نعمة؟..

فالجواب:

سنذكر اربعة وجوه فقط من اوجه النعمة والامتنان الكثيرة للموت.

اولها: الموت انقاذ للانسان من اعباء وظائف الحياة الدنيا ومن تكاليف المعيشة المثقلة. وهوباب وصال في الوقت نفسه مع تسعة وتسعين من الاحبة الاعزاء في عالم البرزخ، فهو اذن نعمة عظمى!

ثانيها: انه خروج من قضبان سجن الدنيا المظلم الضيق المضطرب، ودخول في رعاية المحبوب الباقي وفي كنف رحمته الواسعة، وهو تنعم بحياة فسيحة خالدة مستنيرة لا يزعجها خوف، ولا يكدرها حزن ولا همّ.

ثالثها: ان الشيخوخة وامثالها من الاسباب الداعية لجعل الحياة صعبة ومرهقة، تبيّن مدى كون الموت نعمة تفوق نعمة الحياة. فلو تصورت ان اجدادك مع ما هم عليه من احوال مؤلمة قابعون امامك حالياً مع والديك اللذين بلغا ارذل العمر، لفهمت مدى كون الحياة نقمة، والموت نعمة. بل يمكن ادراك مدى الرحمة في الموت ومدى الصعوبة في ادامة الحياة ايضاً بالتأمل في تلك الحشرات الجميلة العاشقة للازاهير اللطيفة، عند اشتداد وطأة البرد القارس في الشتاء عليها.

رابعها: كما ان النوم راحة للانسان ورحمة، ولا سيما للمبتلين والمرضى والجرحى، كذلك الموت – الذي هو اخو النوم – رحمة ونعمة عظمى للمبتلين ببلايا يائسة قد تدفعهم الى الانتحار.

اما اهل الضلال، فالموت لهم كالحياة نقمة عظمى وعذاب في عذاب، كما اثبتنا ذلك في ((كلمات)) متعددة اثباتاً قاطعاً وذلك خارج بحثنا هذا.(**المكتوبات، المكتوب الاول، السؤال الثاني**).

ولكن هل يرى اهل الضلالة ما نراه بنور القرآن العظيم ؟ ..

انه تعالى يبيّن للانسان المؤمن - بنور الايمان - ان الموت ليس اعداماً بل تبديل مكان، وان القبر ليس فوهة بئر عميق بل باب لعوالم نورانية، وان الدنيا مع جميع مباهجها في حكم سجن ضيق بالنسبة لسعة الآخرة وجمالها. فلا شك ان الخروج من سجن الدنيا والنجاة من ضيقها الى بستان الجنان الاخروية، والانتقال من منغصات الحياة المادية المزعجة الى عالم الراحة والطمأنينة وطيران الارواح، والانسلاخ من ضجيج المخلوقات وصخبها الى الحضرة الربانية الهادئة المطمئنة الراضية، سياحة بل سعادة مطلوبة بألف فداء وفداء.(**الكلمات، الكلمة السابعة عشرة، الوجه الرابع**).

رحيل الشباب

حينما خالط بعض شعرات رأسي البياض الذي هو علامة الشيخوخة، وكانت اهوال الحرب العالمية الاولى وما خلفه الاسر لدى الروس من آثار عميقة في حياتي عمّقت فيّ نوم غفلة الشباب. وتلا ذلك استقبال رائع عند عودتي من الاسر الى استانبول، سواء من قبل الخليفة او شيخ الإسلام، او القائد العام، او من قبل طلبة العلوم الشرعية، وما قوبلت به من تكريم وحفاوة اكثر مما استحق بكثير.. كل ذلك ولّد عندي حالة روحية فضلاً عن سكرة الشباب وغفلته، وعمّقتْ فيّ ذلك النوم اكثر، حتى تصورت معها ان الدنيا دائمة باقية، ورأيت نفسي في حالة عجيبة من الالتصاق بالدنيا كأنني لا أموت.

ففي هذا الوقت، ذهبت الى جامع بايزيد في استانبول، وذلك في شهر رمضان المبارك لأستمع للقرآن الكريم من الحفاظ المخلصين، فاستمعت من لسان اولئك الحفاظ ما اعلنه القرآن المعجز بقوة وشدة، خطابه السماوي الرفيع في موت الانسان وزواله، ووفاة ذوي الحياة وموتهم، وذلك بنص الآية الكريمة:

{ كُلُّ نَفس ذائِقةُ المَوْت } (آل عمران:١٨٥).

نفذ هذا الاعلان الداوي صماخ أذني مخترقاً وممزقاً طبقات النوم والغفلة والسكرة الكثيفة الغليظة حتى استقر في اعماق اعماق قلبي.

خرجت من الجامع، رايت نفسي لبضعة ايام، كأن اعصاراً هائلاً يضطرم في رأسي بما بقي من آثار ذلك النوم المستقر فيّ منذ امد طويل، ورأيتني كالسفينة التائهة بين أمواج البحر المضطربة البوصلة. كانت نفسي تتأجج بنار ذات دخان كثيف.. وكلما كنت انظر الى المرآة، كانت تلك الشعرات البيضاء تخاطبني قائلة: انتبه!!!.

نعم ان الامور توضحت عندي بظهور تلك الشعرات البيضاء وتذكيرها إياي، حيث شاهدت ان الشباب الذي كنت أغتر به كثيراً، بل كنت مفتوناً باذواقه يقول لي: الوداع! وان الحياة الدنيا التي كنت ارتبط بحبها بدأت بالانطفاء رويداً رويداً، وبدت لي الدنيا التي كنت اتشبث بها، بل كنت مشتاقاً اليها وعاشقاً لها، رأيتها تقول لي: الوداع!! الوداع!! مشعرة اياي، بانني سأرحل من دار الضيافة هذه، وسأغادرها عما قريب. ورأيتها – أي الدنيا – هي الاخرى تقول: الوداع، وتتهيأ للرحيل. وانفتح الى القلب من كلية هذه الآية الكريمة { كُلُّ نَفس ذائِقةُ الموْت } (آل عمران:١٨٥) ومن شموليتها، ذلك المعنى الذي يتضمنها وهو:

ان البشرية قاطبة انما هي كالنفس الواحدة، فلابد انها ستموت كي تبعث من جديد، وان الكرة الارضية كذلك نفسٌ فلابد انها سوف تموت ويصيبها البوار كي تتخذ هيأة البقاء وصورة الخلود، وان الدنيا هي الاخرى نفسٌ وسوف تموت وتنقضي كي تتشكل بصورة (آخرة).

فكرت فيما أنا فيه؛ فرأيت:

أن الشباب الذي هو مدار الاذواق واللذائذ، ذاهب نحو الزوال، تارك مكانه للشيخوخة التي هي منشأ الاحزان. وان الحياة الساطعة الباهرة لفي ارتحال، ويتهيأ الموت المظلم المخيف – ظاهراً – ليحل محلها.

ورأيت الدنيا التي هي محبوبة وحلوة ومعشوقة الغفاة وتُظن انها دائمة، رأيتها تجري مسرعة الى الفناء. ولكي انغمس في الغفلة واخادع نفسي ولّيت نظري شطر اذواق المنزلة الاجتماعية ومقامها الرفي الذي حظيت به في استانبول والذي خُدعت به نفسي وهو فوق حدى وطوقي من حفاوة واكرام وسلوان واقبال واعجاب.. فرأيت أن جميعها لا تصاحبني الاّ الى حد باب القبر القريب مني، وعنده تنطفىء.

ورأيت أن رياءً ثقيلاً، وأثرة باردة وغفلة مؤقتة، تكمن تحت الستار المزركش للسمعة والصيت، التي هي المثل الاعلى لارباب الشهرة وعشاقها، ففهمت ان هذه الامور التي خدعتني حتى الآن لن تمنحني أي سلوان، ولا يمكن ان اتلمس فيها أي قبس من نور.

ولكي استيقظ من غفلتي مرة اخرى وانتبه منها نهائياً، بدأت بالاستماع كذلك لأولئك الحفاظ الكرام في ((جامع بايزيد)) لأتلقى الدرس السماوي للقرآن الكريم.. وعندها سمعت بشارات ذلك الارشاد السماوي من خلال الاوامر الربانية المقدسة في قوله تعالى:

{ وبَشِّر الذين آمنوا ... } (البقرة:٢٥).

وبالفيض الذي اخذته من القرآن الكريم تحريت عن السلوة والرجاء والنور في تلك الامور التي ادهشتني وحيّرتني في يأس ووحشة، دون البحث عنها في غيرها من الامور. فألف شكر وشكر للخالق الكريم على ما وفقني لان أجد الدواء في الداء نفسه، وأن أرى النور في الظلمة نفسها، وان اشعر بالسلوان في الالم والرعب ذاتهما.

فنظرت اول ما نظرت الى ذلك الوجه الذي يُرعب الجميع ويُتوهم أنه مخيف جداً.. وهو وجه ((الموت)) فوجدت بنور القرآن الكريم، ان الوجه الحقيقي للموت بالنسبة للمؤمن صبوح منور، على الرغم من ان حجابة مظلم والستر الذي يخفيه يكتنفه السواد القبيح المرعب. وقد اثبتنا واوضحنا هذه الحقيقة بصورة قاطعة في كثير من الرسائل وبخاصة في ((الكلمة الثامنة)) و ((المكتوب العشرين)) من ان الموت: ليس اعداماً نهائياً، ولا هو فراقاً ابدياً، وانما مقدمة وتمهيد للحياة الابدية وبداية لها. وهو إنهاء لأعباء مهمة الحياة ووظائفها ورخصة منها وراحة واعفاء، وهو تبديل مكان بمكان، وهو وصال ولقاء مع قافلة الاحباب الذين

ارتحلوا الى عالم البرزخ.. وهكذا، بمثل هذه الحقائق شاهدت وجه الموت المليح الصبوح. فلا غرو لم انظر اليه خائفاً وجلاً، وانما نظرت اليه بشيء من الاشتياق – من جهة – وعرفت في حينها سراً من اسرار ((رابطة الموت)) التي يزاولها اهل الطرق الصوفية.

ثم تأملت في ((عهد الشباب)) فرأيت أنه يُحزن الجميع بزواله، ويجعل الكل يشتاقون اليه وينبهرون به، وهو الذي يمر بالغفلة والآثام، وقد مرّ شبابي هكذا! فرأيت أن ثمة وجهاً دميماً جداً بل مسكراً ومحيراً تحت الحلة القشيبة الفضفاضة الملقاة عليه، فلو لم اكن مدركاً كنهه لكان يبكيني ويحزنني طوال حياتي الدنيا، حتى لو عمرت مائة سنة حيال بضع سنين تمضي بشنوة وابتسامة، كما قال الشاعر الباكي على شبابه بحسرة مريرة:

ألا ليت الشبابَ يعود يوماً فأُخبره بما فعلَ المشيبُ

نعم ان الذين لم يتبينوا سر الشباب وماهيته من الشيوخ يقضون شيخوختهم بالحسرة والنحيب على عهد شبابهم كهذا الشاعر. والحال ان فتوة الشباب ونضارته اذا ما حلت في المؤمن المطمئن الحصيف ذي القلب الساكن الوقور، واذا ما صُرفت طاقة الشباب وقوته الى العبادة والاعمال الصالحة والتجارة الاخروية، فانها تصبح اعظم قوة للخير وتغدو افضل وسيلة للتجارة، واجمل وساطة للحسنات بل ألذها.

نعم، ان عهد الشباب نفيس حقاً وثمين جداً، وهو نعمة إلهية عظمى، ونشوة لذيذة لمن عرف واجبه الإسلامي ولمن لم يسيء استعماله. ولكن الشباب ان لم تصحبه الاستقامة، ولم ترافقه العفة والتقوى، فدونه المهالك الوبيلة، اذ يصدّع طيشه ونزواته سعادة صاحبه الابدية، وحياته الاخروية، وربما يحطم حياته الدنيا

ايضاً. فيجرعه الآلام غصصاً طوال فترة الهرم والشيخوخة لما أخذه في بضع سنين من اذواق ولذائذ.

ولما كان عهد الشباب لا يخلو من الضرر عند اغلب الناس، فعلينا اذن نحن الشيوخ ان نشكر الله شكراً كثيراً على ما نجّانا من مهالك الشباب واضراره. هذا وان لذات الشباب زائلة لا محالة، كما تزول جميع الاشياء. فلئن صُرف عهد الشباب للعبادة، وبذل للخير والصلاح لكان دونه ثماره الباقية الدائمة، وعنده وسيلة الفوز بشباب دائم وخالد في حياة ابدية.

ثم نظرت الى ((الدنيا)) التي عشقها اكثر الناس، وابتلوا بها. فرأيت بنور القرآن الكريم ان هناك ثلاث دنىً كلية قد تداخل بعضها في البعض الآخر:

الاولى: هي الدنيا المتوجهة الى الاسماء الإلهية الحسنى، فهي مرآة لها.

الثانية: هي الدنيا المتوجهة نحو الآخرة، فهي مزرعتها.

الثالثة: هي الدنيا المتوجهة الى ارباب الدنيا واهل الضلالة، فهي لعبة اهل الغفلة ولهوهم.

ورأيت كذلك ان لكل احد في هذه الدنيا دنيا عظيمة خاصة به، فهناك اذن دنىً متداخلة بعدد البشر. غير ان دنيا كل شخص قائمة على حياته الشخصية، فمتى ما ينهار جسم شخص فإن دنياه تتهدم وقيامته تقوم. وحيث ان الغافلين لايدركون انهدام دنياهم الخاصة بهذه السرعة الخاطفة؛ فهم يفتنون بها، ويظنونها كالدنيا العامة المستقرة من حولهم.

فتأملت قائلاً: لاشك أن لي ايضاً دنيا خاصة –كدنيا غيري – تتهدم بسرعة – فما فائدة هذه الدنيا الخاصة اذن في عمري القصير جداً؟!.. فرأيت بنور القرآن الكريم ان هذه الدنيا – بالنسبة لي ولغيري – ما هي الاّ متجر مؤقت، ودار ضيافة تملأ كل يوم وتخلى، وهي سوق مقامة على الطريق لتجارة الغادين

والرائحين، وهي كتاب مفتوح يتجدد للبارىء المصور، فيمحو فيه ما يشاء ويثبته بحكمة. وكل ربيع فيها رسالة مرصعة مذهّبة، وكل صيف فيها قصيدة منظومة رائعة، وهي مرايا تتجدد مظهرة تجليات الاسماء الحسنى للصانع الجليل، وهي مزرعة لغراس الآخرة وحديقتها، وهي مزهرة الرحمة الإلهية، وهي مصنع موقت لتجهيز اللوحات الربانية الخالدة التي ستظهر في عالم البقاء والخلود. فشكرتُ الله الخالق الكريم اجزل شكر على خلقه الدنيا بهذه الصورة. بيد ان الانسان الذي مُنح حباً مقبلاً الى وجهي الدنيا الحقيقيين المليحين المتوجهين الى الاسماء الحسنى والى الآخرة، اخطأ المرمى وجانب الصواب عندما استعمل تلك المحبة في غير محلها، فصرفها الى الوجه الفاني القبيح ذي الغفلة والضرر حتى حق عليه الحديث الشريف (حب الدنيا رأس كل خطيئة)(أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان).

فيا ايها الشيوخ ويا ايها العجائز!.

اني رأيت هذه الحقيقة بنور القرآن الحكيم، وبتذكير من شيخوختي، وبما منحه الإيمان لبصيرتي من نور، وقد اثبتُّها في رسائل كثيرة مع براهين دامغة.. رايت أن هذه الحقيقة هي السلوان الحقيقي لي، وهي الرجاء القوي والضياء الساطع.. فرضيت بشيخوختي وهرمي وسررت من رحيل الشباب.

فلا تحزنوا اذن، ولا تبكوا يا اخوتي الشيوخ على شيخوختكم بل احمدوا الله واشكروه. وما دمتم تملكون الإيمان، والحقيقة تنطق هكذا، فليبك اولئك الغافلون، وليحزن الضالون ولينتحبوا..(**اللمعات،اللمعة/٢٦، الرجاء/٨**).

لولا الشيوخ الركع

بسم الله الرحمن الرحيم

{ وقضى ربُّك الاّ تعبدُوا الاّ ايّاهُ وبالوالِدَين إحساناً إمّا يَبْلُغَنّ عِنْدَكَ الكِبَرَ اَحَدُهما أو كلاهما فلا تَقُلْ لَهُما اُفٍّ ولا تَنْهَرهُما وَقُل لهما قولاً كريماً ` واخفض لهما جناح الذلِّ من الرحمة، وقل ربِّ ارحمهما كما ربَّياني صغيراً ` ربُّكُم أعلمُ بما في نفوسِكُمْ ان تكونوا صالحين فانه كان للأوابين غفوراً} (الاسراء:٢٣.٢٥)

ايها الغافل، ويا من يسكن في بيته أب شيخ، او أم عجوز، او احد من ذوى قرباه، او اخ في الدين مقعد، او شخص عاجز عليل.. انظر الى هذه الاية الكريمة بدقة وامعان، انظر كيف ان آية واحدة تجلب للوالدين العجوزين خمسة انواع من الرحمة بصور مختلفة واشكال متعددة؟ نعم، ان اسمى حقيقة في الدنيا هي شفقة الامهات والآباء حيال اولادهم، وان أعلى الحقوق كذلك هو حق احترامهم مقابل تلك الشفقة والرأفة؛ ذلك لأنهم يضحّون بحياتهم فدىً لحياة اولادهم بكل لذة وسعادة. ولذلك فان كل ولد . ان لم تسقط انسانيته ولم ينقلب بعد الى وحش . لا بد ان يوقّر باخلاص اولئك الاحبة المحترمين، المضحين الصادقين ويقوم بخدمتهم خدمة صادقة، ويسعى لنيل رضاهم وادخال البهجة في قلوبهم. ان العم والعمة هما في حكم الاب، وان الخالة والخال في حكم الام. فاعلم ما اشد انعداماً للضمير استثقال وجود هؤلاء الشيوخ الميامين واسترغاب موتهم! بل ما أشده من دناءة ووضاعة بالمرّة. اعلم هذا.. واصحَ!

أجل افهم، ما اقذره من ظلم وما افظعه من انعدام للضمير ان يتمنى متمنٍ زوال الذي ضحى بحياته كلها في سبيل حياته هو!

ايها الانسان المبتلى بهموم العيش! اعلم ان عمود بركة بيتك ووسيلة الرحمة فيه، ودفع المصيبة عنه، انما هو ذلك الشيخ، او ذلك الاعمى من اقربائك الذي تستثقله. لا تقل ابداً: ان معيشتي ضنك، لا استطيع المداراة فيها!.. ذلك لانه لو لم تكن البركة المقبلة من وجوه اولئك، لكان ضنك معيشتك اكثر قطعاً. فخذ مني هذه الحقيقة، وصدّقها، فانني اعرف لها كثيراً من الادلة القاطعة، واستطيع ان احملك على التصديق بها كذلك. ولكن، لئلا يطول الامر فانني اوجزها. كن واثقاً جداً من كلامي هذا. أقسم بالله ان هذه الحقيقة هي في منتهى القطعية، حتى ان نفسي وشيطاني ايضاً قد استسلما امامها. فلا غرو ان الحقيقة التي اغاظت شيطاني واسكتته وحطمت عناد نفسي الامارة بالسوء لا بد انها تستطيع ان تقنعك ايضاً.

أجل؛ ان الخالق ذا الجلال والاكرام الذي هو الرحمن الرحيم وهو اللطيف الكريم ـ بشهادة ما في الكون اجمع ـ حينما يرسل الاطفال الى الدنيا فانه يرسل ارزاقهم عقبهم مباشرة في منتهى اللطف؛ كانقذاف ما في الاثداء وتفجيره كالينابيع الى افواههم، كذلك فان ارزاق العجزة ـ الذين دخلوا في عداد الاطفال بل هم احق بالمرحمة واحوج الى الرأفة ـ يرسلها لهم سبحانه وتعالى بصورة بَرَكَة، ولا يحمّل الاشحاء من الناس اعاشة هؤلاء ولا يدعها لهم. فالحقيقة التي تفيدها الايات الكريمة: { انّ الله هو الرزّاق ذو القوةِ المتين} (الذاريات :٥٨). { وكأيّن من دابّةٍ لا تحمِلُ رِزقَها الله يرزُقها واياكم وهو السميع العليم} .(العنكبوت:٦٠) حقيقة ذات كرم ينطق بها وينادى بلسان حال جميع المخلوقات المتنوعة من الاحياء. وليس الشيوخ الاقرباء وحدهم يأتيهم رزقهم رغداً بصورة بركة بل رزق حتى بعض المخلوقات التي وهبت لمصاحبة الانسان وصداقته كأمثال القطط. فان ارزاقها ترسل ضمن رزق الانسان، وتأتي بصورة بركة ايضاً. ومما يؤيد هذا، ما

شاهدته بنفسي من مثال، هو:كانت لي حصة من الغذاء كل يوم . كما يعلم احبائي القريبون . قبل سنتين او ثلاث وهي نصف رغيف، وكان رغيف تلك القرية صغيراً، وكثيراً ما كان لا يكفيني.. ثم جاءني أربع قطط ضيوفاً، وقد كفاني ذلك الغذاء وكفاهم. بل غالباً كانت تبقى منه فضلة وزيادة.

هذه الحالة قد تكررت عندي بحيث اعطتني قناعة تامة من أنني انا الذي كنت استفيد من بركات تلك القطط! وأنا اعلن اعلاناً قاطعاً الان ان تلك القطط ما كانت حملاً ولا عبئاً عليّ ولم تكن تبقى تحت منتي، وانما انا الذي كنت ابقى تحت منّتها.

ايها الانسان! ان حيواناً شبه مفترس يأتي ضيفاً الى بيت يكون محوراً للبركة، فكيف اذا حلّ في البيت من هو اكرم المخلوقات وهو الانسان؟ ومن هو اكملهم من بين الناس وهو المؤمن؟ ومن هو من العجزة والمعلولين المعمرين من بين اهل الايمان؟ ومن هو اكثر أهلاً للخدمة والمحبة من بين المعلولين والمعمّرين وأولى من يستحقونها وهم الاقربون؟ ومن هم اخلص صديق واصدق محب من بين هؤلاء الاقربين وهم الوالدان؟! كيف بهم اذا حلوا في البيت. فلك ان تقيس، ما اعظمها من وسيلة للبركة، ومن وساطة لجلب الرحمة ومن سبب لدفع المصيبة، كما يتضمنه معنى الحديث الشريف: (لولا الشيوخ الركع لصبّ عليكم البلاء صباً) (البيهقي (٦١٨٤)، والطبراني في الاوسط(٦٥٣٩)).

اذن ايها الانسان: تأمل .. واعتبر واعلم انك ان لم تمت فلا مناص من ان تصير شيخاً عجوزاً، فان لم تحترم والديك، فسيأتي عليك يوم لا يوقرك اولادك ولن يحترموك، وذلك بما اودع الله من سر في:(الجزاء من جنس العمل). لذا.. ان كنت محباً لآخرتك فدونك كنزٌ عظيم الا وهو: اخدمهما ونل رضاهما. وان كنت

تحب الدنيا فارضهما كذلك واشكر لهما. حتى تمضي حياتك براحة، وحتى يأتي رزقك ببركة من ورائهم.

والاّ .. فان استثقال هؤلاء وتمني موتهم وتجريح قلوبهم الرقيقة الحساسة يجعلك ممن تنطبق عليه حقيقة الاية الكريمة: { خسر الدنيا والاخرة} .

واذا كنت تريد رحمة الرحمن الرحيم فارحم ودائع ذلك الرحمن، وما استودعك في بيتك من أمانات.

كان لي اخ من اخوان الاخرة وهو (مصطفى جاووش) وكنت أراه موفقاً في دينه ودنياه معاً. ولم اكن اعرف السر. ثم علمت سبب ذلك التوفيق وهو: ان هذا الرجل الصالح كان قد علم حقوق امه وابيه، وانه راعى تلك الحقوق حق رعايتها. فكان ان وجد الراحة والرحمة ببركة وجوههم. وارجو ان يكون قد عمّر آخرته كذلك ان شاء الله. فمن اراد ان يكون سعيداً فليقتد به، وليكن مثله.

اللهم صل وسلم على مَن قال:(الجنةُ تحتَ اقدام الامهات) (أخرجه الخطيب فى الجامع لأخلاق الراوى (١٧٠٢) والقضاعى (١١٩) والديلمى (٢٦١١))

(**المكتوبات، المكتوب/٢١**).

لغة العلوم

هذه المسألة اشارة مختصرة الى برهان واحد فقط من بين ألوف البراهين الكلية حول (الايمان بالله) والذي تم ايضاحه مع حججه القاطعة في عدة مواضع من رسائل النور.

جاءني فريق من طلاب الثانوية في "قسطموني" قائلين:

"عرّفنا بخالقنا، فإن مدرسينا لايذكرون الله لنا !".

فقلت لهم:

ان كل علم من العلوم التي تقرأونها يبحث عن الله دوما، ويعرّف بالخالق الكريم بلغته الخاصة. فاصغوا الى تلك العلوم دون المدرسين..

فمثلا: لو كانت هناك صيدلية ضخمة، في كل قنينة من قنانيها ادوية ومستحضرات حيوية، وضِعت فيها بموازين حساسة، وبمقادير دقيقة؛ فكما أنها ترينا ان وراءها صيدلياً حكيماً وكيميائياً ماهراً، كذلك صيدلية الكرة الارضية التي تضم اكثر من أربعمائة ألف نوع من الاحياء - نباتا وحيوانا - وكل واحد منها في الحقيقة بمثابة زجاجة مستحضرات كيمياوية دقيقة، وقنينة مخاليط حيوية عجيبة فهذه الصيدلية الكبرى تُري حتى للعميان صيدليّها الحكيم ذا الجلال، وتعرّف خالقها الكريم سبحانه بدرجة كمالها، وانتظامها، وعظمتها، قياسا على تلك الصيدلية التي في السوق، على وفق مقاييس علم الطب الذي تقرأونه.

ومثلاً: كما لو أن مصنعا خارقا عجيبا ينسج ألوفا من انواع المنسوجات المتنوعة، والاقمشة المختلفة، من مادة بسيطة جداً، يرينا بلا شك ان وراءه مهندسا ميكانيكيا ماهراً، ويعرّفه لنا؛ كذلك هذه الماكنة الربانية السيارة المسماة بالكرة الارضية، وهذا المصنع الإلهي الذي فيه مئات الآلاف من مصانع رئيسية،

وفي كل منها مئات الآلاف من المصانع المتقنة، يعرّف لنا - بلاشك - صانعه، ومالكه، وفق مقاييس علم المكائن الذي تقرأونه، يعرّفه بدرجة كمال هذا المصنع الإلهي وعظمته قياساً على ذلك المصنع الانساني.

ومثلاً: كما ان حانوتا او مخزنا للاعاشة والارزاق، ومحلا عظيما للأغذية والمواد، احضر فيه - من كل جانب - ألف نوع ونوع من المواد الغذائية، وميز كل نوع عن الآخر، وصفف في محله الخاص به، يرينا ان له مالكا، ومدبراً؛ كذلك هذا المخزن الرحماني للاعاشة الذي يسيح في كل سنة مسافة اربعة وعشرين ألف سنة، في نظام دقيق متقن، والذي يضم في ثناياه مئات الآلاف من اصناف المخلوقات التي يحتاج كل منها الى نوع خاص من الغذاء. والذي يمر على الفصول الاربعة فيأتي بالربيع كشاحنة محمولة بآلاف الانواع من مختلف الاطعمة، يأتي بها الى الخلق المساكين الذين نفد قوتهم في الشتاء. تلك هي الكرة الارضية، السفينة السبحانية التي تضم آلاف الانواع من البضائع والاجهزة ومعلبات الغذاء. فهذا المخزن والحانوت الرباني، يُري - على وفق مقاييس علم الاعاشة والتجارة الذي تقرأونه - صاحبه ومالكه ومتصرفه بدرجة عظمة هذا المخزن قياسا على ذلك المخزن المصنوع من قبل الانسان، ويعرّفه لنا، ويحببه الينا.

ومثلاً: لو ان جيشا عظيما يضم تحت لوائه أربعمائة ألف نوع من الشعوب والامم، لكل جنس طعامه المستقل عن الآخر، وما يستعمله من سلاح يغاير سلاح الآخر، وما يرتديه من ملابس تختلف عن ألبسة الآخر، ونمط تدريبه وتعليماته يباين الآخر، ومدة عمله وفترة رخصه هي غير المدة للآخر.. فقائد هذا الجيش الذي يزودهم بالارزاق المختلفة، والاسلحة المتباينة، والالبسة المتغايرة، دون نسيان اي منها ولا التباس، ولاحيرة، لهو قائد ذو خوارق بلا ريب. فكما ان هذا المعسكر العجيب يرينا - بداهة - ذلك القائد الخارق، بل يحببه الينا بكل تقدير

واعجاب؛ كذلك معسكر الارض، ففي كل ربيع يجند - مجددا - جيشا سبحانيا عظيما مكونا من اربعمائة ألف نوع من شعوب النباتات وامم الحيوانات، ويمنح لكل نوع ألبسته وارزاقه واسلحته وتدريبه ورخصه الخاصة به، من لدن قائد عظيم واحد أحد جل وعلا، دون نسيان لأحد، ولا اختلاط، ولاتحير، وفي منتهى الكمال وغاية الانتظام.. فهذا المعسكر الشاسع الواسع للربيع الممتد على سطح الارض يُري - لأولي الالباب والبصائر - حاكم الارض - حسب العلوم العسكرية - وربّها ومدبرها، وقائدها الاقدس الاجل، ويعرّف لهم، بدرجة كمال هذا المعسكر المهيب، ومدى عظمته، قياسا الى ذلك المعسكر المذكور، بل يحبب مليكه - سبحانه - بالتحميد والتقديس والتسبيح.

ومثلا: هب ان ملايين المصابيح الكهربائية تتجول في مدينة عجيبة دون نفاد للوقود ولا انطفاء؛ الا تُري باعجاب وتقدير أن هناك مهندساً حاذقاً، وكهربائيا بارعاً لمصنع الكهرباء، ولتلك المصابيح؟ فمصابيح النجوم المتدلية من سقف قصر الارض وهي اكبر من الكرة الارضية نفسها بألوف المرات - حسب علم الفلك - وتسير اسرع من انطلاق القذيفة من دون ان تخل بنظامها، او تتصادم مع بعضها مطلقا ومن دون انطفاء، ولا نفاد وقود على وفق ما تقرأونه في علم الفلك. هذه المصابيح تشير باصابع من نور الى قدرة خالقها غير المحدودة، فشمسنا مثلا؛ وهي اكبر بمليون مرة من كرتنا الارضية، وأقدم منها بمليون سنة ماهي الاّ مصباح دائم، وموقد مستمر لدار ضيافة الرحمن. فلأجل ادامة اتقادها واشتعالها وتسجيرها كل يوم يلزم وقوداً بقدر بحار الارض، وفحماً بقدر جبالها، وحطباً بقدر اضعاف اضعاف حجم الارض، ولكن الذي يشعلها - ويشعل جميع النجوم الاخرى امثالها - دون وقود ولافحم ولا زيت ودون انطفاء ويسيّرها بسرعة عظيمة معاً دون اصطدام، انما هي قدرة لا نهاية لها وسلطنة عظيمة

لاحدود لها.. فهذا الكون العظيم وما فيه من مصابيح مضيئة، وقناديل متدلية يبين بوضوح - على وفق مقاييس علم الكهرباء الذي قرأتموه أو ستقرأونه - سلطان هذا المعرض العظيم والمهرجان الكبير، ويعرّف منوّره ومدبرّه البديع وصانعه الجليل، بشهادة هذه النجوم المتلألئة، ويحببه الى الجميع بالتحميد والتسبيح والتقديس بل يسوقهم الى عبادته سبحانه.

ومثلاً: لو كان هناك كتاب، كتب في كل سطر منه كتاب بخط دقيق، وكُتب في كل كلمة من كلماته سورة قرآنية، وكانت جميع مسائله ذات مغزى ومعنى عميق، وكلها يؤيد بعضها البعض، فهذا الكتاب العجيب يبين بلا شك مهارة كاتبه الفائقة، وقدرة مؤلفه الكاملة. اي أن مثل هذا الكتاب يعرّف كاتبه ومصنّفه تعريفا يضاهي وضوح النهار، ويبين كماله وقدرتَه، ويثير من الاعجاب والتقدير لدى الناظرين اليه ما

لا يملكون معه الا ترديد: تبارك الله سبحان الله ما شاء الله! من كلمات الاستحسان والاعجاب؛ كذلك هذا الكتاب الكبير للكون الذي يُكتب في صحيفة واحدة منه - وهي سطح الارض - ويُكتب في ملزمة واحدة منه - وهي الربيع - ثلثمائة ألف نوع من الكتب المختلفة وهي طوائف الحيوانات واجناس النباتات كل منها بمثابة كتاب.. يُكتب كل ذلك معا ومتداخلة بعضها ببعض دون اختلاط، ولاخطأ، ولانسيان، وفي منتهى الانتظام والكمال بل يُكتب في كل كلمة منه - كالشجرة - قصيدة كاملة رائعة، وفي كل نقطة منه - كالبذرة - فهرس كتاب كامل. وان هذا مشاهد وماثل أمامنا، ويُرينا بالتأكيد وراءه قلماً سيالاً يسطر. فلكم ان تقدروا مدى دلالة كتاب الكون الكبير العظيم الذي في كل كلمة منه معان جمة وحكم شتى، ومدى دلالة هذا القرآن الاكبر المجسم - وهو العالم - الى بارئه سبحانه والى كاتبه جل وعلا، قياسا الى ذلك الكتاب

المذكور في المثال. وذلك بمقتضى ما تقرأونه من علم حكمة الاشياء او فن القراءة والكتابة، وتناولوه بمقياس اكبر، وبالنظرة الواسعة الى هذا الكون الكبير وبذلك تفهمون كيف يعرّف الخالق العظيم بـ"الله اكبر" وكيف يعلّم التقديس بـ"سبحان الله" وكيف يحبّب الله سبحانه الينا بثناء "الحمد لله".

وهكذا فان كل علم من العلوم العديدة جداً، يدل على خالق الكون ذي الجلال – قياسا على ما سبق – ويعرّفه لنا سبحانه باسمائه الحسنى، ويعلّمه ايانا بصفاته الجليلة وكمالاته. وذلك بما يملك من مقاييس واسعة، ومرايا خاصة، وعيون حادة باصرة، ونظرات ذات عبرة.

فقلت لاولئك الطلبة الشباب: ان حكمة تكرار القرآن الكريم من: (خلقَ السمواتِ والارض) و (ربّ السموات والارض) انما هي لأجل الارشاد الى هذه الحقيقة المذكورة، وتلقين هذا البرهان الباهر للتوحيد، ولأجل تعريفنا بخالقنا العظيم سبحانه. فقالوا: شكراً لربنا الخالق بغير حد، على هذا الدرس الذي هو الحقيقة السامية عينها، فجزاك الله عنا خير جزاء ورضي عنك.

قلت: ان الانسان ماكنة حيوية، يتألم بآلاف الانواع من الآلام، ويتلذذ بآلاف الانواع من اللذائذ، ومع أنه في منتهى العجز، فان له من الاعداء ما لا يحد سواء الماديين او المعنويين، ومع أنه في غاية الفقر فان له رغبات باطنة وظاهرة لاتحصر، فهو مخلوق مسكين يتجرّع آلام صفعات الزوال والفراق باستمرار.. فرغم كل هذا، فانه يجد بانتسابه الى السلطان ذي الجلال – بالايمان والعبودية – مستنداً قوياً، ومرتكزاً عظيماً يحتمي اليه في دفع أعدائه كافة، ويجد فيه كذلك مدار استمداد يستغيث به لقضاء حاجاته وتلبية رغباته وآماله كافة، فكما ينتسب كلٌ الى سيده ويفخر بشرف انتسابه اليه، ويعتز بمقامه لديه، كذلك فان انتساب الانسان بالايمان، الى القدير الذي لانهاية لقدرته، والى السلطان الرحيم

ذي الرحمة الواسعة، ودخوله في عبوديته بالطاعة والشكران، يبدل الأجل والموت من الاعدام الابدي الى تذكرة مرور، ورخصة الى العالم الباقي!. فلكم ان تقدروا كم يكون – هذا الانسان – متلذذاً بحلاوة العبودية بين يدي سيده، وممتناً بالايمان الذي يجده في قلبه، وسعيداً بأنوار الاسلام، ومفتخراً بسيده القدير الرحيم شاكراً له نعمة الايمان والاسلام.

(**الشعاعات، الشعاع/١١، المسألة /٦**).

مهمة رسائل النور

ان رسائل النور لاتعمّر تخريبات جزئية، ولاترمم بيتاً صغيراً مهدماً، بل تعمّر ايضاً تخريبات عامة كلية، وترمم قلعة عظيمة - صخورها كالجبال - تحتضن الاسلام وتحيط به. وهي لا تسعى لاصلاح قلب خاص ووجدان معين بل تسعى ايضاً - وبيدها اعجاز القرآن - لمداواة القلب العام المجروح، وضماد الافكار العامة المكلومة بالوسائل المفسدة التي هُيئت لها وركّمت منذ ألف سنة، وتنشط لمداواة الوجدان العام الذي توجّه نحو الفساد نتيجة تحطم الاسس الاسلامية وتياراته وشعائره التي هي المستند العظيم للجميع ولا سيما عوام المؤمنين. نعم انها تسعى لمداواة تلك الجروح الواسعة الغائرة بأدوية إعجاز القرآن والايمان.

فأمام هذه التخريبات الكلية الرهيبة، والشقوق الواسعة، والجروح الغائرة، ينبغي وجود حجج دامغة واعتدة مجهّزة بدرجة حق اليقين وبقوة الجبال ورسوخها، ووجود أدوية مجرّبة لها من الخواص ما يفوق الف ترياق وترياق (مضاد للسموم) ولها من المزايا ما يضاهي علاجات لا حدّ لها.

فرسائل النور النابعة من الاعجاز المعنوي للقرآن الكريم، تؤدي هذه المهمة وفي هذا الوقت اتم اداء، وتحظى في الوقت نفسه بكونها مدار انكشاف لمراتب غير محدودة للايمان ومصدر رقي في مدارجه السامية غير المتناهية.

وعلى هذا المنوال جرت مكالمة طويلة، فسمعتها كاملة، وشكرت الله كثيراً. اجملتها لكم.

ولمناسبة هذه الحادثة أُبيّن لكم حادثة وردت على خاطري في هذه الايام:

عندما كنت أذكر كلمة التوحيد في ختام اذكار الصلاة ثلاثاً وثلاثين مرة وردت هذه الخاطرة على قلبي: ان ساعة التفكر المذكورة في الحديث الشريف

(تفكر ساعة خير من عبادة سنة) موجودة في رسائل النور، فاسع للعثور عليها وامتلاكها... (**الملاحق ، ملحق قسطموني، ص: ١١٩**).

ورطة المتدينين

ان هذا العصر العجيب الذي اثقل كاهل الانسان بالحياة الدنيوية بما كثّر عليه من متطلبات الحياة وضيق عليه مواردها، وحوّل حاجاته غير الضرورية الى ضرورية بما ابتلاه من تقليد الناس بعضهم بعضاً، ومن التمسك بعادات مستحكمة فيهم، حتى جعل الحياة والمعاش هي الغاية القصوى والمقصد الاعظم للانسان في كل وقت.

فهذا العصر العجيب اسدل بهذه الامور حجاباً دون الحياة الدينية والاخروية والابدية، او في الاقل جعلها امراً ثانوياً او ثالثياً بالنسبة له. لذا جوزي الانسان على خطئه هذا بلطمة قوية شديدة حوّلت دنياه جحيماً لا تطاق.

وهكذا يتورط المتدينون ايضاً في هذه المصيبة الرهيبة، ولا يشعر قسم منهم انهم قد وقعوا في الورطة. واذكر مثالاً:

رأيت عدداً من الاشخاص – من اهل التقوى – يرغبون في الدين ويحبون ان يقيموا اوامره كي يوفقوا في حياتهم الدنيوية ويفلحوا في اعمالهم. حتى ان منهم من يطلب الطريقة الصوفية لاجل ما فيها من كرامات وكشفيات. بمعنى انه يجعل رغبته في الآخرة وثمارها تكأة ومرتبة سلم للوصول الى أمور دنيوية، ولا يعلم هذا ان الحقائق الدينية التي هي اساس السعادة الدنيوية كما هي اساس السعادة الاخروية، لا تكون فوائدها الدنيوية الاّ مرجحة ومشوقة، فلو ارتقت تلك الفائدة الى مرتبة العلة لعمل البر، فانها تبطله، وفي الاقل يفسد اخلاصه، ويذهب ثوابه.

وقد ثبت بالتجربة ان افضل منقذ من ظلم هذا العصر المريض الغادر المشؤوم ومن ظلماته الدامسة؛ هو النور الذي تشعه رسائل النور بموازينها الدقيقة وموازناتها السديدة. يشهد على صدق هذا اربعون ألف شاهد.

بمعنى ان القريبين من دائرة رسائل النور ان لم يدخلوها ، فهناك احتمال قوي لهلاكهم.

نعم! ان هذا العصر قد جعل حتى المسلمين يستحبون الحياة الدنيا ويرجحونها على الاخرة على علم منهم ورغبة فيهم، كما تشير اليه الآية الكريمة : (يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة) (ابراهيم: ٣)

(الملاحق ، ملحق قسطموني، ص: ١٤٦)

التقوى والعمل الصالح

لقد فكرت - في هذه الأيام - في أسس التقوى والعمل الصالح، اللذين هما اعظم أساسين في نظر القرآن الكريم بعد الإيمان.

فالتقوى: هي ترك المحظور والاجتناب عن الذنوب والسيئات.

والعمل الصالح: هو فعل المأمور لكسب الخيرات.

ففي هذا الوقت الذي يتسم بالدمار - الأخلاقي والروحي - وبإثارة هوى النفس الأمارة، وبإطلاق الشهوات من عقالها.. تصبح التقوى أساساً عظيماً جداً بل ركيزة الأسس، وتكسب أفضلية عظيمة حيث انها دفع للمفاسد وترك للكبائر، إذ ان درء المفاسد أولى من جلب المنافع قاعدة مطردة في كل وقت.

وحيث ان التيارات المدمرة أخذت تتفاقم في هذا الوقت، فقد أصبحت التقوى اعظم أساس واكبر سد لصد هذا الدمار الرهيب. فالذي يؤدي الفرائض ولا يرتكب الكبائر، ينجو بإذن الله، إذ التوفيق إلى عمل خالص مع هذه الكبائر المحيطة أمر نادر جداً.

ان عملاً صالحاً ولو كان قليلاً يغدو في حكم الكثير ضمن هذه الشرائط الثقيلة والظروف العصيبة.

ثم ان هناك نوعاً من عمل صالح ضمن التقوى نفسها، لان ترك الحرام واجب والقيام بالواجب ثوابه اكثر من كثير من السنن والنوافل.

ففي مثل هذه الأزمان التي تهاجم الذنوب والسيئات الإنسان من كل جانب يكون اجتنابُ أثمٍ واحد مع عمل قليل، بمثابة ترك لمئات من الآثام - التي تترتب على ذلك الإثم - وقيام بمئات من الواجبات.

هذه النقطة جديرة بالاهتمام، ولا تحصل الا بالنية الخالصة وبالتقوى وقصد الفرار من الآثام والذنوب، ويغنم المرء بها ثواب أعمال صالحة نشأت من عبادة لم يصرف فيها جهداً.

ان أهم وظيفة تقع على عاتق طلاب النور خدام القرآن الكريم، في هذا الوقت هي:

اتخاذ التقوى أساساً في الأعمال كلها، ثم التحرك وفقها أمام تيار الدمار الرهيب المهاجم والآثام المحيطة بهم، إذ يواجه الإنسان ضمن أنماط الحياة الاجتماعية الحاضرة مئات من الخطايا في كل دقيقة، فالتقوى هي التي تجعل – دون ريب – الإنسان كأنه يقوم بمئات من الأعمال الصالحة، وذلك باجتنابه تلك المحرمات.

من المعلوم ان عشرين شخصاً في عشرين يوماً لا يستطيعون بناء عمارة واحدة في حين يستطيع ان يهدمها شخص واحد في يوم واحد.

لذا فالذي يقوم بالهدم والدمار ينبغي ان يقابَل بعشرين ممن يبنون ويعمرون تلك النواحي، بيد أننا نرى العكس. فالألوف من الهدامين لا يقابلهم الا معمر واحد وهو رسائل النور.

لذا فمقاومة خدام القرآن الكريم وحدهم تلك التخريبات المريعة إنما هي عمل خارق جداً. فلو كانت هاتان القوتان المتقابلتان على مستوى واحد من القوة، لكنت ترى في التعمير والبناء – الروحي والأخلاقي – خوارق وفتوحات عظيمة جداً.

ولنضرب مثلاً واحداً فقط:

ان أعظم ركيزة في الحياة الاجتماعية هي: توقير الصغير للكبير ورحمة الكبير للصغير. الا أننا نرى ان هذا الأساس قد تصدع كثيراً. حتى إننا نسمع اخباراً

مؤلمة جداً، وحوادث مفجعة جداً تجاه الآباء والأمهات، تقع من جراء خراب هذا الأساس الراسخ.

ولكن بفضل الله فان الرسائل القرآنية أينما حلت قاومت الدمار، وحالت دون تهدم هذا الأساس الاجتماعي المتين، بل حاولت تعميره.

فكما يعيث ياجوج وماجوج في الأرض الفساد بخراب سد ذي القرنين، فان فساداً أبشع من فساد ياجوج وماجوج قد دبّ في العالم وأحاطه بظلمات الإرهاب والفوضى وعمت الحياة والأخلاق مظالم شنيعة وإلحاد شنيع.. فظهر الفساد في البر والبحر، نتيجة تزلزل السد القرآني العظيم، وهو الشريعة المحمدية الغراء.

لذا فان الجهاد المعنوي لطلاب النور ضد هذا التيار الجارف يعدّ - بإذن الله - جهاداً عظيم الثواب ، إذ فيه قبس من جهاد الصحابة الكرام رضوان الله عليهم الذين يثابون بعمل قليل ثواباً عظيماً.

فيا اخوتي الأعزاء:

في مثل هذه الأوقات العصيبة، وأمام هذه الأحداث الجسام، فان اعظم قوة لدينا - بعد قوة الإخلاص - هي قوة الاشتراك في الأعمال الأخروية إذ يكتب كل منكم في دفتر أعمال اخوته حسنات كثيرة مثلما يرسل بلسانه الإمداد والعون إلى قلعة التقوى وخنادقها.

وان أخاكم الفقير والعاجز هذا السعيد الذي اشتدت عليه غارات الهجوم من كل جهة، هو أحوج ما يكون إلى مساعدتكم في هذه الأشهر الثلاثة المباركة، وفي هذه الأيام المشهودة.

ولا استبعد هذا منكم قط، فانتم أهل لهذا السعي، وانتم الأبطال الأوفياء المشفقون على حال أخيكم، وأنا اطلب منكم هذا الإمداد المعنوي بكل جوارحي ومن صميم روحي.

وبدوري سأشرك الطلاب في دعواتي وحسناتي المعنوية، بل ربما أدعو لكم في اليوم اكثر من مائة مرة باسم طلاب النور، بشرط الالتزام بالإيمان والوفاء، وذلك دستور الاشتراك في الأعمال الأخروية. **(الملاحق- قسطموني/١٦٩)**

الفهرس

في رحاب القرآن....٩٧

من بستان الآخرة....١٢٥

باقة من الموازين....٢٥٩